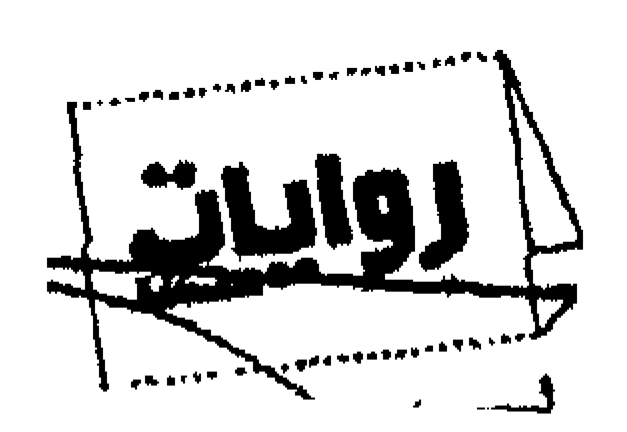
السير على الأطراف

مدحت طه

رواية

صفصافة
SEFSAFA PUBLISHING HOUSE
WWW.SEFSAFA.NET

السير على الأطراف



مدحت طه

صفصافة
SEFSAFA PUBLISHING HOUSE
WWW.SEFSAFA.NET

مدحت طه/ شاعر ومترجم وناقد مصري من مواليد عام 1956، تخرج من كلية الطب بجامعة عين شمس ومارس الكتابة والترجمة الأدبية بجانب الطب، حيث ترجم أعمالا لكبار كتاب اللغة الإنجليزية، مثل "الطفل الخامس" للفائزة بنوبل دوريس ليسنج، و"قلب الظلام" لجوزيف كونراد.

السير على الأطراف
رواية
الطبعة الأولى سبتمبر 2015
رقم الإيـــداع: 2015-7718
الترقيم الدولي: 978-977-5154-42-2

الناشر
محمد البعلي

إخراج فني
علاء النويهي

الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبّر بالضرورة عن رأي دار صفصافة



دار صفصافة للنشر والتوزيع والدراسات
5 ش المسجد الأقصى - من ش المنشية - الجيزة - ج م ع

السير
على
الأطراف

المحتويات

أحاديث المجالس

يظن كثير منا أن الأرض خلقت فقط لكي نكد عليها ونمشي في مناكبها حتى ندفن في ترابها، ثم يخلق ربك منا خلقًا جديدًا، وهذا صحيح بقدر، فقد خلقها الله كي يسكنها البشر إلى جانب مخلوقاته الأخرى، والسكنى رضا وقبول، يأتلف فيه الساكن بالمسكون، فيها يكمن سر الألفة، وربما ارتباط أبدي يربط إنسانًا ما ولد في بقعة ما من الأرض بحبل سري لا تنفصم عراه إلا بالموت. ويؤمن الملايين من أهل الهند بأن الأرواح تتناسخ، بينما أنا من القلة الذين يؤمنون بأن الأمكنة تتناسخ، وقد أتجرأ فأقول أنها تتناسل وتتزاوج بالأرواح الساكنة فيها، ولعلها تبني جسورًا لامرئية على شطوط المكان بين الأرصفة المتربة المغبرة، وأنفاس المارة وساكني الجدران.

شيء من هذا الإيمان المبهم يختلج في عقلي منذ وعيت، وعشت بين الناس عابرًا جسور الود والصد، مشدودًا على مر السنين بحنين غامض لأمكنةٍ؛ ربما لم أرها قط من قبل، لكن ما أن تطأها قدمي حتى تنطلق في روحي تلك الشرارة، فيُهيأ لي أن التراب العالق بالجدران يشكل حبيبات تسبق خطواتي إليه، تنفذ من الرأس إلى الرئتين، لتسكن صدري مختلطاً بشهيق الروح، فإذ بي أهيم ولعًا بالمكان، وأسقط أسيرًا لملامحه، التي ما أن تعبر الحدقة

حتى تبقى ماثلة لا تفارقني صورتها ... أمكنة كثيرة – غير البقعة التي شهدت مولدي- نشأت بيني وبينها علائق لم تزل تربطني بها، لا أدري كيف أو لماذا؟ لكن يقينًا أنني من المتورطين في عشق الأمكنة.

كان مولدي في لحظة غليان، يموج العالم فيها في فوضى إعادة التكوين، وتتقلب فيه أهواء الناس، وتراود الأخيلة كل طائفة فيه عن المثال الذي تروج له بين الناس، لا شك أن زمن مولدي هذا مصادفة، أما مكانه فلا يبدو كذلك، فرغم أن البقعة التي شهدت مولدي لا تتعدى كونها موقعًا من ملايين المواقع في أرض القاهرة لا يتمتع بأية ميزة واضحة، إلا أنه عاصر أحداثًا شتى في وطن مترع بالذكريات، شغوف بتدوينها على الأحجار لتبقى - ولو في باطن الأرض- شاهدًا لا تمحوه الأيام. ربما كانت تلك مصادفة مكانية لا أكثر، لكن شيطان الأسئلة اللعين فجر السؤال في رأسي كلما مرت الأيام، وامتلأ دفتر التذكار بما لا يعد ولا يحصى من أحوال، ما سر القدر الذي اختار مولدي في هذا الزمان المشحون، وفي تلك البؤرة من أرض القاهرة؟ والأهم ما سر تلك المصادفة المحيرة أن أولد لأبوين يتيمين، فقدَّ كل منهما أباه في عمر الصبا؟ وإن لم يستسلم أي منهما لمصيره، بل اختار كلاهما أن يعانده، وأن يواجه يتمُه بكل ما أوتي من عزمٍ في بحر الحياة، الذي لاطمهم بلا هوادة، فاكتسبا صفات العناد والصبر والمثابرة، وسارت تلك الصفات مسارها إلى الجينات، وفعل قانون الوراثة فعلته بي!

كنت طفلاً صموتًا لا يُقبِل على اللعب مثل أقرانه، ولوعًا بالحكايات، أنصت لحكايات جدتي لأبي بلهفة، وأغوص في

عوالمها أستقي منها صورًا لشخوص تقربني رويدًا رويدًا من تاريخ عائلتي، انتصاراتها وهزائمها، وكلما استمعت لحكاية من الحكايات عن سيّر الأهل أخذت بتلابيبي الغواية.

عشت طفولتي وصباي في حي العباسية، ووقعت أسيرًا للجدل في الأمسيات شبه الأسبوعية بمنزل الأسرة الصغير، تلك الأمسيات التي كانت تجمع حمدي أخي الأكبر، ومن تصادف وجوده من الأهل، الخال الوحيد عبد الله، أو العم الوحيد جلال، أو محمد عامر، مأمور الضرائب زوج الخالة التي تسكن حي منشية البكري، أو لملوم زوج الخالة التي تسكن في شارع رمسيس، والذي كان منتميًا فيما يقال لجماعة الإخوان، أما سيد أبورجيلة، زوج خالتي التي تسكن حي معروف، فهو سليل عائلة ثرية أصابها ما أصاب غيرها جراء قرارات التأميم، وكان والحق يقال يتمتع بشخصية منفرة جعلت الجميع ينبذونه، بسبب تباهيه الدائم بأن أولاده الأربعة وابنته الوحيدة يتعلمون في مدارس فرنسية، ما يعني أنهم بالضرورة أعلى مكانة من كل أبناءالعائلة! بينما كان القاسم المشترك في هذه الأمسيات جارنا عبد الرحيم سلمان، الضابط بسلاح الطيران، الذي تربيت أنا وأختي هدى وسط بناته الخمس.

التقطت أذني في هذه الجلسات كثيرًا من العبارات ذات الرنين، وتتبعت بشغف المناقشات الحامية التي دارت حول عهد الملكية - الذي كان أبي وخالي عبد الله من أنصاره- وعهد الثورة - الذي كان أخي حمدي هلال وأمي من أنصاره- وعندما سافر أخي حمدي وأنا بعد صبي في الثامنة من عمري، مع من سافروا إلى حرب اليمن، لم أفهم مغزى تلك الحرب التي وصفها أخي بالحرب على

الجهل والتخلف والرجعية، باعتبار حكم الملك الإمام في اليمن يمثل تلك الرجعية، وكان حمدي يقول بثقة: الحرب هي الوسيلة الوحيدة لتقدم ذلك البلد، والسبيل الوحيد لفرض الأفكار التقدمية على مجتمع قبلي لا زال يغطُ في سباتٍ لا يبدو له منه إفاقة! دهشت وكنت بعد صبيًا من الانشغال بهذا البلد على النحو الذي بلغ حد دخول الحرب، كما أن ما حمله العائدون من ملابس وأدوات كهربائية رخيصة الثمن، كان محل تساؤل ساذج؛ ما العلاقة بين القومية العربية ومحاربة الملكية والرجعية في اليمن، بالثلاجات وأجهزة البيك آب وملابس النساء الداخلية؟!

في نفس الفترة تقريبًا، عاد أبي من رحلته - كغيره من موظفي الدولة- إلى قطاع غزة، محملاً بملابس وهدايا تذهب بعقول الرجال والنساء على حد سواء، وهي في الأصل ملابس مستعملة تأتي من أوروبا - كما ذكر لي أبي- مشحونة في بالات يبيعها أهل غزة بأسعار زهيدة، فهم لم يدفعوا فيها إلا تراب الفلوس! وحيرني وقتها أن أبي لم يحدثنا عما رآه هناك من أحوال البشر، أو ما يفيد عمن قابلهم من الأهالي، ولم يذكر أي حديث ولوعابر جرى بينه وبين أحد من سكان القطاع!

في تلك الأيام من ستينيات القرن الماضي، كانت زيارات خالي عبد الله لنا بسيارته المرسيدس محل تباهٍ منا جميعًا، محملاً بهدايا أصلية من بلادها الأصلية، التي يحضرها معه من رحلاته المتكررة، ممثلاً لشركته في تعاقداتها الخارجية، حيث كانت شخصيته المبهرة تبعث دائماً روح المرح في كل مجلس يحضُره، وكان قادرًا على الاستحواذ على آذان مستمعيه بعفوية محببة،

دائم السخرية من نفوذ أهل السلطة وتجاوزهم لكل القوانين، وكان يطلق ضحكته المجلجلة قائلاً لأمي في لهجة العارف الناصح: اسمعي يا فوزية، اعملي إللي إنت عايزاه، وما تخافيش من حد في البلد دي، بالفلوس القاتل بيطلع براءة، فاهمة يا فوزية! والحقيقة أن فوزية لا فهمت ولا قبلت كلامه إلا على سبيل الدعابة، وبعض النشوى بسلطان أخيها الواصل.

على النقيض من خالي كان أخي لأمي حمدي هلال، رجلاً مؤمنًا بالنظام والقانون لدرجة الوسواس القهري، مشهودًا له بين زملائه من الضباط، ورغم السلطة المتاحة له بحكم موقعه في الجهاز لم يكن يقبل مجرد حديث عن طلب وساطة، أو أي تجاوز للقانون مهما كانت الأسباب، وبطبيعة الحال كانت أمي تعاني نفس الوسواس، ولعل السر كان في ظروف نشأتها كسيدة عصامية ربت نفسها بنفسها، فعندما تركت منزل أمها بالمنصورة - بعد زواجها من السيد/هلال- التحقت بالدراسة في القسم الحر بمعهد الموسيقى العربية - معهد فؤاد الأول سابقًا- ومنه انتقلت إلى الكونسيرفتوار- قسم أصوات، وعملت في الوقت ذاته مدرسة موسيقى في الصباح، وقبل وفاة زوجها هلال، ألحقت حمدي بكلية البوليس - مدرسة البوليس العليا سابقًا - متحملة كافة النفقات بما يفوق قدراتها المتواضعة، بعيدًا عن أهل زوجها من الباشوات.

التقى أبي بها في عملها كمغنية في كورال الأوبرا المصرية، حيث كان أخوه جلال موظفًا إداريًا بها، وبعد قصة حب امتلك فيها أبي قلب الأرملة السمراء ابنة الثلاثين، ورغم رفض أهله واعتراض خالي عليه تحديا الجميع وتزوجا! ظلت فوزية متشبثة بنمط

سلوكها المثالي، الذي ورثته عن أمها ذات الأصل التركي التي أدارت فندقًا بحي توريل بالمنصورة، وربما كان المصدر الآخر لتلك المثالية والدها السوداني الأصل، الذي رحل عن الدنيا وهي بعد في العاشرة من عمرها، إضافة إلى ما تركه موت الأب المبكر من شعور اليتم، ما بث فيها صلابة تتناقض مع إحساس خفي بالدونية بسبب بشرتها السمراء حاولت اخفاءها طيلة حياتها دون جدوى، خصوصًا بعد زواج أمها من جودت أغا التركي الأصل، وإنجابه خالاتي الأربع، اللاتي تمتعن بجمال الأتراك، نتيجة المقارنة التي فرضها لون بشرتها السمراء وملامحها الأفريقية مع بشرة خالاتي بنات الأغا البيضاء وعيونهن الملونة.

في المقابل كان أبي محمد العطار ابنًا لأحد موظفي الدولة البسطاء، الذي كان بدوره الابن الوحيد لأبيه لكنه رفض مزاولة التجارة معه، وآثر أن يصبح من الأفندية بعد حصوله على الابتدائية القديمة، تاركًا أبناء عمومته مع أبيه لتجارتهم في بولاق أبو العلا، حتى مات في الأربعينات تاركًا أبي وأخاه الأكبر جلال والأختين رقية وهانم في عهدة جدتي إخلاص، التي ترملت على أبنائها الأربعة حتى موتها، وظل أبي حتى مات يحيا بوصفه ابنًا لطبقة جدوده التجار الأغنياء، في الوقت الذي لم يتجاوز واقعه يومًا مستوى أمثاله من الفنيين، وإن تميز على طبقة الإداريين بدبلوم النسيج إلا أن دخله تجمد عند الحدود الدنيا لموظفي الدولة البؤساء، وشكل ارتفاع دخل أمي من عملها صباحًا كمدرسة ومساءً كمغنية بكورال الأوبرا - أيام مجدها قبل الحريق المشئوم - عائقًا أمام نشوء علاقة طبيعية كان ممكنًا أن تقوم بينهما، ولم يستطع أيهما تجاوز هذا المأزق أبدًا.

وما أن تأكد لها ضعف دخل أبي، اعتبرت نفسها مسئولة عن تربيتي أنا وهدى - وكأنه قدرها الذي لا مفر منه- ولم تكن المشاحنات بينهما تهدأ إلا لتثور مرة أخرى، وكلما خرج هاربًا من مواجهة تأنيبها، لاحقته لعناتها ودعواتها عليه بألا يعود! وذات يوم تعالى صوتهما، وبالغت أمي بعض الشيء في عتابها له، معلنة أمامنا أنا وهدى بصراحة ولأول مرة، أنه لا يحق له التصرف كرجل البيت طالما لا ينفق عليه، وعندما بلغ الأمر ذروته خرج أبي كعادته متوعدًا إياها ألا يعود إليها أبدًا.

نظرت بطفولة مهدرة أنهكها الشجار الدائم بينهما جهة أختي المتكورة على ألمها في ركن السرير، تتابع ما يجري باكية، وانتابتني رعشة من يوشك على فقد الروح، بهت وجهي وغاب الدم عنه لحظات، ليعود الدم إليه عاتيًا يكاد يفجر عروقي غضبًا. كتمت مشاعري واحساسي بقلة الحيلة- كنت بعد في سن الحادية عشرة- وعجزي عن فهم أيًا منهما، الأم التي لا تتورع عن تقريع زوجها بكل عبارات التأنيب، والأب الذي يصر على صمته ويكتفي بالخروج!

انتظرت خروج أمي لعملها في الأوبرا، وبعد أن غسلت هدى وجهها الباكي وبدأت تغفل أو تتغافل عما جرى، تعللت لها بأنني سأتمشى قليلاً حول البيت، واتجهت لمحطة الترولِلي باص المتجهة لوسط المدينة، وطلبت من الكمساري أن يخبرني عندما نصل لمحطة الألفي، عند تقاطعه مع شارع عماد الدين حيث يقع مقهى أبي، الذي واظب على الذهاب إليه من أيام شبابه في شبرا حتى موته. وفي شارع عماد الدين سألت عن مقهى

"ركس" دخلته بخطى متلعثمة، نظري معلق برؤيته، وكمن شعر بوجودي فالتقطتني عيناه واقفًا وسط المقهى الواسع، ذي الأعمدة المجلدة بالمرايا على امتداد البصر، فانتفض مذعورًا يسأل في لهفة: حصل إيه؟إيه إللي جابك؟ جيت إزاي؟ أختك وأمك جرى لهم حاجة؟ انهالت أسئلته على رأسي الذي يعج أصلاً بالعديد من الأسئلة الاستنكارية كالمطرقة، وبهدوء لم أدر من أين جاءني قلت له: أبدًا كلهم بخير ما تقلقش، ممكن نقعد على جنب لوحدنا. نظر إليَّ مصدومًا من طفله الذي ينبهه إلى أن الأمور العائلية لا تناقش على الملأ، فانتحى بي جانبًا، وطلب لي كوبًا من العصير محاولاً لملمة شتات لهفته لمعرفة سر الزيارة الصاعقة.

وصلت هنا إزاي؟ مالك يا ابني فيه إيه؟ قلت له وعيني مسلطة على المرآة هربًا من نظرة عينيه المشوبة بالذعر محاولاً إخفاء نظرة عدم الرضا تلوح في عيني ولا حق لي فيها : ما تشغلش بالك بيًّا أنا راجل وأعرف أحل مشاكلي، ومِجِيِي هنا مش حاجة صعبة للدرجة دي، أما أمي فهي أمي ولا أملك لها شيئًا، وطريقتها في الكلام معاك والمشاكل اللي بينكم مش حتتغير، المشكلة إللي جابتني هي هدى. سألني ملهوفاً: مالها هدى؟ جرى لها حاجة لا سمح الله؟ فأجبته: أبدًا هي بخير، بس أنت عارف إن عمرها دلوقت أربعتاشر سنة، ودي سن هي محتاجالك فيها أوي، ولو فقدت النهاردة الرابطة إللي بتربطها بيك، مش حتعرف تربطها بيك تاني أبدًا. امتلأت عينا أبي بالدموع، فهرع إليه أصدقاؤه - الذين كانوا يتابعون المشهد رغم الادعاء بالانشغال في لعب الطاولة- مالك يا محمد فيه حاجة لا سمح الله؟ خير يا عزت يا بني؟ مرت ثوان قبل أن يرد عليهم: مافيش يا اخوانا، كل الحكاية

إن ابني بيربيني فيها حاجة دي، مش عايز حد يدَّخل بينا، ثم احتضنني وهو دامع العينين قائلاً: والله وبقيت راجل يا عزت، يا الله بينا نرجع على البيت سوا. عندما عدنا معًا تعجبت هدى، وسألتنا: اتقابلتم فين؟ أجاب أبي: أبدًا كل الحكاية إني ما قدرتش أسيبكم ليلة العيد.

وبعد امتحانات شهادة الإعدادية، بينما كان أبي يستعد للنزول للقاء أصدقائه المعتاد بالمقهى، استأذنته أن يبحث لي عن عمل، اتسعت عيناه دهشة وقال: ليه مش لاقي تاكل لا سمح الله؟ فقلت: أبدًا يا بابا مش ناقصني حاجة، لكن مش حابب أفضل طول الأجازة في البيت مع الحريم. زادت دهشته وسأل مستنكراً: حريم مين؟ فقلت: أمي وأختي، هو أنا مش راجل ومن حقي أجرَّب الدنيا، فربت على كتفي قائلاً: إللي فيه الخير يعمله ربنا. بعدها بأيام صحبني معه لمحل ساعاتي يملكه صديق له بشارع شبرا، استقبلنا صاحبه الحاج/ كامل بترحاب، شرب أبي قهوته معه وغادر، وبادرني الرجل قائلاً: شوف بقى ياعزت يا ابني، ده عم حسن مسئول النضافة وفتح وقفل المحل، ودي دنيا المسئولة عن البيع، وده عم سعد الكبير بتاعنا، مسئول التصليحات إللي إيده تتلف في حرير، دنيا تاخد من الزبون العربون وتديله إيصال تحدد فيه ميعاد التسليم، ومحمود ابني ساعات ينزل يساعد في الشغل، إن شاء الله تبقوا اصحاب.

عملت في محل الحاج/ كامل شهرين، تعلمت فيهما الكثير عن فن البيع والشراء، وفهم طبيعة الزبون من طريقة كلامه وأسئلته، بل من طريقة إلقائه التحية لحظة دخوله المحل. وبعد فترة

قصيرة صرت أتناول طعام الغداء في بيت الحاج باعتباري واحدًا منهم، وواظب الحاج على تلقيني دروسًا في التجارة، وكان يقول: أي زبون يقف قدام الفاترينة جايز يشتري، وجايز يكون بيتفرج بس، الفرق بينهم بسيط، إللي حيشتري عينه ما توصلش لجوة المحل أبدًا، ورجليه بتسبقه، وسؤاله بيحدد طبيعة طلبه، والزبون إللي بيفهم بيبان، والزبون إللي أسئلته كتير، تبلفه بكلمتين حلوين ولازم تقنعه إنك أكرمته، وده بيشتري بأي سعر زي الباشا.

تقربت أثناء عملي في محل الساعات من عمي جلال، وكنت أمر عليه بعد انتهاء العمل لأقابل جدتي إخلاص، وصار بيننا كلام وحواديت عن جدودي وأولاد عم أبي وأولاد خالاته، وابن عمها الأميرالاي صالح خفاجة الذي سعى للزواج بها، وسألتها: وليه لأ يا ستي ماهو كان من العيلة، وكان حيساعدك في تربية أبويا واخواته، أجابت وعيناها سارحتين في أفق غير منظور: يا بني أنت لسه صغير مش فاهم الدنيا، لما جدك مات عاهدت نفسي ما يكونش في حياتي إلا ولادي، وكمان لو كان الأميرالاي اجوزني وصرف مليم على ولادي، كان حييجي يوم يذلهم بيه، وكرامة ولادي بالدنيا، فاهم يا بني. قلت: ياه يا ستي إيه الاخلاص وعزة النفس دي كلها، بس برضه الحكاية لازم وراها جذور تانية، ضحكت وهي تزغدني بمرح: جذور إيه يا أبو جذور، أنت أصلك ماتعرفش عيلتك كويس، ولاّ فوزية ملت دماغك بكلامها الفارغ عننا، يا بني احنا ناس نعرف الأصول، وكلنا بنقدرها رغم خلافاتها مع محمد وقسوتها معاه، وشايلين لها إنها بتربيكو أحسن تربية وحافظة اسم جوزها، لكن لازم تعرف إن جدودك كانوا أحسن ناس، ليهم عيوبهم آه، فيهم العبَّر جايز، لكن يعرفوا الأصول والبذرة في

الأصل طيبة، فاهم يا بني.

في نفس الوقت بدأت صلتي بوسط البلد، من خلال زياراتنا لمنزل خالي بشارع قصرالنيل، كلما صحبتني أمي أنا وهدى لزيارة زوجته وأولاده، للاطمئنان عليهم وتصريف أحوالهم أثناء سفره المتكرر، بصفتها الوكيل والولي المتصرف في شئونهم في غياب خالي، كنا في كل زيارة نخرج من المدرسة ونتوجه لميدان الأوبرا، حيث تشتري أمي الغداء من بقالة باسترادس اليوناني من الممر المقابل لبيت خالي - عادة جبنة بيضا وجبنة رومي وزيتون أسود مع سميط بالسمسم - وفي كل مرة كانت زوجة خالي الإسكندرانية تلومها قائلة: يعني خلاص يا فوزية حنعجز نغديكو، ما خير أخوكي كتير، فترد أمي: أصل الولاد غاويين رمرمة، دايمًا عامر يا أختي. وبالإضافة لهذه الزيارت تعددت المرات التي صحبني فيها أبي معه للمقهى حتى يحين موعد خروج أمي من حفلات الأوبرا في الموسم الشتوي، ننتظرها على باب خروج الفنانين لنعود معًا للبيت.

كان عم/ نور النوبي الجميل حارس الأوبرا، بجلبابه وعِمَّتُه ناصعة البياض التي تتربع على قمة رأسه الشامخ بقامته المهيبة مَعلمًا من معالم الأوبرا انطبعت في ذاكرتي كطفل؛ وكثيرًا ما اصطحبتني أمي معها في البروفات وسلمتني له، وكنت أفلت من رقابته لأتجول بحرية في الأركان والردهات ذات الأرضيات الخشبية العتيقة، حيث يوجد العديد من آلات البيانو والكونترباص والتشيللو هنا وهناك، تحتويني بجلال أشكالها التي حفرت في ذاكرتي ببريق أخشابها، ولم تكن بعيدة عن خيالي الطفولي، فقد

ولدت والبيانو في البيت هو قطعة الأثاث الأهم والأشيك، وهكذا، كنت أغافل عمي جلال الموظف الإداري وعمال المسرح، لأنزوي في ركن ما بالكواليس، أتطلع منه إلى طاقم العمل من المغنيين السوليست، والكورال، وراقصي الباليه، والعازفين، وأتأمل رواد اللوج والبلكون والصفوف الأمامية من علية القوم والسفراء والخواجات المقيمين، الذين يحرصون على حضور حفلات الموسم الشتوي، أما حجرات الفنانين فقد كانت فسيحة، أرضيتها من الباركيه، وبها أحواض للاغتسال ذات مرايا فخمة بإطارات مذهبة، وبها شيزلونج، وكرسي طراز لويس التاسع لكل فنان، ولا يزيد عدد فناني الحجرة عن اثنين.

مع الوقت صارت المسافة الفاصلة بين ميدان الجيش وميدان الأوبرا، أشبه بممر الحرير أنزلق عليه جيئة وذهابًا، أحيي تمثال إبراهيم باشا بميدان الأوبرا، شاخصًا جهة قلب المدينة من فوق حصانه، رابضًا وسط الميدان، قابضًا على تاريخ حافل مسجلاً على قاعدته الرخامية، مشيرًا بإصبعه ولسان حاله يقول: من هنا تبدأ الغواية.

اعتدت السير من ميدان العتبة إلى ميدان الأوبرا، حيث سينما أوبرا وكازينو صفية حلمي وفندق الإنتركونتننتال وحديقة الأزبكية بأشجارها العتيقة، حتى بيت خالي بجوار جامع الكخيا، أو إلى شارع عدلي حيث حديقة جروبي وسينما مترو في نهايته، ومنه إلى شارع سليمان باشا، وفيه بعد تقاطع شارع عبد الخالق ثروت، كان ملهى البيروكيه وفندق إنترناسيونال – يقع الآن مكانه مول طلعت حرب- ثم سينما ومسرح راديو في نهاية ممر اشتهر

يمحل يبيع الأسطوانات والشرائط لأشهر الفرق الغنائية في العالم والموسيقى الكلاسيكية بكل أنواعها، أما شارع قصر النيل فهو يمتد من جامع الكخيا إلى حيث محلات شالون وصالون فير ومكتبات بيع الكتب الأجنبية وشركات الطيران وأرقى محلات الملابس وكافيتيريا لاباس، كثيرة هي معالم وسط البلد، وإن ظل في القلب منها ميدان الأوبرا التي احترقت ولم يبق منها في الذاكرة سوى الرماد.

لم تمض أجازة نهاية العام الدراسي في الفصل الأول الثانوي هباء؛ فقد انغمست في قراءة الكتب التي كان أبي يحتفظ بها، وتفتحت عيناي على عالم جديد، عالم الكلمة، وكنت قد تعرفت في فصول المتفوقين بمدرسة إسماعيل القباني الثانوية بالسوهاجي، الذي امتلك أبوه مكتبة ذاخرة في ميدان عبده باشا جهة الترام- قبل إزالته- وتحسسنا معًا طريقنا للمعارف، وصرنا نتبارى في القراءة ومناقشة ما نقرأ، كما كنا نذهب معًا لمشاهدة أفلام هوليود في سينما مترو وكايرو وقصر النيل، ونستمتع بالذهاب إلى حفلات الكونسير- مستفيدين من تخفيض الـ 50 % للطلبة – وعندما استعرت الكتاب الأول من مكتبة أخي حمدي بعنوان "مقدمة في الفلسفة العامة" أشفق عليّ قائلاً: هذه بداية صعبة ومربكة، لم لا تبدأ بروايات نجيب محفوظ ومسرح توفيق الحكيم، فقلت له متباهيًا: أنا قريت أغلال الإنسانية لسمرست موم، وزوربا لكازانتاكس، والبؤساء لفيكتور هوجو، وثورة الشعر الحديث ترجمة عبد الغفار مكاوي، وقرأت مسرحيات ليونسكو وبريخت وإبسن في سلسلة المسرح العالمي، ولست قارئًا مبتدئًا! نظر إليّ يكاد يكذبني بعينيه ثم ابتسم وقال: إذن تحمل نتيجة ما أنت

مقبل عليه.

كان حمدي على حق؛ فقد أقبلت على قراءة الفلسفة بنهم، قرأت كل ما وقعت عليه عيناي أنا وزميل الدراسة السوهاجي من كتب زكريا إبراهيم، وألبير كامو، وهنري برجسون، وبرتراند راسل وغيرهم، وفتحت لي صداقتي بالسوهاجي آفاقًا جديدة، بحكم صداقات أخيه الأكبر مع طلبة الجامعة من زملاء الحي، نلتقي بعد العاشرة ليلاً حين تهدأ حركة الشوارع، وينتهي كل منا من طقوسه اليومية، مما أوحى لنا بتسمية شلتنا "الوطاويط".

كان بيتنا محاصرًا من جميع الجهات بفيلات الأثرياء من أبناء الأرستقراطية القديمة، التي أصابها الكثير من ضيق الأحوال بعد الثورة وقرارات التأميم، وكان بمثابة المركز في دائرة قطبها الجنوبي ميدان الجيش، وقطبها الشمالي ميدان الاسبتالية الفرنساوي - المستشفى الجوي حاليًا.

تبدأ معالم ميدان الجيش بمقهى عرابي - مقهى نجيب محفوظ أيام إقامته بالعباسية- عند مدخل الحسينية أو شارع سيدي البيومي، بسوقه التي تمتد حتى باب النصر، ومقهى أوبرج العباسية على ناصية شارعنا، ثم القهوة التجارية على ناصية شارعي النزهة والشيخ قمر، اللذين ينتهيان بقصر السكاكيني باشا. ومن الميدان إلى شارع الظاهر، حيث جامع الظاهر بيبرس المهيب، الذي يتوسط الميدان على شكل مربع يحاوط النخيل أضلاعه، ويتوسط الجامع الواسع ساحة الصلاة محاطة بأسواره، التي تحوي أسرارًا مملوكية اختلفت كتب التاريخ في سردها،

ووصف أحوال ما دار فيها من معارك المملوك بيبرس ونهايته المأساوية.

يبدأ شارعنا، شارع سبيل الخازندار، بالقرب من نهاية شارع الجيش - الملكة فريال سابقًا- بمبنى مدرسة الأهرام أوالمدرسة اليهودي أو المدرسة الحمراء، بجدرانها المكسوة بالطوب الآجر الأحمر، عند تقاطعه مع شارع الطرابيشي - كان فيه مصنع للطرابيش أيام زمان ومصانع نسيج تبقى منها القليل -الذي يمتد حتى شارع المنصورية القريب من جبل وحي الدراسة. ما إن ينتهي سور المدرسة، حتى يلوح للعابر مبنى واطئ مبني بنفس الطوب الآجر، ظل غامضًا لا أعرف له وظيفة حتى انتهيت من الدراسة في الجامعة، حين اكتشفت أنه مقر جمعية يهودية تحفظ وثائق العائلات اليهودية من زواج ومعاملات مالية وملكية عقارات وغيرها من أيام نوبار باشا.

على بعد خطوات من بيتنا كانت تقع فيلا الأزهري، أحد شيوخ الأزهر القدامى، وخلفها فيلا سهير القلماوي على بعد خطوات من المنزل القديم للفنان عبد المنعم مدبولي. كان صاحب عمارة زوزو – عمارتنا- مقاولاً عصاميًا عُرف بعطفه على الفقراء، وكانت أمي تذكره دائمًا بكل احترام وتقدير، وتشيد بتحرياته التي كان يجريها عن ساكنيه الجدد قبل التعاقد، حرصًا على سمعة السكان والعمارة، وكان يملك عمارة أخرى في شارع الجنزوري، وثالثة في ميدان باب الشعرية.

على ناصية شارع الجنزوري الذي يتقاطع مع شارعنا كانت

تقع فيلا العوانس الثلاث، المبنية على الطراز القوطي بثلاثة أبراج تعلوها من جوانبها المغطاة بالطوب الآجر الأحمر، الذي يتناغم بنعومة مع لون خشب الشبابيك البني، التي صممت على هيئة أقواس تحدد الجدران بلونها السمني، مع بوابة حديدية عالية تنحدر إلى سور حديدي مشغول على هيئة أقرب لأسوار الكنائس، كانت العوانس الثلاث بنات أحد ضحايا التأميم، مات كمدًا يوم أبلغوه بخبر تأميم أملاكه، ولم نكن نراهن إلا عندما يخرجن في ملابس الحداد الأنيقة ليركبن سيارتهن "البينيت" السوداء لأداء واجب عزاء، أو في ثياب السهرة لتلبية دعوة لحفل زواج، أو في الأعياد القبطية لزيارة الكنيسة، وكانت الحكايات التي تُروى عن العوانس الثلاث تذكرني لسبب لا أدريه برواية "مرتفعات وذرينج"، بماضيهن الغامض الذي يقبعن في تلافيفه داخل أسوار الفيللا، دون أية رغبة في معرفة ما يدور حولهن في العالم الخارجي.

الحقيقة أن الكثير من العائلات التي سكنت الحي أيام عِزه، ظلت تندب وتدين قرارات التأميم والحراسات على أموالهم، واعتبرت الثورة زلزالاً قوض دعائم الملكية التي كانت، واقتلعت الناس من جذورها! وفي ظني أن شيئًا من هذا الزلزال قد أصاب بنية المجتمع، وإن كان علينا أن نعترف أن لكل ثورة ضحاياها فلا شك أن العباسية كانت تغص بالكثير منهم.

في تلك البيوت العريقة - التي تسنى لي دخولها بوصفي زميلاً للأبناء- بأثاثها العتيق، وطقوس الحياة اليومية فيها، لم أجد إجابة للأسئلة التي حيرتني حول الصراع بين الضباط الأحرار والأحزاب السياسية في عهد الملكية، التي وصمها النظام الثوري بالشيوعية

أو بالرجعية، ووصف المنتمين إليها بأعداء الشعب، وحيرتني كثيرًا تلك التسمية بـ"الضباط الأحرار" التي كانت مجرد جواز مرور لطبقة لها شرعية جديدة، وكنت أشتم في التسمية شبهة استعلاء، فهل كان المقصود أن تلك الزمرة ومن حولها هم الأحرار، بينما بقية المصريين لم يكونوا سوى عبيدًا لهم ولثورتهم؟ في ذات الوقت الذي تزوج فيه معظم هؤلاء الأحرار من عائلات ذات أصول تركية أو شركسية، فلِمَ ياترى يتزوج الضابط الحر من السلالات الحاكمة التي استعبدت المصريين؟ يعلم الله إن كانوا تزوجوا من هذه الطبقة ليرسخوا مكانتهم كحكام، أم لينتقموا من شعور خفي بالدونية! وأكد الواقع الذي نشأ فيه أبناء جيلي ممن ولدوا في خمسينيات القرن العشرين صفة الاستعلاء تلك.

في الجهة المقابلة لفيلا العوانس الثلاث تقع فيلا المليجي ولا تزال، وهي ذات طراز أقرب لقصور الرومان وتحتل مساحة تطل منها على شارعنا، في تقاطعه مع شارع الجنزوري وشارع عبده الحامولي في الخلف، وتحيط بالفيلا أشجار تمنع رؤية ما يدور فيها أو أيًا من ساكنيها، ولم نكن نراهم إلا في سيارتهم الرولز أو الستروين طراز الأربعينيات عند الدخول أو الخروج من البوابة الخلفية المطلة على شارع عبده الحامولي، أو في ليالي الأعياد حيث يفتح الباب الخلفي لتوزيع الزكاة والصدقات على الفقراء.

وكان الملحن الجميل محمد الموجي يسكن في شارع عبده الحامولي، بينما أقامت في شارع الجنزوري الفنانة التي حملت الصفات المصرية الأصيلة في بساطة جمالها وأدائها التمثيلي وسلوكها المتواضع مع الناس، السيدة / فاطمة مظهر، بينما خلف شارعنا في شارع العباسية في الجهة المقابلة لسينما "سهير" -

التي رأيت فيها أفلام الويسترن الأمريكية ومعظم أفلام الواقعية الفرنسية من إخراج العبقري كلود ليلوش- كانت تقيم الفنانة سناء مظهر، التي قامت بأدوار هامة في الأفلام الدينية والتاريخية بشعرها الذهبي، ووجهها الذي يوحي بأنها من سلالة ملوك.

ثم بالسير قليلاً جهة ميدان الاسبتالية الفرنساوي كانت العمارة التي سكنها الممثل الجميل/ توفيق الدقن، وفي العمارة المقابلة سكن المذيع عذب الصوت دمث الملامح والسجايا عبد الرحمن علي في مواجهة المستشفى، وفي الجهة الأخرى من الميدان يقبع المعبد اليهودي، وعلى امتداد شارع السرجاني الموازي لشارعنا قبل أن ينحرف بزاوية حادة عند تقاطعه مع ميدان المستشفى، كانت عمارة محمد النشار، ابن أحد شيوخ الأزهر والعضو المؤسس بشلة الوطاويط.

كان خالد السعيد – زميل الدراسة منذ السنة الأولى الابتدائية – واحدًا من شلة الوطاويط يحط في أوكارهم حينًا، ويختفي عنها أحيانًا، نظرًا لأسفاره المتكررة إلى ألمانيا – حيث يقيم عمه جراح المخ والأعصاب- لولعه بالألمان، وكان يسكن في عمارة تقع في مواجهة سينما الأندلس، إحدى دور السينما بالحي، وعلى بعد خطوات منها كانت مكتبة البارودي العامة، التي أنشأها محمود سامي البارودي، وكانت إحدى العلامات البارزة فيه.

كانت شلة الوطاويط الأقرب إلى القلب المتمرد والعقل الجامح لفتى شب على صراع أبويه، وعلى سقوط الأقنعة عن خطايا عائلته التي حملت من التناقض ما لم يتسع عقله لفهمه وهضمه بسهولة،

وكانت ذكرياتي طفلاً عن حكايات جدتي عما حل بالعائلة من تقلبات الزمان عونًا لي على نمو روح التسامح والقدرة على التماس الأعذار لكل الناس.

هكذا، استطعت أن أغفر لأبي وأحبه، رغم تقصيره تجاهنا أنا وهدى، وتنازله عن حقوقه في مواجهة الأم التي احتقن قلبها بالأحزان منذ طفولتها، كما غفرت لأمي قسوتها ومثاليتها الحمقاء، التي أرادت إملاءها على كل من عرفتهم من الرجال، سواء زوجها الأول هلال، أوأخوها عبد الله، أوابنها الأكبر حمدي، ثم أبي وأنا من بعدهم، ولعل ما زاد من توترعلاقتي بها بوادر تفوق دراسي، مشوب بنوع من الشطط العقلي من ناحية، ومن ناحية أخرى ارتباطي النفسي بأبي رغم خلافها الدائم معه، كما غفرت تمييزها لأختي هدى وتحيزها لها، وإصرارها دون طائل على أن تحقق من خلالها أحلامها المحبطة، ما أثقل على هدى، الكائن الوديع المحب للراحة لا الساعي مثلي للشقاء.

توطدت أواصر الصداقة بيني وبين جابر السوهاجي في الفصول الدراسية والملاعب وقاعة الرسم، وتبادلنا الكتب والحوار حول الموسيقى والشعر والرسم، وتعرفت في بيته على محمد النشار زميل أخيه حامد بكلية الفنون التطبيقية، وعصام فرغلي الذي صار معلمنا في الرياضيات في الثانوية العامة، وجاره رفعت بلابل وغيرهم من أبناء حارة موسى قطاوي – أحد أثرياء اليهود الذي عرف بأعماله الخيرية بحي الوايلية والسمعة الطيبة بين التجار من المسلمين والمسيحيين– وقد تميز أعضاء الشلة من أبناء الحارة بالجسم المفتول العضلات، وشهامة أولاد البلد

المكافحين، فهم أبناء لأسر متواضعة تستمسك بالخلق الديني، مما جعلهم الأقرب لقلب الشيخ السوهاجي من بين زملاء ابنيه حامد وجابر، كما ضمت الشلة أبناء عائلة السلاوي، الترزي الذي تخرج أبناؤه الثلاثة في كلية العلوم، كما ضمت الشلة محي عبد الحميد طالب الحقوق- المهاجر بأمريكا - وحازم القاضي الذي درس بمعهد ليوناردو دافينشي- قبل إغلاقه - وسافر قبل إتمام دراسته لأخيه في إيطاليا حيث ظل هناك لزمن طويل.

تعددت طبائع وحكايات أفراد الشلة، وتشعبت بنا جميعًا سبل الصعلكة، من بيت لبيت ومن شارع لشارع ومن مغامرة لأخرى، نتجول في الحي وخارجه، نتأمل ونتحاور حول كل شيء، وهي حوارات شكلت رغبتنا في المعرفة ومحاولتنا المبكرة لفهم العالم، وطالما رددنا أغاني الشيخ إمام واستمتعنا بشعر نجيب سرور، وما أن يستقر بنا المقام في بيت أحدنا، حيث يمتد بنا الليل عادة حتى بشائر الصبح، نجلس لنستمع لأسطوانات الموسيقى، أو نتبادل إلقاء قصائد لفؤاد حداد وجاهين وعبد الصبور والسياب، وترجمات عبد الغفار مكاوي لشعر رامبو وفولتير ومالاريميه، أونناقش كتب كامو وراسل وغيرهم، كنا كمن يعد لامتحان؛ نقرأ ثم نجتمع لنناقش ما قرأناه، ونعرض ما وجدنا من أفكار على من لم يقرأ، وفي هذا المناخ الثري باهتمامات الفن والأدب والسياسة، حاولنا معًا فهم ماجرى في هزيمة يونيو، وما ينبغي وما لا ينبغي في السياسة بمفاهيمها الجديدة في عصر السادات المربك، وتطورت لدينا قدرة الجدل، وكثيرًا ما اقتحم الشيخ السوهاجي جلساتنا محاولاً التسلل إلى ما يدور في عقولنا التي كانت توغل في التمرد على الأنساق السائدة.

أحببت الشيخ السوهاجي وصار لي في مقام الأب والمعلم، لأريحيته التي اكتسبها مما قرأ ودرس، ومن سنوات الاعتقال التي قضاها في السجون منذ عهد الملكية وحتى حادث المنشية، ومن التقى بهم من أصحاب التيارات السياسية المختلفة، أحببته لأن عقله لم ينغلق على أضابير الأزهر وصحائفه العتيقة، بل انفتح على ثقافات العالم دون هواجس، وساهمت علاقتي بالشيخ وأبنائه، وكذلك علاقتي بأستاذ الرسم بمدرسة إسماعيل القباني ،الأستاذ / جريس، الفنان الذي اكتفى بالتدريس واكتشاف مواهب المبدعين من الطلبة، إضافة لعلاقتي بطلبة الجامعة الذين يكبرونني من شلة الوطاويط في انغماسي في عالم الفن والأدب.

أما أمي، أبلة/ فوزية مدرسة الموسيقى، فقد اكتسبت من نشأتها الأولى بشارع توريل نوعًا من الإجلال لتقاليد الغرب وعاداته، بحكم تواجد الكثير من أفراد الجاليات اليونانية والإيطالية والأرمينية، وكان لعملها في الأوبرا مع الموسيقيين الأجانب أثر كبير في زيادة إيمانها بالغرب، وترفعت أبلة فوزية عن الخوض في سير الزملاء والزميلات في كورال الأوبرا، الذين كانوا يكثرون من أحاديث النميمة عن زواج هذه وطلاق هذا، وعشيقة هذا وغرام ذاك، حتى سميت بين زملائها بأبي الهول لاصرارها على الصمت، فهي لم تشارك أبدًا في نميمة ولم تجارِ أحدًا في وشاية، وظلت بشرتها السمراء تشدها لجذورها، وتعاني بسببها قهرًا غامضًا، وكانت الميزة الوحيدة التي ورثتها عن أبيها السوداني، الذي تمتد جذوره لقبيلة الجعليين شرق السودان، صوتها العذب الذي سهل لها الطريق لقسم الأصوات بمعهد الكونسيرفتوار، الذي التحقت به

بناء على توصية من أستاذتها بمعهد الموسيقى الفنانة الكبيرة / رتيبة الحفني ومنه انتقلت للعمل مغنية في كورال الأوبرا.

تعددت في بيتنا مظاهر الروح الغربية، من البيانو بواجهته الخشبية البراقة، والكنبة الأستوديو في الصالة، التي كانت بها فتحتان تمتلئان بالكتب التي اعتاد أبي قراءتها، إضافة للنوت الموسيقية للأوبرات العالمية، التي كانت تعكف أمي على حفظها بمصاحبة عزفها على البيانو، وبقيت تلك المظاهر حاضرة مع انتقالنا للسكنى بمنزل زوجة خالي الأرمنية "نيللي أشجيان" في شارع شامبليون- بعد انتقالها هي وخالي لشقتهم الجديدة بالمهندسين - وصارت المسافة ما بين العباسية ووسط المدينة بمثابة محور أتحرك حوله، وصارت الشوارع والنواصي والأرصفة بمثابة أصدقاء، أعود إليهم كلما وخزني الحنين لبقعة بعينها أو لصحبة اعتدتها، فيزول أثر الغياب ولا يبقى إلا التواصل، وحميمية لم تفقد زهوتها مع الأمكنة.

ذات يوم صيفي تواعدنا أنا وجابر لدخول فيلم حاز جائزة الأوسكار، يحكي قصة خبير في أجهزة التنصت يكلفه أحد الأثرياء بمراقبة زوجته لشكه في سلوكها، وبعد ثبوت خيانتها يكتشف الخبير أنه منح الزوج دليلاً للحكم عليها، وأنه كلف قاتلاً مأجورًا لقتلها، ويشعر الخبير بأنه شريك في الجريمة، فيرفض تسليم التسجيلات والصور التي التقطها لها مع عشيقها التي تدينهما بتهمة الخيانة! ولأنه كان قد وهب حياته لمهنته وابتكار أدوات التنصت، معتقدًا أنه يساعد في حماية بلاده وأجهزة مخابراتها، تبدى له عمق خطيئته، وتبين له - قام بالدورالممثل ريتشارد

درايفوس- أن التقنية التي صار عَلَمًا فيها، يمكن أن تكون سبيلاً لقهر الإنسان وقتله، وفي أحد المعارض الخاصة بأجهزة التنصت وهو في قمة صراعه مع نفسه، صادف امرأة جميلة وصحبها لبيته – متجاوزًا قاعدة حديدية التزم بها طوال حياته وهي أن يعيش وحيدًا لا يدخل بيته أحدٌ – ليكتشف في الصباح هروبها بالشرائط و الصور الخاصة بالزوجة الخائنة، يواجه الخبير نفسه فيشعر بضآلة ومرارة شديدة، ويتخيل لحظة اغتيال الزوجة فتنتابه رغبة في القيء، وفي الحمام ما أن يضغط على صندوق الطرد حتى تتحول المياه إلى بحيرة بلون الدم الأحمر، ويصاب بحالة هيسترية، فيمسك ببلطة ويحطم أدوات التنصت وأثاث البيت وأرضيته الخشبية، ثم يجلس على الكرسي الوحيد الذي نجا من ثورة غضبه، حزينًا يعزف على آلة الساكس، موسيقى أشبه بسوناتا النهاية المفجعة.

خرجنا أنا وجابر لا ينطق أينا ببنت شفة، وتوجهنا لحديقة الأزبكية لنجلس على مقعد رخامي متعبين، وكأننا انتهينا للتو من سباق ماراثون، وخيم علينا شعور مبهم بالإعياء وخيبة أمل غامضة، فبادرني: فيلم رائع إيه رأيك؟ طبعاً رائع، لكن ليه؟ فأجاب جابر: روعة الأداء وتركيبة البطل بملامحه النمطية ونظارته الطبية ومشيته المتوترة وعزلته الاختيارية، ثم أن السيناريو محكم فعلاً، إضافة للموسيقى التصويرية الموحية، فقلت:

كل هذا صحيح، لكني أرى روعة الفيلم في السؤال الذي يطرحه، هل التقنيات الحديثة سبيل لتقدم الإنسان وسعادته؟ أم أنها قد تصبح سبيلاً للقضاء على روحه؟ الحقيقة الفيلم يتناول قضية خطيرة، فجيعة المبتكرين حين توظف ابتكاراتهم لأغراض دنيئة

دناءة القتل، والقتل كما يقول هاملت:" قتل ملؤه الخسة، والقتل في أفضل الأحوال خسيس"، هنا يا صديقي يبرز السؤال عن حضارة الغرب، ما الذي تسعى إليه هذه الحضارة؟ رفاهية الإنسان؟ وإذا كان هذا هو الهدف، قل لي رفاهية مَن وعلى حساب مَن؟ أجاب جابر: العلم علم يا عزت، له ايجابياته وسلبياته، فهو مصدر أدوات الحرب والتدمير صحيح، لكنه أيضًا مصدر الرفاهية التي نعيشها، لايمكن أن نرفض العلم لأنه يخترع البوارج والصواريخ أو حتى القنابل النووية، فهو أيضًا يخترع الأمصال والأدوية لعلاج المرضى وكل أدوات الحياة العصرية، فالعلم يبتكر حلولاً لمشاكل البشر، أليس كذلك؟قلت مستنكرًا:

يخترع الحلول للمشاكل صحيح، لكنه أيضًا يخلق مشكلات جديدة أكثر ضررًا، أنا لا أجادل في أهمية العلم ولا قيمة المعارف التي استطاع العلماء أن يضيفونها للإنسانية، لكن ما هي المحصلة؟ محصلة الحضارة التي نعيشها أنه بقدر ما حقق العلم رفاهية للإنسان فإنه أيضاً شوه صورة الحياة على الأرض، فبعد أكثر من مائة وخمسين عاماً على قيام الثورة الصناعية الأولى، وحتى الثورة الصناعية الثالثة القائمة على البترول الآن ازداد الإنسان شقاءً، الفيلم يا جابر يبرز المواجهة بين إنسانية الإنسان ووحشية ابتكاراته التي تفتح أبواب الجحيم، بالنسبة لي تبدو منجزات العصر الحديث، وكأنها لعبة العالم الذي بلغ من الرشد ما يهيئه ويكفيه لقتل المزيد من البشر - من ضحايا الثورات والانقلابات- حتى صار القتل بالجملة طريق البشرية الوحيد للخلاص، هذا ما حدث في فيتنام، وفي كمبوديا، وفي أمريكا اللاتينية، وفي الكثير من بلدان أفريقيا، و قد خلف ملايين القتلى والمشوهين واللاجئين في العالم.

اقتنع جابر فقال: أنت على حق، ليس بعيدًا ما فعلته الحرب الأهلية في أسبانيا، التي ألهمت بيكاسو ليرسم "الجيرونيكا"، فعاجلته بقولي: حتى حروب الردة ذاتها، التي نشبت لتطبيق حد من حدود الله، لكن ماذا كان الثمن يا جابر؟ هل كان اقتتال المسلمين وإزهاق أرواح الآلاف مناسبًا؟ الحقيقة أنني لست متأكدًا تمامًا، الحكاية تحتاج لمراجعة وإعادة قراءة لما جرى، علينا أن نحاسب أنفسنا قبل أن نحاسب الغرب، رغم بشاعة ما اقترفه العالم الغربي بحق البشر طمعًا واستنزافًا بل واستعبادًا لهم.

مرت فترة صمت بدت كدهر انغمسنا فيه في تأمل جذوع الأشجار في الحديقة، حيث الساق تلتف وتتلوى صاعدة هابطة، وبدت لنا كما لو كانت أجسادًا بشرية تسعى لخلاصها في سعيها للحرية، وانتبهنا أن الوقت قد تأخر، فأسرع جابر للحاق بآخر أوتوبيس، وعدت أنا سيرًا على الأقدام للبيت متأملاً فيما دار بيننا من حوار.

بعد انتهاء عامي الأول في الثانوي، وجد لي أبي عملاً في بار اكسليسسيور، من خلال مدير المحل / نجيب بك لمعي، جار أبي وزميله أيام الدراسة؛ وفي البار، الذي كان يفصله آرش من خشب الأرابيسك عن الصالة المطلة على شارع سليمان باشا، التقيت بيحيى البارمان، بملامحه النورانية التي لم تخف رجولة وفحولة واضحة في بنيان الجسم، وصارت بيني وبينه صداقة من نوع خاص، هو يرى فِيَّ واد جدع وابن بلد، وأنا أرى فيه نموذجًا لأبناء شبرا الذين يتمتعون برجولة وشهامة تلقائية.

وفي أحد الأيام قرب انتهاء وردية العمل وقت الغروب سألني

يحيى: ممكن تطبّق معايا وردية الليل؟ فأجبته بلهفة: طبعًا يعني أنا ورايا إيه، بدأت بشائر الليل تلوح في حركة الكافيتريا بالخارج والمارة في الشارع، فقمت بتنظيف المكان بحماس، وعاد يحيى من وقفته بباب البار متأملاً المارة وسأل: فين الفص إللي كان هنا؟ فأجبت متعجباً: فص إيه؟ أجاب غاضبًا: سِّنِة الأفيون، أنا كنت حاطتها جنب التليفون، وطفق يقلب المكان بحثًا عنها كالمجنون، وأنا واقف كالأرنب المذعور مقدرًا فداحة خسارته، وبعد أن يأس من إن يجدها قال لي: لولا إني عارف إنك خام ومش فاهم يعني إيه أفيون كنت دبحتك، حأكمل الوردية إزاي دلوقت؟ الله يعكنن عليك يا شيخ!

تعثر لساني وبالعافية نطقت: أنا آسف، والله ما كنت أعرف إنك سايب حاجة على البار، أعذر جهلي أنا عمري ما شفت الأفيون، فقال وقد هدأ غضبه قليلاً: إنسى الحكاية دي دلوقت، الليلة دي أول وردية ليل بالنسبة لك، ركز في الشغل وحاول تتعلم أصوله، وخلي بالك سِّنِة الأفيون زي حباية العدس ولونها بني غامق وتساوي لها عشرة جنيه، يعني بقشيشك في ليلة بحالها يا حلو.

بدأ الرواد في التوافد تباعًا، وكانوا من نوعية مختلفة عن زبائن النهار القلائل، يأتون في صحبة، أثنين معًا أو ثلاثة على الأكثر، يختارون طاولة ويجلسون عليها، أو ربما أتوا فرادى، يجلس كل منهم على كرسي من كراسي البار العالية، في البداية يكون الحوار بينهم صامتًا، وبعد كأسين أو ثلاثة يتعالى صياحهم، ويبدأون في تبادل النكات والكلام كأنهم أصدقاء، ولاحظت أن يحي قام بقلب كراسي طاولة في ركن البار، وحذرني من أن يجلس عليها مخلوق أيًّا كان! وقبل انتصاف الليل بقليل دخل الفنان المعروف

وزوجته الممثلة والمطربة الشهيرة - كنت من عشاق صوتها المفعم بالأنوثة وملامحها المصرية الناطقة بالدلال- نزل يحيى من كرسيه على الكونتر ليجلسهم، واستمع لطلباتهم باهتمام، وظل يتناول مني طلباتهم ويضعها أمامهم بأناقة وحرفية عالية، وتبادل معهم حديثًا وديًا كأنهم أصدقاء... بالنسبة لي كانت ليلة ولا ألف ليلة، عدت يومها في الثالثة صباحًا بعد مغادرة الزوجين الشهيرين، وإعادة كل شيء لمكانه وتنظيف المكان، سعيدًا برؤية الوجه الآخر لمنتصف الليل في القاهرة العامرة.

وبعد عودتي أنا وخالد السعيد من رحلة المعسكر الكشفي العربي التاسع، الذي أقيم في العراق بغابة "الحدباء" بالموصل على ضفاف نهر دجلة، وكانت تجربة ثرية بمن قابلناهم من الوفود العربية وأحداثها التي جرت هنا وهناك، أصبت بحمى التيفود في بداية العام الدراسي لشهادة الثانوية العامة، وبقيت بالبيت تحت العلاج على مدى شهر، انتهى بدخولي مستشفى الحميات لإنقاذي من مضاعفات المرض الذي كاد يفجر أمعائي، بناء على توصية مشددة من د/ بشارة طبيب العائلة بضرورة دخولي المستشفى، على أن لا أخرج منها قبل تمام الشفاء، وهو ما حدث بعد شهر آخر بالتمام والكمال، وساهمت هذه الفترة في زيادة ميلي للعزلة، وبحكم مرضي وتأملي لهواجس المرض والموت، صرت أكثر ميلاً لحياة الصعلكة وحيدًا، أتسكع في دروب القاهرة مستغرقًا في محاولة استعادة تاريخ المساجد والأسبلة والمدارس في شارع المعز، أوعلى كورنيش النيل، أو في شوارع شبرا في طريق عودتي من زيارة لعمي جلال، متتبعًا عبق الجدود في الحواري ومداخل البيوت، لكني دخلت - بعد تمام شفائي- قبل موعد امتحان الثانوية

بحوالي ثلاثة شهور، في معسكر اختياري منفردًا بكتبي، مشفقًا على نفسي من عبء دخول الامتحان، بينما لم أحضر درسًا يوحد ربنا مثل باقي الزملاء، وجاءني أبي وقال: اسمع يا بني، إنت ابني الوحيد وصحتك عندي بالدنيا، عايز تخش الامتحان ماشي، لكن ولا يهمك النتيجة، حتى لو سقطت عذرك معاك، أهم حاجة عندي إن ربنا نجاك... بينما وجدت أنا في المسألة نوعًا من التحدي، وفرصة أثبت فيها لأمي إني حتى ولو كنت واد صايع مثلما تصفني دائمًا، فأنا قادر على تحمل المسئولية.

استمرت علاقتي بشلة الوطاويط بعد دخولي كلية الطب، وكان منهم أعلام في كلية العلوم حيث درست في إعدادي طب، ثم عرفني السوهاجي في سنة أولى على زملاء الكلية عاصم طلبة لاعب كرة السلة والمحب العتيد للشيخ إمام والشاعر أحمد فؤاد نجم، وجلال المنوفي الأكثر مهارة منا جميعًا في التعامل مع الزملاء من كل الأطياف سواء كانوا جماعة إسلامية أو شيوعيين وأبناء الأساتذة بالكلية من سكان مصر الجديدة التي سكنتها عائلته حديثًا، وكانت سماحة خلقه الديني التقليدي سببًا في الحفاظ على حبل المودة مع الجميع، وكان الأول يسكن بعمارات الضباط بشارع الفردوس، والثاني يسكن وحده في نهاية شارع النزهة قرب شارع رمسيس، بعد انتقال أسرته للإقامة بمصر الجديدة، واحتللنا أنا وجلال وجابر وعاصم شقة السكاكيني، وصارت وكرًا نذاكر فيه ونمارس فيه مغامراتنا وهواياتنا على مدى سنوات الدراسة، التي قضينا الجزء الأكبر منها في الجدل السياسي والاستماع للست وأغاني الشيخ إمام وأشعار مظفر النواب وأحمد مطر والسياب ونازك الملائكة وعبد الصبور وأمل دنقل ولعب البريدج بالساعات.

صارت شقة السكاكيني ملاذًا لي من ضجيج الأزمات المستمرة بين أبي وأمي، خصوصًا بعد أن اطمأنت أسرنا على نقاء وصفاء الصداقة بيننا، واحتضنوا صداقتنا باعتبارنا ولاد ناس زي بعض وبنشجع بعض على النجاح، وبصفتي واحد من شلة السكاكيني، وفي نفس الوقت واحد من شلة الوطاويط، وكمان من صعاليك وسط البلد، كنت أغيب عن هؤلاء لأقابل أولئك، أذهب وأعود، لأجد نفسي واحدًا من الشلة، دون الحاجة لتقديم تفسيرات، إذ كانوا يعتبرون خروجي منفردًا وميلي التلقائي للصعلكة جزء من تركيبتي الشخصية.

قضيت ليال كاملة في السهر مع الأستاذ جريس، الذي قدمني لزملائه بمدرسة الفنون العليا، وكنا نسهر عادة بمطعم وبار "روي" اليوناني- صار الآن فرعًا من سلسلة ماكدونالد- بواجهته الزجاجية المطلة على شارع سليمان باشا أمام سينما مترو، حيث كان عشاؤنا مكونًا من مزة الشرب؛ محشي ورق العنب والبطاطس المهروسة بالكرفس والجبنة البراميلي بزيت الزيتون والزعتر والخيار المخلل والخس والجزر والطماطم الطازجة، نتناوله بنهم لا يفوقه إلا نهم الكلام في الثقافة والفن، خصوصًا في وجود حسن عمران، الذي كان يسكن بشارع عبد الخالق ثروت، وكان يمر علينا هو أو جورج فنان الكاريكاتير قبل هجرته لباريس، وعرفني جريس على الأستاذ رفقي صديق طفولته، ومن يومها صرنا أنا ورفقي أصدقاء، أقابله في مقاهي وسط البلد؛ فينيكس أو سفنكس أو ريش أو لاباس، نلتقي بشكل شبه يومي، نمشي كثيرًا في شوارع وسط البلد – التي تحمل كثيرًا من عبق ماضيها

السعيد- ثم نجلس لشرب القهوة هنا أو هناك، ونتحاور حول كل شيء وأي شيء، ثم أتركه عند تقاطع شارع الجمهورية مع شارع 26 يوليو، لنلتقي في نفس الأماكن دون موعد مسبق.

عادة ما دار حديثنا أنا وعم رفقي وعم جريس - كما صرت أناديهم - حول الفن والثقافة وأحوال البلد، وكان رفقي وقتها قد خرج لتوه من السجن في قضية تخابر مع أمريكا- مع من أخرجهم السادات من المسجونين السياسيين - بعد 11 سنة قضاها في السجن، ليجد نفسه وحيدًا يسكن مع أمه وأخته الأرملة وأبنائها اليتامى، يخشى الناس الاقتراب منه أو التواصل معه، ويتحفظ هو في الاقتراب منهم، خصوصًا في غياب أصدقائه الذين عرفهم قبل اتهامه بالتخابر مع جهات أجنبية – أغلب الظن لصداقته بالمراسلين الأجانب ودراسته العليا بالجامعة الأمريكية إضافة لهجرة أخيه ماهر لأمريكا.

أعجبت بثقافة رفقي الموسوعية، وتوازنه النفسي رغم سنوات السجن التي أكلت أحلى سنين عمره، وكان يصف سنوات السجن وكأنها رحلة طويلة في مكان ناءٍ، لها مرارتها بالطبع، لكنه لم يكن يضمر كراهية لأحد، حتى أنه لم يكره سجانيه، فقط كان يحكي عنهم تفاصيل تحمل الكثير من السخرية، وذات يوم قابلنا أبي أثناء تسكعنا المعتاد في شوارع وسط البلد، فسلم علينا وعرفته برفقي، فودعنا في عجالة، وأدرك رفقي يومها ما لم أدركه، أن الأمر لن يمر بسلام، وقال إنه يعرف أبي جيدًا، حيث رآه أثناء اقامته في سجن طرة، وهو بالضرورة يعرفه بحكم عمله في الإدارة الصناعية بليمان طرة، وقال بحزن ووجه جاد: من الأفضل

أن نقلل من مقابلاتنا حتى لا تحدث لك مشاكل مع أبيك.

اختفى رفقي من أمكنة اللقاء المعتادة لفترة طويلة، وبالفعل فاتحني أبي في الأمر هو وأخي حمدي أخي قائلاً: أنا اديتك دايمًا حرية اختيار أصحابك، لكن رفقي ده يا بني مسجون سياسي، صحيح صدر له عفو وخرج، لكن لا بد إنه متراقب، ولا إيه يا حمدي؟ والبلد من ساعة ما السادات مسكها على كف عفريت، مظاهرات وتوتر، والوضع السياسي في البلد بيغلي، ومفيش داعي تشبه نفسك بشبهات إنت في غنى عنها... سألت أبي: إنت بالتأكيد عارف رفقي كويس، هل هناك شيء مشين في شخصيته أو أفكاره؟ بمعنى أصح هو مجرم في نظرك؟ لم يرد ونظر إليّ باستنكار وقال: الحكاية مش وجهة نظر ده تاريخ بيطارد صاحبه، سواء كان على حق ولاّ على باطل، قلت: السادات غير صاحبك، مخه كبير وابن بلد، ورفقي صديق مش حأتخلى عنه لمجرد هواجس وخوف من الأجهزة إللي بتراقب الخلق – كان حمدي مستمعًا في صمت– وعمومًا أنا كده كده أنا وإللي زيي من طلبة الجامعة في نظر الأجهزة شوية عيال قروا لهم كام كتاب، وعاملين نفسهم مثقفين، جايز بنعملهم صداع، بس مفيش مننا خوف، يعني مجرد ناس مخها تاعبها، ولو بطلت أقابل رفقي حأعمل إيه في شلة العباسية؟ دا فيهم ناس معروفين بالاسم ولهم ملفات، ومنهم إللي دخل السجن فعلاً، وأنت شفت بنفسك حامد السوهاجي لما جالنا وهو هربان بعد مظاهرات عام الحسم الصيف إللي فات، مش أنا ساعتها قلت لك إني ماشي معاه ومش حأسيبه، ساعتها أنت اتصرفت بحكمة ولقيت قعادنا في البيت أفضل من خروجنا، ثم إنت شغال في المصلحة وحمدي في الجهاز يعني

برضه حيعملوا لكم خاطر!

ازداد توتر أبي وقال بعصبية: إنت مجنون، الأمور دي ما فيهاش خواطر، لا فيها أبويا ولا أخويا، فيها حاجة واحدة بس' لو شايفين إنك خطر أو واحد من أصحابك خطر يبقى أنت وهو بالسلامة، ولا أخوك ولا الجن حينفعك. أدركت مبررات توتر أبي، وحاولت تخفيف حدة الكلام وقلت: يا بابا أنا فاهم كلامك ومقدر خوفك عليّ بس اطمئن أنا مش حأورط نفسي لدرجة الاعتقال والسجن، ورغم أنه لم يطمئن لا هو ولا حمدي لكنه قبل كلامي على مضض ليتخلص من لماضتي التي طالما اتهمني بها!

التقيت مع رفقي صدفة، في مقهى فقير بممر في شارع شريف لم نكن ذهبنا إليه من قبل وكان أغلب رواده من النوبيين، أبديت تعجبي من اختياره لهذا المقهى فقال: حاولت أبعد عشان مش عايز أكون سبب مشاكل لك، فحكيت له ماجرى بيني وبين أبي، وقلت له بكل ثقة: حنتقابل وحنفضل أصدقاء، حنتقابل في قهوة البرابرة أو على الرصيف أو في البار، ما تشغلش بالك بأهلي أنا كده كده بيني وبينهم مشاكل.

صرت أوزع وقتي بين شلة الوطاويط، وشلة الكلية في السكاكيني، ورفقي وغيره من المثقفين في وسط البلد، وبدأت أتردد على أتيلييه القاهرة لمتابعة المعارض وندوات الأدب، حيث التقيت بقمم فنية وأدبية أمثال د/لويس عوض، ود/عبد القادر القط، وحامد ندا، وراتب صديق، وإنجي أفلاطون وكثيرين غيرهم.

أما كافيتريا "لاباس" التي كانت مكاني المفضل نهارًا، فرأيت فيها

رموزًا في الأدب والفن أمثال الناقد السينمائي سامي السلاموني، والممثل أحمد مرعي بطل فيلم المومياء، والمخرج المبدع صلاح أبو سيف، بالإضافة لوزراء سابقينْ ومستشارين، وكل طاقم التمثيل في المسرحية اللي قلبت موازين الكوميديا "مدرسة المشاغبين"، في وقت كان فيه هذا الجيل في ذروة تمرده وإبداعه الإنساني، وإن لم يستفد الوطن من هذا المناخ لطبيعة المرحلة التي شهدت بداية انهيار الأيديولوجيات الكبرى، وانقلاب المعايير والقيم، لكننا ولا شك كنا بدرجة أو بأخرى أبناء شرعيين لمدرسة المشاغبين العليا!

وأتاح لي بار "ستيلا" أو "المخزن" أو "المكتب"، وهي مترادفات لنفس المكان، فرصة اللقاء مع رموز أخرى مثل الشاعر العطيفي، والأستاذ مصطفى المستشار بمجلس الدولة، والناقد الستيني الشهير، والنحات ابن الذوات صاحب الصوت الجهوري، والشاعر الصعيدي، وغيرهم، وتكون لدي، في الفترة بين دخولي الجامعة 1974 إلى ما بعد تخرجي بأعوام، مخزون لا ينضب من المعرفة بتاريخ البلد من خلال أهل الفكر والإبداع فيه؛ بما حكوه عن تاريخهم الشخصي وتاريخ البلد، وانتماءاتهم السياسية، وتنظيماتهم السرية، وإن كانت القيمة الحقيقية لتلك المعرفة تمثلت في إدراكي المبكر بأن الواقع السياسي والاجتماعي، وما أفرزه من تقلبات كان نتيجة لمأزق المثقفين في مواجهة السلطة، التي غازلوها حينًا وعارضوها كثيرًا!

كانت مقاهي وسط البلد - التي اعتدت ارتيادها مع رفقي- من منتصف السبعينيات حتى الثمانينيات قد تآكلت بسبب غزو

محلات الأحذية والملابس، ونال الأدباء والفنانين بعضًا مما نال أمكنة لقائهم من تآكل وتراجع، وإن بقيت مقاهي الندوة الثقافية، وسوق الحميدية، وبشكل خاص مقهى زهرة البستان، بكراسيه المتهالكة، وقهوته المختلطة بالأتربة وعوادم السيارات، والأشجار التي تظلل ممره، شاهدًا على تاريخ هذه الفترة الخصبة من حياة المثقفين في المربع الجهنمي، فبعد أن أعيانا أنا ورفقي التنقل بين ما تبقى من مقاهٍ، استقر بنا المقام في مقهى زهرة البستان، الذي سماه رفقي آخر الدنيا، لأنه يحتضن من يأتي من أقاليم مصر أوالمهاجرين إلى شرق الدنيا وغربها، كلهم كانوا يأتون ليذهبوا، ثم يعودوا إلى المقهى ثانية مهما طال بهم الغياب.

وجدنا أنا ورفقي ضالتنا في مثلث الرعب كما يسميه المثقفون؛ بأضلاعه بار ستلا، وأتيلييه القاهرة، ومقهى البستان، والتقينا في المقهى بالعميد/ رفعت عرفة، الذي عرفنا بدوره على فادي الحناوي ابن الشاعر الغنائي العملاق، والذي اعتاد إطلاق القفشات والإفيهات الساخنة أثناء معارك الطاولة بينه وبين رفعت، واتسعت الدائرة لتشمل شعراء وروائيين وصحفيين ونقادًا ومخرجين ومصوري سينما تسجيلية وروائية وفناني مسرح، ولم يتفوق أحد على فادي في قفشاته سوى أسعد الجرسون أو أسعد المجنون كما يحلو لنا أن نناديه، حيث استطاع بفطرته أن يحفظ مما يسمع من عبارات ومصطلحات ما يدمجه في تعليقاته ومشاغباته التي لا تتوقف مع الزبائن، وصرنا أنا وفادي أصدقاء، وكان الأقرب إلى قلبي من بين رواد المقهى، فهو يتمتع بشخصية حالمة وخيال واسع تشكل من ذكرياته عن بيت العائلة الكبير في جاردن سيتي، والتي برع في سردها - مع إدخال تعديلات على السيناريو حسب

مقتضيات الموقف- مما شهده في صباه وشبابه بمنزل أبيه الشاعر الكبير وأصدقائه من الكتاب والفنانين.

اندمجنا مع رواد المقهى، حيث صادفنا العديد من نماذج المبدعين وأسرى النداهة ،القاهرة العامرة، أم الدنيا ومركز الأضواء، واستطاع رفقي بدماثة خلقه وكرمه وحكاياته الأسطورية أن ينخرط في كتيبة مرتادي ستلا، الذين كان من بينهم حسن خليل، الذي ذهب في بعثة - كان حزب التجمع يمنحها لشباب الحزب- إلى روسيا ليعود بعد سنوات بلا شهادة علمية، وإن احتفظ بشهادات عشرات الرفاق- الذين احتضنتهم لينينجراد وموسكو وبطسبرج في ذروة المد الشيوعي والحرب الباردة - من ضحايا البرد والفودكا والغربة،من آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية، تجمعهم أوهام الحلم الماركسي الأثير، الذي قضى على الآلاف في الحروب الأهلية، في أفريقيا وكمبوديا وغيرها، إضافة لقتلى الأيديولوجيا في الثورة الإيرانية أيام حكومة مصدق، وفي السلفادور، وتشيلي، وإسبانيا الجنرال فرانكو، جنبًا إلى جنب مع الملايين ممن ماتوا في منفاهم بسيبيريا أيام حكم ستالين، شهداء حلم المساواة والعدل وحكم البروليتاريا.

ولأن حسن خليل كان بين زمرة سجناء الحركة الطلابية في السبعينيات، جمعهُ برفقي تاريخ السجن والاعتقال، ومن تصاريف القدر أنهما توافقا وتآلفا معًا، رغم اختلاف ولائهم الفكري والأيديولوجي، إذ آمن رفقي بالحلم الأمريكي، بينما آمن حسن بالحلم الماركسي والثورة الشعبية، التي ما أن قامت في انتفاضة 18 ،19 يناير 1977 حتى سحقتها الشرطة والجيش معًا بعد أن

خذلتها النخبة، التي فاجأها تحرك الجماهير العفوي، الذي لم يجد قيادة تصيغ له الأهداف، وتتولى وضع الآلية للتفاوض حولها، وربما كان المشترك الحقيقي الذي أذاب جليد الأيديولوجيا بين اليسار واليمين من أهل الثقافة والعمل السري، هو ذلك الحلم الرومانسي بعودة القاهرة لسابق عهدها "باريس الشرق" كما حفظتها الذاكرة منذ أربعينيات القرن العشرين، وصولاً للنصف الثاني من السبعينيات بما حملته من ذكريات الحراك السياسي، والعراك الثقافي، ودعاوى التحديث والإصلاح.

كان عم أنور كامل أحد رموز اليسار - رحمه الله- من رواد المقهى أيام الثلاثاء، وهو يوم الندوة الأسبوعية في الأتيلييه، وهو من أسس في الخمسينيات مع أخيه الفنان التشكيلي فؤاد كامل ورمسيس يونان وكامل التلمساني وجورج حنين جماعة الفن والحرية، وهي من الجماعات الفكرية والفنية التي ظهرت في الأربعينيات محاولة الاستقلال عن فكر المرحلة السائد ونقد الثقافة الموجهة وفتح آفاق الثقافة العالمية، كما صدر له في شبابه"الكتاب المنبوذ" وغيرها من الدراسات عن الصهيونية ومشاكل العمال في مصر، كما رأس تحرير مجلة التطور فيما بعد، وكان وقت عرفناه يقترب من عامه السبعين، واعتاد أن يحضر ظهرًا للمقهى، ثم يذهب بصحبة أحد الكتاب الشبان لتناول زجاجة بيرة واحدة - دائمًا واحدة- ليتحدث في شئون الثقافة والفن حتى موعد الندوة، حيث كنت تجده حين تدخل القاعة الرئيسية للأتيلييه، جالسًا في صدارة المكان بنضارته المذهلة، وحيويته المتفجرة كما لو كان في العشرين، يتواصل مع الجميع ويهديهم "فسيلة" جديدة، وهي نشرة من نشرات السبعينات التي

كانت تطبعها وتنشرها الجماعات الثقافية مثل نشرة "إضاءات" التي أصدرها شعراء السبعينيات، وظل عم أنور يصدر الفسائل على حسابه، ليقدم فيها للوسط الثقافي قصاصًا أو شاعرًا شابًا، أو ليرصد مجمل أعمال كاتب من الكتاب المعروفين.

كما كان من بين رواد المقهى عبد الكريم كاتب القصة العبقري الذي عاد من بعثته في ألمانيا ليبقى في قريته، لا يحضر للقاهرة إلا كل ثلاثاء لحضور الندوة، ولقاء أهل الأدب في "مولد سيدي تلات" كما كنا نسمي يوم الندوة، وظل يكتب في قريته عن أهلها وأحلام البسطاء فيها، دون أن يعيره أحد من النقاد اهتمامًا يليق بموهبته، وجمعتني به صداقة من يقدر موهبته وإبداعه واحساسه بأن جيلنا ربما كان فيه بصيص من أمل، والحقيقة أنني كنت معجبًا به لأنه رغم سنوات الغربة التصق بجذوره وحرص عليها حرص الطفل على الالتصاق بأمه، حماية له من الخطر المحدق الذي تبدى وقتها في هوجة التغريب التي سادت مع الانفتاح، الذي كان قد أصاب الحلم القومي الستيني في مقتل!

كنت يوم مقتل الزعيم أنهي استعدادي للإمتحان النهائي بالكلية، وكانت أمي تؤدي فريضة الحج، وأختي تقيم مع زوجها في السعودية، وجلست وحيدًا أشاهد العرض العسكري على شاشة التليفزيون، وفجأة سمعنا صوت طلقات رصاص، وانقطع الإرسال، وتوقفت أو كادت عقارب الساعة أن تتوقف؛ وتأكد نبأ مقتل الرجل بعدها بساعات، في لحظة ثأر مجنونة أنهت تاريخه بمشهد دموي لا يُنسى. خرجت للشارع فإذا بشعور فادح بالفراغ قد احتوى الجميع ما بين شعور بالصدمة والذهول، مختلطًا

ببعض من شماتة أبداها من رأوا فيه خائنًا جلب على البلد خراب المقاطعة بتوقيعه اتفاقية كامب دافيد، وتلاشت وعوده بالرخاء المزعوم، ثم ألقى بكل معارضيه في السجون في خريف غضب مجنون!

كان "الزعيم" قد أطلق العنان للجماعة الإسلامية – التنظيم الذي نشأ في أحضان الإخوان- في الجامعة ليقضوا على سيطرة طلبة اليسار المزعجين لاتجاهاته الرأسمالية، ولم تضيع الجماعات وقتها، فبدأت بتهميش أنشطة اتحاد الطلاب، وقصرها على طبع الكتب والمراجع المصورة، ونماذج الامتحانات، إضافة إلى دروس المساجد، وتحريم الاختلاط بين الطلبة والطالبات، ونشر ثقافة الحجاب وعذاب القبور، واستهوت أفكار الجماعة عقول الطلاب والأساتذة بأعداد فاقت كل التوقعات، وهو ما تجلى في السيطرة شبه التامة على انتخابات الاتحادات الطلابية، وتزامن ذلك مع تغلغل الأفكار ذاتها بين الطبقات الفقيرة في الأحياء والقرى والنجوع، ومظاهر الانفتاح الاستهلاكي منذ النصف الثاني من السبعينيات وحتى يوم الاغتيال.

ورغم أن النهاية – لأول من يوقع معاهدة سلام مع إسرائيل – بدت حتمية إلا أن كلاً من الذين أيدوه والذين عارضوه على حد سواء شعروا بعمق المأساة، ولم تمهلنا الأيام فرصة لتبين حقيقة ما جرى، حتى وافتنا أنباء "مذبحة صابرا وشاتيلا" على بعد أميال من حدودنا الشرقية، وعلى مقربة من حدود ارواحنا التي كانت تصارع من أجل النجاة من شعور جسيم بالخواء.

وقبل إعلان نتيجة البكالوريوس تلقيت نبأ وفاة خالي، بعد أن قضى جلّ عمره يلملم شتات حلمه بالثراء، وبعد أن بددت زوجته الثالثة ما تبقى له من ثروة، وانتهى الحال بأبنائه إلى ضياع وبؤس لا يملكون منه مهربًا، وكانت وفاته نذيرًا لي بأن من الحلم ما قتل، فقد حلم رحمه الله كثيرًا واقترب كثيرًا من حلمه، لكن الحلم تسرّب من بين يديه عدة مرات، ومنذ شارك مجموعة من المهندسين في مكتب "المتحدة للمقاولات"، التي قامت ببناء أولى البنايات الحكومية والتجمعات السكنية المكيفة في أبو ظبي في الستينيات، وسفره الدائم لعقد صفقات الشركة، كنت ألقاه كثيرًا في أوقات تواجده بمصر أثناء تسكعي بوسط البلد، وكان يغدق عليَّ من ماله كلما تقابلنا، في إحدى هذه المقابلات اصطحبني للجلوس معه في بار علاء الدين بعمارة الإيموبيليا حيث بادرني قائلاً:

أنا نويت أسيب الشركة وأسافر لجدودي عشان أعيش معاهم بقية عمري! أصل أنا تعبت يا ابني من اللف في بلاد الله، وتعبت أكتر من البشر، حأرجع لجذوري الحقيقية في أفريقيا، لأني اكتشفت إن الأفارقة- كانت بشرته السمراء وجذوره السودانية تجعله أفريقيًا بامتياز- هما بس إللي بأرتاح معاهم في الدنيا دي، بصدقهم وبيصدقوني، بينا لغة واحدة هي لغة القلوب وبتبان من نظرة العين، الروح هناك لسه على فطرتها، فاهمني يا ابني؟ سألته: فين في أفريقيا بالضبط يا خالي؟ أجابني: أنا شريك صاحب العمارة دي، وهو تاجر لعب أطفال كبير، واتفقنا ننشئ مع بعض شركة للتجارة، أنا أتولى أمورها هناك، وهو يبعت لي البضاعة من هنا، في بلد اسمها بوروندي!

تعجبت من اسم البلد الذي كنت أسمعه لأول مرة في حياتي، وعمري ما شفتها على أي خريطة فقال: ما بقتش تفرق معايا شهرة البلد أو غناها، أو الناس تعرفها ولا ما تعرفهاش، ولا حتى يهمني حاكسب منها قد إيه، أنا إشتريت بيت هناك على البحر، ونفسي أعيش إللي فاضل لي من عمري فيه، الناس هناك يا عزت سود صحيح بس قلوبهم ما تعرفش الكدب والخداع!

تعجبت وتساءلت: بعد كل هذا العمر من السفر إلى شرق الدنيا وغربها والمكاسب يذهب هكذا فجأة إلى تلك البقعة المجهولة من العالم، يا إلهي أهكذا تكون النهاية؟ وتوجهت إليه بالسؤال: طيب درست المسألة كويس؟ يعني شايف الحكاية تستحق والمكسب حيكفيك تعيش كويس ولاّ هي مجرد لعبة قمار؟ رد ضاحكًا: طول عمرك لِمض ولسانك متبري منك، يعني أنت عاقل قوي يا خيّ وبتحسبها بالورقة والقلم وخالَك هو إللي طايش يا ابن الكلب. رديت يدفعني حبي له: أبدًا يا خالي أنا ما أقصدش، انا عايزك تكون في أحسن حال، أنت تستاهل كل خير، بس ما تنساش إن ليك أهل لازم تطمنهم عليك وتزورهم. فقال بهدوء: ما تخافش يا ابن فوزية، عُمر الشقي بقي، طبعًا حاجي أزوركم ده أنا ماليش إلا إنتوا والعيال.

عاد بعدها بعامين مصابًا بمرض لعين في الكبد، باحثًا عن صدر يضمه وأهل يرعونه وقد فتك المرض بكبده، وتلاشت قدرته على المقاومة! وكانت زوجته الأرمينية أنجيل تستدعينا كلما أصابته غيبوبة الكبد، فنلحق به أنا وحمدي وأمي في المستشفى، حيث تتركه لنا وتذهب، ونتسلمه جسدًا متهالكًا بلا وعي، ليبقى حتى تعود له عافيته، وتحضره أمي للبيت لنرعاه أنا وهي، وعندما

تستقر حالته يعود لبيته وهكذا، وعندما جاءه مَلَكُ الموت اتصل بي ابنه الأصغر وقال باكيًا: بابا باينه مات، إلحقني يا عزت! أسرعت إلى بيته بالمهندسين وتأكد لي أن روحه قد فاضت إلى بارئها، ووجدت زوجته أضاءت الشموع من حوله، فطلبت منها ومن ابنه أن يتركوني وحدي معه، أغلقت باب الغرفة وعينيه ووجهت رأسه جهة القبلة، وفككت الأربطة التي كانت زوجته قد عقدتها حول قدميه حسب الطقس الكنسي، وقرأت على روحه بعض آيات القرآن وقلت له، وأظنه سمعني: آن لك أن ترتاح أيها الشقي، ثم خرجت وأكدت لهما وفاته، فبكى ابنه وولول وبدأ يلطم مثل النساء، فما كان مني إلا أن صفعته على وجهه وصرخت فيه قائلاً: لا وقت للبكاء الآن، عليك أن تتمالك نفسك فلا يوجد أحد من الأهل غيرنا، وهناك الكثير الذي يجب علينا عمله، اتصل بحمدي عشان يفتح المدفن وسأذهب أنا لاستخراج تصريح الدفن، ولحق بنا الأهل وشركاؤه السابقون في مراسم الدفن والعزاء، وأنا على حالي من الصمت، ولم تبدر مني بادرة حزن رغم أنه كان يملأ قلبي حتى كاد يفطره، ثم بعد أيام في عزاء الخميس الأول بمنزلنا تقاسم الأبناء الأربعة وابنته الوحيدة- بل قل تنازعوا- ما تبقى من ثيابه التي جمعتها الزوجة في ثلاث حقائب كبيرة أرسلتها إلينا، وكنت أنا وابنه الأصغر خالد وأخي حمدي نتأمل المشهد بمرارة، وتدخل حمدي لتكون القسمة بالعدل، ويا لها من عدالة!!

بعدها كنت في طريقي للقاء بعض الأصدقاء في نادي الشمس، وبينما أطالع الطريق من نافذة سيارة الأجرة، وقعت عيناي على لافتة مستشفى خاص كنت قد رافقته إليه لمقابلة طبيبه، الذي أخبرني يومها بحقيقة أصابته بسرطان الكبد، وأصرّ الطبيب

يومها على بقائه في المستشفى حتى أنه سحب مفاتيح سيارته ووضعها في جيبه ليجبره على الانصياع لأوامره، مرت الذكرى أمامي كشريط سينمائي سريع، تبدى فيه ملكُ الموت يوم وفاته، وهو ممدد بلا روح على سريره، ووجهه خال من أي ضغينة مسامحًا كل من خانوه، وكل من طمعوا في ماله وسلبوه، وانفجرت في بكاء مفاجئ دون صوت، فقط دموع تنساب وجسد ينتفض، فانتحى السائق بسيارته جانبًا وأخذ يهدئ من روعي وهو مذهول من حالتي المفاجئة: وحد الله يا ابني، إيه إللي جرى؟ لا إله إلا الله مالك يا بيه فيه إيه؟ تمالكت نفسي قليلاً وألقيت برأسي للخلف وأنا أتطلع في وجه النهار الذي بدأ في الانسحاب وكأن غشاوة تزول من عيني، وأفقت بصعوبة من نوبة البكاء وقلت: ما فيش حاجة، ما تشغلش بالك يا أسطى، كل الحكاية إني إفتكرت خالي الله يرحمه، أصلي كنت دخلته هنا المستشفى قبل ما يموت بشهرين، فرد وقد زال ذهوله: ومين فينا حيخلّد؟ كلنا رايحين يا ابني دي سُنة الحياة، وحد الله كده ربنا يرحم أمواتنا جميعًا، أجبته شبه غاضب: أصل أنا ما عيطتش عليه من يومها، وده كان محسسني بالذنب، إزاي وأنا بحبه زي أبويا ما أنزلش عليه ولا دمعة واحدة؟ سامحني يا أسطى ضايقتك، ونزلت مسرعًا وقد أنهكتني الذكرى، ليلتها عادت إليّ صورة وجهه الضاحك، ورنت في أذني ضحكته المجلجلة، وتذكرت مبتسمًا قفشاته وسخريته من صعلكتي الدائمة في وسط البلد.

بعد ظهور نتيجة البكالوريوس، بدأت العمل متدربًا مع حشد من الزملاء بأرديتهم البيضاء، يتبخترون فيها متسكعين بين الأقسام والعنابر في المستشفى الجامعي الكبير، وكانت أبنيته الرحبة

بطرقاتها الطويلة قد فقدت بهجة زمن مؤسسها الدمرداش باشا، وكنا نحن أطباء الامتياز الأشاوس نتنقل بين الأقسام حسب أوامر السادة النواب، إما لحمل أكياس الدم من بنك الدم لمرضى الأقسام الداخلية، أو لنقل عينات التحاليل من وإلى المعمل، أو لاستلام لوحات الأشعة للمرضى، وما شابه من أعمال التمريض والخدمات المعاونة! ثم نُترك في نوبتجيات الطوارئ لمواجهة مرضى ما أنزل الله بهم من سلطان، عدد لا نهائي من الغلابة سواء في حوادث الطرق أو إصابات العمل في الورش أو المصابين في المشاجرات شبه اليومية في الأحياء الشعبية القريبة من المستشفى، خصوصًا حي دير الملاك وعرب المحمدي وغرب القشلاق بالعباسية، بالإضافة إلى الولادات وحالات الطوارئ النمطية من مغص كلوي إلى التهاب المرارة وحساسية الصدر والربو المزمن، خليط لا نهائي من الأمراض والمشاكل، ونادرًا ما منحنا السادة النواب معلومة عن تشخيص لحالة أو وصفة علاج لأخرى!

وقبل انتهاء فترة التدريب بالمستشفى الجامعي حدث شجار عابر لم أحسب له حسابًا!

كانت رجاء فنية الأشعة المسئولة عن أشعات قسم الطوارئ، تتمتع بقدر واضح من الجمال والدلال، تغلفهما بقناع محكم من التجهم للسيطرة على الأطباء والممرضين والمترددين على القسم يوميًا من بؤساء حوادث المرور ومرافقيهم، ترتدي كمية لا بأس بها من الأساور والسلاسل الذهبية، ناهيك عن الخواتم معلنة عن ثراء لا يُعرف مصدره، وطلب مني أحد الأساتذة ذات يوم الذهاب مع مريض – كان يشتبه في إصابته بورم- من مرضى العيادات إلى رجاء لعمل أشعة له لأن جهاز الأشعة بقسم العظام عطلان،

وهو ما يتكرر كثيرًا نظرًا لأعداد المترددين الرهيب من جانب، وتهالك الجهاز العتيق من جانب آخر، على أن أعود بالأشعة ليتخذ الإجراء اللازم، وعندما وصلنا أنا والمريض البائس، ووجهت حديثي إليها بعد إلقاء التحية وشرح الظروف ورجوتها مستعينًا بتعليمات الأستاذ أن تجري الأشعة، فماكان منها إلا أن نظرت لي نظرة إشفاق، وأطلقت ضَحكة ساخرة لا مواربة فيها وقالت بثقة وغرور: لا عشانه ولا عشان غيره، ما يهمنيش مين طلب الأشعة، ممنوع يا دكتور، أشعة الطوارئ للطوارئ وبس! أجبت بصوت خفيض محاولاً إخفاء دهشتي من غطرستها، متصورٌ أن الموقف ممكن أن يمر بسلام: يا مدام رجاء المريض شاكّين يكون عنده ورم وممكن يكون خبيث، وده مش أسلوب تفاهم إحنا في الآخر زملا برضه، فردت ببرود: أنا قلت إللي عندي وإنت أعلى ما خيلك إركبه وحنشوف مين فينا إللي كلامه حيمشي يا حضرة الحكيم باشا!

انفجر الدم في رأسي وكدت ألطمها على وجهها، لكني تراجعت خطوتين للخلف متوعدًا إياها في صمت، بينما ظلت هي على برودها وهدوئها، وطلبت من المريض أن ينتظرني قليلاً على أي دِكة، وذهبت على الفور إلى الكبير؛ مدير المستشفى بجلالة قدره حسب المكتوب على اليافطة النحاس الفخمة على الباب، طرقت الباب ودخلت دون أن يأذن لي أحد، ألقيت سلامًا مقتضبًا، فتطلع الرجل لوجهي وأدرك ما كان عليه حالي من الغضب، إذ صار وجهي كعادته في هذه المواقف مثل قطعة طماطم، أشاح بوجهه عني ونظر إلى الواقف أمامه بالبوستة اليومية ليمهرها بتوقيعه وهو يشير لي بالجلوس دون أن ينطق، أنهى حديثه معه فلملم

أوراقه قائلاً: تأمر سعادتك يا باشا، ثم استدار بكرسيه قبالتي وسأل بهدوء: خير يا دكتور؟ أي خدمة أقدر أقدمها لك؟

اندفعت الكلمات من فمي غاضبة محتفظًا قدر الجهد بنبرة تراعي مكانة محدثي، شارحًا ما جرى، ظل مطرقًا مصغيًا بهدوء دون مقاطعة، وربما دون اهتمام، ثم أجاب بهدوء وتخاذل: آه أيها الزميل- مذيبًا بهذه الصفة السحرية جليد المسافة بيني وبينه- أنا لا أملك لها أو لغيرها من الممرضات والفنيين المعينين شيئًا، هي رئيسة فنيين الأشعة بالطوارئ، وليس لي عليها سلطان، أنا عندي جيش منهم في المستشفى، واللوائح والقوانين مقيداني، إرجع إنت لأستاذك وقول له إنك ما عرفتش تعمل الأشعة وهو حيتصرف بطريقته!

شكرته واختفيت من أمامه، فلم يكن هناك ما يقال، الرجل بارك الله فيه لم ينهرني على وقاحة اقتحامي مكتبه، ولم يشر لتفاهة الموضوع مقارنة بالمشاكل التي يعاني منها في مستشفى يؤمه الآلاف يوميًا، كل إللي عمله إنه قال لي ارجع لأستاذي وأقول له إللي حصل، وبناء عليه قضيت ما تبقى من اليوم كيفما اتفق، وتقبل الأستاذ فشلي في المهمة كأمر طبيعي!

في اليوم التالي، وقبل أن يبدأ الصخب اليومي، أشار إلى زميل بضرورة الذهاب لقسم الطوارئ لأرى بنفسي نتيجة ما أقدمت عليه من حماقة، وهناك وجدت قرارًا إداريًا معلقًا على باب القسم موقعًا من سيادة الأستاذ الدكتور المدير: "ممنوع عمل أي أشعة لمرضى العيادات الخارجية بقسم الطوارئ مهما كانت الأسباب"! عدت للقسم والتقيت نائبًا بالقسم من أصدقاء الدراسة بادرني مبتسمًا

مبديًا دهشته من سذاجة تصرفي: إيه إللي عملته ده يا ابني؟ حد يشتكي الولية لعشيقها؟ آمال عامل لي فيها صايع وبتفهمها وهي طايرة، الهانم إللي رحت تشتكيها عشيقته يا عبقري، وكل العاملين عارفين ده، وطبعًا عارفين إن ليها عليه سلطان يمنعك ويمنع أبوك نفسه إنه يكسّر لها كلمة، فاهم يا حلو؟ اجبته مقهورًا:

فهمت يا مولانا، وضحكنا معًا على غبائي، وسخرت من نفسي! صحيح ما هي حاجة باينة زي الشمس، كان لازمتها إيه الهيصة إللي خلت شكلي مسخرة وسط الخلق، وبعد أن أكملنا المرور اليومي على العنابر وجلسنا لشرب القهوة قلت له: بحق العيش والملح إللي بينا تديني أجازة اليومين إللي فاضلين هنا، حأمضي الصبح وأخلع وتسيبني على راحتي، لا عايز أتعلّم ولا أتدّرب، وكفاية بهدلة ومرمطة على كده، انا ما خدتش أجازة من يوم النتيجة، لكنه أمسك بيدي وجرني لمقابلة د/ طارق المدرس بالقسم والعائد حديثًا من بعثة الدكتوراه في سويسرا، وبمجرد أن رآني بادر محاولاً التهوين مما جرى:

اسمع يا عزت إنت جايز معاك حق في غضبك، لكن الأمور في الدنيا عمومًا ما بتمشيش في خطوط مستقيمة، دايمًا في مطبات وملفات، صحيح الأحوال ماتسرش، لكن يظهر ما فيش حد عنده استعداد يكلف خاطره ويصلّح أي حاجة، وبالنسبة لك الحكاية كلها أيام وتتوزعوا على مستشفيات تانية وتشقوا طريقكم، يبقى إيه لازمة المعارك التي لا طائل من ورائها، أتعلم يا ابني إن ما فيش حاجة أهم من مستقبلك، وسيلتك للنجاة من كل هذا التركيز على مستقبلك وبس، وأترك الأحوال لرب العباد يديرها كيف يشاء! استمعت إليه مصغيًا، شاكرًا له اهتمامه، مؤكدًا إني وعيت الدرس تمامًا، وأمّنت على كلامه بهز رأسي في تحفظ يليق بمكانته لديّ،

فقال منهيًا نصحه لي: الدنيا مش أبيض وأسود بس، فيها رمادي وألوان تانية ما لهاش آخر، انتبه لنفسك وركز في مستقبلك!

توجهت من فوري إلى كافتيريا لاباس حيث أتحفني عم فرج الجرسون الحميل بفنجان قهوة إكسبريسو مضيفًا إليه قليل من البراندي- الذي نبقيه لديه لزوم تظبيط الدماغ- ووافاني بكام نكتة ليخفف عني ما بدا على وجههي من هم، بادلته مزاحًا بمزاح حتى أطمأن أن مزاجي أتعدل والتفتّ أنا لمتابعة الشارع من زاوية الكونتر المفضلة، كاشفة الأعمدة الرخامية في بهو المكان، وشارع قصرالنيل، ومدخل ممر بهلر على يمين الناظر إلى ميدان طلعت حرب، وانعقد عزمي على نسيان الأمر برمته، وليذهب التدريب، وحفلات التوقيع الصباحي، والرداء الأبيض البارد، والتزاحم حول الكهنة من الأساتذة الذين لا يهتمون بتعليمنا شيئًا من أصله، ولا يشغلهم سوى مدى خضوعنا لهم، فليذهب هذا كله إلى الجحيم.

قضيت النصف الثاني من عام التدريب المؤهل للحصول على ترخيص مزاولة المهنة في حي بولاق أبو العلا، في مستشفى بولاق العام أو "المجموعة" التي تقع في مواجهة قسم الشرطة، وتحتل مبنى شبيه الطراز بمستشفى القصر العيني، ولم أكن زرت الحي من قبل إلا مرات قلائل مع أبي لزيارة ابن عمه "عم حسن" في محله، الذي لم يلفت نظري فيه سوى فقره الواضح، يبيع فيه الفحم وأشياء أخرى لا أذكرها.

كنت أنزل من الأتوبيس على الكورنيش لأخترق شارع وكالة البلح، حيث محل عم حسن - وقد تم تقسيمه بين ابنه وابن أخيه كامل الذي ترك عمله الناجح في فندق المينا هاوس ليتاجر في

عوازل الحوائط والأرضيات بالجملة- وما أن رأيته وأنا عائد من عملي حتى تبادلنا التحية وذكريات شبرا وناسها، وقال بعد أن علم بعملي في المجموعة: تعدي عليّ نفطر سوا وبعدين تروح شغلك براحتك. قلت له: ماشي يا ابن عمي.

من منزلنا في شامبليون للمستشفى التي تقع خلف برج البنك الأهلي، وهو من مخلفات عهد الانفتاح بواجهته الزجاجية السوداء اللامعة في مفارقة مضحكة مع ما يحيط به من مبان وبيوت متهالكة، يبدأ الطريق بالمتحف المصري الذي صار صديقًا خفيًا لي منذ سكنت وسط البلد، أدخله كثيرًا محملاً بشوق غامض، أتحلّل فيه من سخف الحياة خارج جدرانه، وأصغي للصمت الذي يلف قاعاته مفعمًا بترانيم لطالما تردد صداها واستمع إليها بخشوع الفنانين الذين نحتوا تماثيل الملوك المهيبة من البازلت والجرانيت والمرمر تربض شامخة في أسطورة الأبد، حاملة رسالة وضعها "تحوت":

" أن تزرع شجرة وترعاها، وتبني بيتًا وتصونه، وتنجب ابنًا ترعاه وتنشئه، وتعمل عملاً نافعًا وتتقنه"،

" من يرى بعقله لا يحتاج أن يرى بعينيه، ومن يسمع بعقله لا يحتاج أن يسمع بأذنيه، فالعقل أصدق الحواس"،

" الحقيقة التي توليها ظهرك تطعنك فيه".

كنت أترك بوابة المتحف خلفي لاتجه يمينًا حيث مبنى الحزب الوطني- مبنى اللجنة المركزية للإتحاد الاشتراكي سابقًا- الذي تبدلت فيه على مرّ الأيام الشخوص والرموز والشعارات، وهو مبنى لا يترك في النفس سوى شعور لا يقاوم بالكآبة من كلاحة

جدرانه، وعتمة نوافذه، وغموض الداخلين إليه والواقفين على بابه من فحول الأمن ذوي الكروش، وأوامرهم الوقحة للمارة بعدم السير فوق الرصيف!

33 شارع الوكالة عنوان محل كامل ابن عمي الذي تبقى من وكالة جدنا الأكبر، أسير بعده عبر السوق العتيق حتى جامع سنان باشا - بجوار تكية المغاربة- ذي القاعدة المستديرة، يحيط به صحن ينفتح على السماء، وتلتف حوله المقرنصات الجصية، وسبيل المياه بواجهته الرخامية، هكذا كانت تمضي رحلتي اليومية للمستشفى عبر تاريخ ممتد، وارتبطت روحي بالأمكنة متتبعًا رائحة محببة لأرواح الجدود، التي تطوف بالأسواق وتهيم خلف جدران المحال والبيوت، محتمية بالألواح الخشبية التي تعلو البنايات من انهيار تاريخها الحافل فوق رؤوس الجميع!

يبدأ الروتين اليومي بمجرد الانتهاء من التوقيع، والطواف بين الزملاء في مختلف الأقسام، وقبل الظهر بقليل أنسحب في هدوء عائدًا إلى كامل حيث نتناول الإفطار ونتبعه بكوب الشاي التمام، ثم أنصت له يحكي ذكرياته ومغامراته في المينا هاوس، وعندما ينشغل مع زبائنه أو جيرانه من أصحاب المحلات المجاورة، حيث يسخر أحدهم من آخر عقد صفقة فاشلة، أو يتشاجرون حول مباراة كرة قدم بين الأهلي والزمالك، أستأذن كامل في إجراء بعض المكالمات لأصعد للدور العلوي أجري اتصالات – لامعنى لها غالبًا- متأملاً وجه جدي في صورته المعلقة أمامي، وربما تبادلت معه حديثًا صامتًا، أو تلبستني روحه تفيض بسر من أسرارها السابحة في فضاء السطح المهجور الممتد للمحل، ثم أهبط هاربًا

من خيالاتي، وأودع كمال عائدًا إلى المستشفى أو أتجه إلى شاطئ الكورنيش رأسًا.

استفزت مدة التدريب في مستشفى بولاق لدي حكايات جدودي، وأثارت فضولاً فطريًا لمعرفة المزيد، وكان مصدري الموثوق به بعد جدتي إخلاص عمي حلمي – ابن خالة أبي– بأسلوبه البارع في السرد، حيث صار صديقًا مقربًا منذ ايام الدراسة بالكلية، يعاتبني إذا تأخرت عليه في الزيارة ببيته في منيل الروضة، وعندما علم بالصدفة أنني أكتب الشعر فرح كثيرًا، وطلب أن يسمع بعضًا مما كتبت فتلوت عليه مطلع قصيدة تقول:

والسماءُ مِسبَحَة تَفرَّطَ عقدُها

برتقاليةُ اللونِ تفور عيناها في وجه كونٍ

أطلق الأناتِ في حضنِ رحِمَها الولود

قاطعني متعجبًا من الصورة، وسأل من أين أتيت بها؟ أجبته: إنت فاكر يوم ما مطرت السما تلج في إحدى ليالي الصيف الماضي، يومها نظرت للسماء فوجدت لونها برتقاليًا، وتساقطت قطع الثلج كالحجارة حتى كسرت زجاج النوافذ، ودخلت الدنيا في حالة دموية موحية بالمخاض، وشعرت وكأن روحي قد قُبضت فكتبت:

والحباتُ تهوي كوقعِ خطوٍ أهوج الخُطى يسعى لخلاص

قدرنا سيوفٌ تُحصي هاماتِ المُنى ليس لها من قصاص

ابتسم عم حلمي وأمعن النظر إليّ، ولم يعلق لبرهة طالت حتى شعرت بالتوجس، خير يا عمي مش عاجبك الكلام شعري مش مشكلة ولا يهمك، أجاب بابتسامة صافية: إنت عارف إنك حفيد

شعراء كبار ولا ما تعرفش؟! ضحكت ساخرًا، شعراء وكبار كمان، يا راجل قول كلام معقول، فقال بوقار: لا تسخر يا ولدي، أهلك ممكن كانوا ناس بسطاء وعايشين على هامش الدنيا، لكن الجذور والعائلات حاجات ما فيهاش هزار، فاهم؟

اصطبغت سحنته بملامح شجن واضح، فقلت محاولاً استدراك الموقف: آسف يا عمي، أنا بأحاول آخد الأمور ببساطة، أنا لا شاعر ولا يحزنون، الحكاية مجرد مشاعر بأسجلها عشان أتخلص من وزرها أو أخفف من أثرها عليّ، أما أهلي فأنا أكثر الناس اعتزازًا بهم، فهم رغم بساطتهم يملكون زهدًا يجعلهم في نظري ملوكًا متوجين. رد قائلاً: اسمع يا ابني، شِعرك ما ضايقنيش ولا حاجة، أنا بكلمك كأب حريص على ابنه، إللي يتمنى يتباهى بيه قدام الناس، وأنا متوقع لك مستقبل باهر، قلت: ربنا يطول لي في عمرك، أنت تحملني ما لا أطيق، فرد مبتسمًا: إنت عارف جدك الكبير إللي بنى بيت روض الفرج إللي أنا أتربيت فيه مع أبوك وعمك جلال، وإللي بنى الوكالة في أبو العلا يبقى مين؟ جدك يبقى الشيخ العطار من شيوخ الأزهر، وله ديوان محفوظ في دار الكتب، وجدتك إخلاص نفسها حفيدة الشاعر "ابن خفاجة" وهو شاعر معروف، يعني أنت حفيد شعراء كبار بجد... ساد صمت استغرق فيه كلانا حتى انتبهنا إلى أن الساعة جاوزت منتصف الليل، وقد أطبق الظلام على شارع المقياس أمامنا، فودعته وخرجت محاولاً أن أستجمع شتات نفسي، وعدت للبيت كالمسحور.

تاجوج

تبدى شيطان الشعر مستبدًا بي، بوحي من تاريخ الجدود الذين لم أكن أعرفهم، وغرقت رغمًا عني في حالة من الوجد بعد حديث عمي حلمي عنهم، وكانت حواء قد أطلت عليّ قبل التخرج بأعوام في صورة غجرية آسرة، وأنوثة لا يفوقها سوى حنانها الفياض، تعرفت على "حباب" في حفل بنادي الطلبة المغتربين، وكانت ترتدي قلادة تشبه زينة النساء في القبائل السيناوية، ورغم لمعان الذهب حول جيدها إلا أن بريق عينيها العسليتين المشوب بخضرة مبهمة فاقه لمعانًا، فيما كان أنفها وشفتاها الدقيقتين مع وجنة بارزة وجبهة عريضة، ورقبة طويلة تنزلق من ذقنها الصغيرة لتكمل صورة بهية لفتاة إفريقية ببشرة خفيفة السمرة وصدر نافر كقرون الثور، وخصر نحيل ينتهي بساقين ممشوقتين متأهبتين للقفز وربما للتحليق.

قدمتني حباب لعائلتها المقيمة بحي الروضة بالقرب من منزل عمي صالح، وصرت صديقًا لأمها المثقفة ابنة طبيب الأسنان التي تربت في لندن، وللأب العجوز الحاني على أبنائه، الذي ترك تجارته الرابحة يديرها اخوته حتى يرعى أبناءه في غربتهم، حباب وطاهر الطالب بطب الزقازيق وبدر الطالب بطب بيطري القاهرة، وزاد قربي من العائلة بعد زيارة أمي لهم، ونشوء علاقة وئام بينها وبين

حباب، تستقبلها بترحاب كلما زارتني في منزلنا، اقتربت حباب وتباعدت، لكنها أبدًا لم تفقد بريقها الآسر ومحبتها الخالصة التي لم تشبها إلا شطحات من اعتادت أن تكون محط اهتمام الآخرين، والتقى عمي صالح معها، وعبر عن ارتياحه لشخصيتها، ولكنه شكك في استمرار علاقتنا لأنها كانت في رأيه طاووس، وأكد أنه ما أن تزول عني سكرة الغرام سأتركها لأني بأحب أكون حر نفسي.

آمنت حباب بأنني رجلها، وكنت أراها أنثاي التي أحلم بها، لكن شاب علاقتنا خلافات صغيرة لكن كثيرة، واكتسبت عادة التذمر من سلوكي وإن رضخت دومًا لي عندما كانت تشعر أنه لا مكان للجدل، وباحت لي أن سر شعورها باضطهادي لها جرح قديم تركه في نفسها حبيب سابق كان من أعلام الجامعة بالخرطوم، اعتاد قهرها وهجرها دون سابق إنذار ما خلق لديها رغبة دائمة في التمرد، ورغم تفهمي لما قالت إلا أنني قررت في نهاية المطاف إنهاء علاقتي بها، لا لشيء سوى أنها أصرت هي وأهلها أن نعيش في السودان إذا تم الزواج، فقلت لنفسي أي سودان هذا؟ ولمن أترك قاهرتي التي أدمنها؟ ربما استطعت توزيع ولائي بين مصر والسودان فنحن في النهاية أبناء نيل واحد، لكن الاستقرار في بلد غير مصر كان أمرًا يصعب تصوره مهما كانت الإغراءات.

أفل نجم العشق مع اقتراب نهاية سنة التدريب، وعدت بشكل تلقائي للمربع الجهنمي، وبحثت عن رفقي مفتقدًا مشورته وما أن التقينا عاد حوارنا المألوف الذي بدأه: كيف حالك؟ أجبته على الفور بشجن: لست على ما يرام، فعلاقتي بحباب تلفظ أنفاسها الأخيرة، ما فيش فايدة يا رفقي يظهر طبيعتي تصيبني بلعنة في علاقتي

بالنساء، يبدو لي أننا نقف في مربع ما بعيد عن رقعة الحياة، لا يرانا ولا يشعر بنا ملك أو وزير أو حصان ولا حتى أي بيدق! نوشك أن نصبح كالنساك نركن لأبعد نقطة عن الناس زاهدين فيما يتكالبون عليه، نتأمل الخلق والدهشة تملأنا من خوائهم وإن كنا بالضرورة نمارس نقائص البشر، فنحتسي كؤوس البيرة، ونرتاد المقاهي، ونضاجع النساء، لكننا على بعد أميال منهم، ربما كانت المسألة بسبب التمرد على كل شيء حتى على سلطان الهوى ذاته، لا أدري. أجابني رفقي بنبرة قلق: هون عليك، كفاك ما تعانيه مع أهلك، كفاك ما عانيته بسبب شجارهم الدائم، بص لقدام شوية، المستقبل قدامك محتاج تركز عليه، أنت تقامر بكل شيء دون أن تمنح نفسك فرصة النظر للأمام.

أضمرت نية التطهر من ذنب العشق، وكنا بعد إعلان النتيجة قد اتفقنا على البقاء أصدقاء، وأمضت فترة التدريب في الدمرداش، وقال لي أبوها قبل سفره للسودان بعد أن رتب لإقامتها في سكن النواب: حباب أمانة في رقبتك، لو حصلًها حاجة إنت المسئول قدامي، فأجبته: ما تقلقش يا عمي هي هنا بين أهلها، وأنا مسئول عنها حتى تعود إليكم سالمة بإذن الله، وتوزع نشاطي بين الاهتمام بشئونها، ونوبتجيات العمل بالطوارئ، والتواصل مع رواد المربع الجهنمي، حيث كنت صعلوكًا وطبيبًا متدربًا يتحسس طريقه لعالم النجاح، حين أخبرني أحد أصدقاء العباسية أن هناء ابنة عمه وزميلتي بالكلية تريدني أن أتصل بها لأمر هام!

كان بعض أصدقاء حباب من الزملاء السودانيين قد حكوا لي أسطورة "تاجوج"، والتي كانت ابنة لأحد الأمراء تتمتع بجمال

أسطوري، أحبت شاعرًا من عامة الناس، وحاول أبوها منعها من مقابلته لكنها أبت إلا أن تغرق في بحر هواه وشعره الساحر، ثم تدخل الوشاة وأشاعوا أنها خانت حبيبها مع أحد الأمراء الشبان الذي فضح ما بينهما وزاد بوصفه لشامة لها في مكان حساس من جسدها! استشاط الحبيب غضبًا ووضع حبيبته في مأزق الدفاع عن نفسها بأن تكشف له عن جسدها حتى يتيقن من عدم وجود الشامة التي ادعى الأمير أنه رآها، وهكذا طعنت تاجوج في شرفها بشك الحبيب فيها، فقالت له بمرارة:

لك ما تريد، سأكشف لك عن ساقي لتتأكد أنه لا توجد شامة كما ادعى الأمير الأفاك، لكن عندما تتأكد من براءتي ستكون نهاية غرامنا ولن تراني بعدها أبدًا، فما قولك؟ أجاب والشك ينهشه: لا بأس، المهم إثبات طهرك وإخلاصك لي أمام كل الناس، فكشفت عن ساقيها وثبت كذب الأمير، بينما نفذت تهديدها لحبيبها وهجرته للأبد فجن جنونه، وطاف بالبلاد نادمًا يبكي حبه الذي أضاعه بشكه وعمى بصيرته، وسجل في شعره أسطورته، وما زال الناس يرددون أسطورة الهوى الذي ضيعه الشك.

استعدت الأسطورة بيني وبين حباب قبل رحيلها نهائيًا قائلاً: أترين المغزى؟ هكذا نضيع هوانا، ونسير طوعًا لهاوية الشك حين نفقد قدرتنا على التمييز بين الحقيقة والأكاذيب، الحب هو البوصلة ونحن فيه أمام خيار واحد إما أن نصدق حبنا أو نكذبه. ردت ضاحكة: وهل الحب يمكن أن يكون غير ذلك؟ عشق وجنون ونزوة، هل تغيرتم يومًا أيها السادة الرجال؟ أنتم دائمًا أسرى أوهام ذكورتكم تبحثون عن طهر زائف!

تساءلت والأسطورة تطوف بخيالي، يا ترى ما الذي ذكّر هناء بي، وهي التي كانت تهرب وتراوغ كلما حاولت الاقتراب منها، على أي حال قررت الاتصال بها من باب اللياقة وإشباع الفضول، ولأنني تأخرت في الدراسة عامًا لم أدخل فيه الامتحان، كانت هي تعمل طبيبًا مقيمًا بقسم التخدير في المنصورة بينما كنت لا أزال في عام التدريب- الامتياز، ذكرت اسمي على الهاتف فأجابت: كيف حالك؟ قلت لا بأس وأنت؟ بخير والحمد لله لكن عندي مشكلة في الشغل، و"عهدي" ابن عمي قال لي إنك تستطيع حلها، قلت بعفوية: تحت أمرك نتقابل وتشرحي لي الموضوع، وإن شاء الله نلاقي لها حل.

تقابلنا في لاباس ظهيرة يوم من أيام يوليو برطوبته الثقيلة، وفي رحابة المكان استرخت في جلستها وبدأت تشرح حكايتها بعد أسئلة نمطية عن الحال والأحوال، فوعدتها بالبحث عن حل وأردفت: بصراحة كده ليه اخترتيني أنا أحل لك مشكلتك؟ أكيد كان ممكن تلجئي لغيري من الزملاء، آسف إذا كان السؤال بايخ، بس الحكاية تحيّر شوية، خصوصًا إن أصدقاءك كتير وكلهم يتمنوا خدمتك.

تمكنت بجهد واضح أن تخفي ارتباكها وقالت: بصراحة أنا كنت مرعوبة منك، كانت حكاية حبك لحباب ملء السمع والبصر وشايفاك دايمًا معاها، إزاي كنت عايزني أجاريك لما كنت بتحاول تقرَّب مني؟ فقلت متجاوزًا الأمر: طيب إيه رأيك نقوم نتمشى شوية؟ قالت بحسم: لأ، أرجوك أنا بأكره الشمس والدنيا الحر! ضحكت: أوعِدِك نمشي في الضِل، أنت بصحبة خبير في دهاليز وسط البلد.

توالت اتصالاتنا حتى قمت بترتيب زيارة لصديق بالمنصورة - أخو زوجة عبد الله سلمان جارنا- لعرض مشكلتها عليه، وبالفعل استمع للحكاية ورد بثقة: ما تحمليش هم يا دكتورة، إحنا تحت أمرك وأمر الدكتور، ده أخوه حمدي خدمني خدمة العمر ومش ممكن أنسى فضله عليَّ، لولاه ما كنتش خدت ترخيص السياحة إللي كان سبب كل الخير إللي أنا فيه، أحرجني كلامه ولم أعلق عليه، وسافرنا صباح اليوم التالي بعد أن وعدها الرجل بحل المشكلة وقام هو وروجته بواجب الضيافة معانا. وصرنا بعدها نلتقي يوميًا، وتعرفت على سهام بنت عمها أخت عهدي، وكانت بمثابة الأخت الكبرى والمثل الأعلى، بينما كانت نادية، أخت سهام الصغرى التي عاشت وحيدة في باريس قبل أن تنتحر، في مقام القديسة لديها، وظل طيفها يطاردها.

عاشت نادية حياتها- بعد أن تركت مصر وعملها كمضيفة بمصر للطيران- في باريس وحيدة، وخاضت في صخب وفورة الفن والحياة فيها، هكذا حكت هناء قصتها يوم ذهابنا للقاء سهام في بيتها بعمارات الضباط، وعندما دخلنا وجدت باهي إدريس صديقها - وهو من رواد المربع الجهنمي- ودار حوار ممتع بيننا إلى أن خرجنا بناء على إلحاح من هناء- لنتركهم دون اقتحام لخصوصيتهم أكثر من ذلك، واتجهنا إلى وسط البلد رأسًا حيث ركننا المفضل في كافيتريا لاباس، والتقينا بالصديق"علي الشلقاني"، مهندس الديكور المتخصص في تصميم وتنفيذ الزخارف المصنوعة من الجبس في المساجد والقصور، وكان معجبًا بهناء وقال إنها بنت بلد جدعة ونموذج للست إللي الواحد

يجوِّزها بقلب جامد.

ذهبنا في رحلة نيلية بدعوة من علي، حيث نزلنا درجات السلم الحجري إلى المرسى المقابل لفندق شبرد، واعتلينا مركبًا شراعيًا انطلق على خلفية صوت أم كلثوم تغني "حيرت قلبي معاك"، وألقى الليل علينا بظلال من أضواء الفنادق والكازينوهات المطلة على النيل، تأملتنا أنا وعلي صامتة ونحن نحكم السيطرة على المركب ودفة الحديث، من تاريخ الفراعنة وانهيار تراثهم الفذ في العِمارة نتيجة لطائفة المقاولين الجهلة واستغنائهم عن المهندسين الذين صاروا عمالة زائدة في شركات المقاولات، ومن العمارة إلى الطرب وحلاوة صوت الست، إلى ضوء القمر الذي يرسل أشعته الفضية في انسيابية لا يضاهيها إلا انسياب ماء النهر بحنوه ورسوخه على مر السنين في وجدان المصريين.

في اليوم التالي بادرتني حين تقابلنا بسؤال : قل لي إنت حكايتك إيه وعايز مني إيه بالضبط؟ وكانت قد التقت أمي في منزلنا، وكنت متأكدًا أن أمي بثتها شكواها مني فهي لم تترك صديقًا أو صديقة دون أن تفعل، تأملتها قليلاً ثم أجبتها شاردًا عنها بالنظر لما وراء الواجهة الزجاجية أمامي:

إيه حكايتي؟ أما صحيح سؤال عبقري، كنت فاكر إن عارفة إجابته من إللي شفتيه والكلام إللي سمعتيه من الزملاء، وكلام أمي، وطبعًا عهدي قال لك كلمتين ع الماشي، يعني إنتِ عارفة مبدئيًا حكايتي، أما حكاية عايز منك إيه بالضبط، فده إللي سؤال صعب بجد، لكن زي ما إنت شايفة قدامك، أنا يدوبك خلصت البكالوريوس، وفي نيتي أخلص دراسات لحد ما آخد شهادة

التخصص، وإن كنت أفضل آخدها من بره، وبأكتب شعر على قدي، تقدري تقولي عندي لطشة فن وغاوي أتسكع في وسط البلد مع حرافيش الثقافة، وأحيانًا مع شلة الوطاويط ولاد حتتي، وإذا كنت بجد عايزة تعرفي أنا عايز منك إيه، عايزك ببساطة تكوني جزء من العالم بتاعي، وعليكي تقرري بنفسك إن كان العالم ده يناسبك ولاّ لأ، بالعربي كده أنا فتحت كتابي وإنت قريتي فيه براحتك، يمكن السؤال الصح إنت عايزة إيه بعد كل إللي عرفتيه، أنا عن نفسي عايزك صديقة وحبيبة وعشيقة، ولا أملك ما أقدمه لك إلا حبي ومملكتي المتواضعة في العباسية، يا دوبك أوضتين وصالة نعيش فيهم ع الحلوة والمُرّة لحد ما نخلص سنين التخصص، وبعدها يحلها ألف حلال.

لم تعلق وشردت في العرض الجنوني، وبدا عليها مزيد من الارتباك والحيرة، فالتفت إلى أحد الواقفين على الكونتر وسألتها: عارفة مين ده؟ أجابت بتأفف: هو المفروض أكون عارفاه؟! ده يا ستي صاحب شركة سياحة وأخوه يبقى وزير الخارجية، وإللي جنبه مدير ملهى ليلي في الهرم، والتالت من رواد الإذاعة، وإللي واقف هناك ده "محمد حمام" المطرب النوبي، وعندك عم فرج إللي بيعمل لنا أحلى كابتشينو وأجمل اكسبريسو، من سكان القلعة وروحه تساعي عشرات المآسي إللي بيسمعها مننا رغم همه التقيل وعياله الستة، وعم كامل النوبي إللي بينزلك المشروب وقلبه زي حتة الألماظ بيحب الناس كلها ومش عايز من حد حاجة، حتى عمك رجب بياع الجرايد والمجلات الأجنبية إللي على الباب، مستني ابنه إللي سافر العراق من سبع سنين وما حدش عارف عنه حاجة ولا جاله منه جواب، وما بيشتكيش إلا لربنا، فقالت

مستفزة: وإيه أهمية التفاصيل دي بالنسبة لكلامنا؟ يهمني إيه أنا في تاريخ الناس دول؟

أدرت وجهي لها وقلت: دول يا ستي ناس بجد، كل واحد فيهم وراه حكاية من حكايات المصريين إللي إحنا منهم، ولو مش عاجبينك وشايفة إنهم غير مطابقين لمواصفات قيمك، لازم تعرفي إن أنا منهم وشبهم، إنتِ عايزة تصنفيني عشان تحطيني في خانة - زيك زي كل الناس- تسهل عليكي الحكم عليَّ، إنت عارفة حكايتي ولازم تؤمني بيا زي ما أنا، زي ما أنا مؤمن بيكي هناء بنت الدكتور عبد الله المندوه وكيل وزارة الصحة الله يرحمه، بنت شبرا الجدعة إللي مش شايفة فيها غير شوارعها القذرة، وفجاجة سلوك جيرانها ولاد البلد، إللي أنا وإنت وإللي زينا بيتعالوا عليهم، وعمرنا ما حاولنا ناخد بإيدهم عشان يبقوا أفضل سلوكًا وأكثر وعيًا، وعايزك زي ما إنت كده شريكة في حياة نرسمها سوا، وعلى فكرة بقى أنا مش شايف بنت عمك نادية الله يرحمها قديسة، أنا شايفها اختارت حرية مزيفة، وسابت بلدها واتنكرت لتاريخها، وعاشت في باريس حياة باردة، وفي الآخر انتحرت من قسوة الوحدة، وتاريخها طاردها للنهاية.

استمرت علاقتي بهناء، تتأرجح بين الإعجاب بالنموذج الذي أمثله، ومحاولة قبولها منطقي الخاص في الحياة – الذي لم يكن محل رضاها بالطبع - وبين تورطها في حالة العشق الذي تورطت أنا الآخر فيه، متجاوزين أو متجاهلين ما صادفنا من خلافات، واستمر الصدام وبدأت تتهرب من فكرة الارتباط، وألحَّت أن نكتفي بالصداقة متذرعة بحجج كثيرة منها أنها لا تجد مبررًا

للشقاء والمعاناة لتأسيس حياة في مجتمع متخلف لا يعطيها ما تستحقه!

كنت متأكدًا عندما تركت هناء أنني كمن بتر قدميه بعدما تهتكت بفعل السير في دروب الهوى طويلاً، محاولاً طي صفحة العشق، مختملاً آلام البتر، مداويًا جرحي بجنون وانفلات العاشق الجريح في العبث مع كل من صادف من نساء، وامتدت فترة العبث العدمية تلك حتى بدأت عملي طبيبًا مقيمًا في مستشفى مجهول بحي الفجالة، وصرت صديقًا لصقر ابن روض الفرج زميلي في قسم العظام، وأمين ابن الإسماعيلية في قسم الجراحة، الذي يعيش بعد هجرة العائلة للقاهرة في شارع كلوت بك، وسافر في بعثة لأمريكا حصل فيها على ماجستير في الصحة العامة، وعاد لعمله في المستشفى المهجور دون تذمر أو طموح يتجاوز حدود المستشفى المترهل.

ذابت أطياف هناء وذكراها، ما بين عملي كمشروع جراح عظام يغوص في قوالب الجبس واللحم وعظام المرضى الذين يلقي بهم حظهم التعس بين أيدينا على طاولة عمليات فقيرة، في ذلك الحي الذي يتآكل تاريخه العريق كما تتآكل بناياته، وبين صعلكتي المسائية وسط المثقفين، وانحسرت ذكرى هناء تدريجيًا، وانطفأ نجمها المتألق إلى الأبد، وجمعتني في المستشفى صداقة مع رئيس القسم عبد الله الجمل، ما أتاح لي فرصة إثبات قدرتي على تعلم مهارات المهنة دون التزام بدفتر الحضور والإنصراف الذي صار بيني وبينه عداء تاريخي من أيام عام الامتياز، وتساءلت مع نفسي: كيف لي أن أكون جراحًا ملتزمًا وأنا متمرد على وجودي

ذاته، وعلى مناخ الفهلوة والنفاق والفساد الذي يحاصر كل زاوية من زوايا الوطن؟

كان روتين العمل اليومي يبدأ مع فنجان القهوة الصباحي، بعدها تدور طاحونة العمل اليومية، وما أن تنتهي حتى نخرج أنا وأمين لنمشي سويًا عبر "باب البحر" إلى شارع "كلوت بك" حيث تسكن والدته مع أخته التي لم تتزوج، وأتركه لزيارتهم والاطمئنان عليهم قبل أن يذهب لمنزل الزوجية عند حماه في شارع محمد فريد، وأواصل السير لأمر على أبي في مقهى ركس، ثم أذهب لأمي أطمئن عليها وعلى أختي وأبنائها، وسواء تناولت معهم الغداء أم لا، كنت أتوجه من فوري إلى مقهى البستان، لأبقى فيه حتى حلول الليل الذي كانت لي فيه مآرب أخرى حتى ساعات الصباح الأولى.

كان مقهى البستان أيامها أشبه بالمسرح المفتوح، خشبته الرئيسية على الرصيف حيث لاعبو الطاولة والمجادلون حول القضايا العامة وقضايا الثقافة، تتخلل حوارهم قفشات كل من الشاعر والصحفي والممثل والمخرج، وخليط لا يتنهي ممن يعملون بالكتابة والفنون بأنواعها، الذين عانى أغلبهم مرارة الأحلام الضائعة، بينما تلبست بعضهم أوهام عبقريته في مجاله، فهناك عبقري القصة القصيرة، والشعراء الواهمون بأنهم ورثة المتنبي، وممثلون يتصورون أن مكانهم الطبيعي في المسرح الإنجليزي أو في هوليود على أسوأ تقدير!

في الوقت نفسه كنت أتابع الأدوار التي تؤدى في الممر الذي يختلط فيه الممثلون بالجمهور من رواد المقهى العابرين، تحت

سقف من فروع الأشجار التي زرعها الحاج/ عبد اللطيف صاحب المقهى، حيث اتخذ الجميع من المقهى ملاذًا ومأوى، ونقطة انطلاق الحوارات المتمردة في أغلبها على الأوضاع واليائسة من أي محاولة للإصلاح، ومكانًا لعقد الصفقات في مسرحية يؤدي الكل فيها دوره باقتدار، يختلفون حول كل شيء تقريبًا، وربما كان الشيء الوحيد الذي اجتمعوا عليه هو خشبة المسرح أيًا كان الدور الذي لعبوه.

تشكل من بين هذا الركام من البشر المقهور على صخر الواقع المترهل وعي جديد، وتفتحت رؤية رافضة للأنساق والقوالب التي تفرض سلطان المؤسسة الثقافية الرسمية، وتبلور السخط وربما النقمة على هزال ما حققه جيل وربما جيلان من الكتاب والفنانين ملأوا الدنيا بضجيج كتاباتهم وإبداعهم، بينما لم يحركوا الواقع أو يطرحوا بديلاً له، ولم يجيبوا عن أسئلة محورية حول الهوية لا تزال تراوح مكانها، فلم يأخذوا بيد الناس عندما انكسر الحلم القومي في 67 وصولاً إلى اتفاقية كامب دافيد التي كانت بمثابة ورقة التوت الأخيرة التي سقطت لتكشف عورات النظم العربية كافة.

كنا نسمع وقتها من جيل الستينيات كلامًا من عينة ما ذكره الشاعر العطيفي على لسان المستشرق الفرنسي/ جاك بيرك الذي ترجم القرآن للفرنسية، أنهم في الغرب يخشوننا نحن العرب والمسلمين أو بتعبيره هو" نحن نخشى يقظة الوحش النائم" لكن الوحش النائم استيقظ ذات نهار ليغتال الشيخ الذهبي، ولم يتورع عن اغتيال السادات، وكبل المجتمع بالحجاب والخوف من

عذاب القبر، صار الوحش النائم أسدًا علينا، ثم محتسبًا يورثنا عنوة ثقافة الصحراء، والنساء المتشحات بالسواد، والدعاة غلاظ القلوب، الذين استماتوا حتى يقلبوا حياتنا سوادًا خالصًا، وتحالف وحش التطرف الديني مع ثقافة رسمية تصِمُنا بالشعب الكسول الذي لا يتوقف عن التكاثر، بينما لا يكف عن المطالبة بالحقوق والحريات بكل بجاحة، وأورثنا الإعلام العبقري شعورًا مقيتًا بأننا عالة على حكامنا، شعب ناكر للجميل، حتى من خرج منا للتيه الخليجي وساهم بمدخراته في زيادة رصيدنا من العملة الصعبة، حتى هؤلاء صاروا في نظر إعلامنا الميمون لا يقدمون لبلدهم يد العون كما ينبغي!

هكذا، كانت صلتي بالواقع الثقافي من جهة، وارتباطي بالوسط المهني من جهة أخرى يجعلاني كمن يقف على خط التماس بين نقيضين، الأول يتيه في الإبداع وأزمات الإنسان وأسئلته الوجودية، والثاني يقف على أرضية تصور مادي صرف للإنسان بوصفه مجموعة من الأجهزة والأعضاء، وصرت بين شقي الرحى طبيبًا عليه حسم قراراته بما يمليه عليه ضميره المهني ورغبته المشروعة في الكسب المادي، بينما الكاتب بداخلي يتألم لأسباب إنسانية ذات طابع غير ملموس، وتأجج الصراع بين الطبيب والمثقف الحائر، بين الحكيم الذي احترف مهنة ابتدعها الجدود وقصروا ممارستها على الكهان، وبين الصعلوك الهائم في دنيا الفن والأدب!

في هذه الأثناء، كان زميلنا رفعت طبيب التخدير بمستشفى التوفيق في الفجالة ينحدر من أسرة طيبة من شبرا، كان أبوه ناظرًا للمدرسة الثانوية بالحي، وإخوته الثلاثة؛ جيولوجي يعمل

بشركة بترول في الصحراء الغربية متزوج ويعيش في حي مدينة نصر، ومدرسة تعمل مع زوجها المدرس في السعودية، والأخت الصغرى صحفية بأخبار اليوم، عائلة نمطية من الطبقة الوسطى يعيش فيها زميلنا مع الأخت الصغرى والأب بعد وفاة الأم، ولأسباب نجهلها كان انطوائيًا متحفظًا في علاقته بالزملاء، وإن احتفظ دائمًا بوجه يبتسم لكل من يقابله، وكان أكثرنا عملاً في المراكز الطبية والمستشفيات الخاصة، وأكثرنا تكسبًا من مزاولة المهنة في بداياتها العرجاء، إذ كان طبيبًا مقيمًا بالمستشفى وفي نفس الوقت طبيب التخدير بمستشفى خاص خلف معهد ناصر.

كان رفعت يجلب الجراحين من مستشفانا لإجراء الجراحات لزبائن المستشفى الخاص، بالإضافة لمرضى العيادات الملحقة بالمساجد، التي كان معظمنا يجد فيها مصدرًا لزيادة الدخل، وبدا رفعت بعمله - الذي لا يتوقف إلا لساعات قليلة نادرة- أكثرنا نجاحًا في تحقيق معادلة الكسب، إلا أن ساعات راحته لم تكن كافية ليستعيد حيويته التي تآكلت بشكل ملحوظ على مر الأيام، فازداد وجهه شحوبًا، وظهرت هالات سوداء أسفل عينيه لم تخفها نظارته الطبية السميكة، وقلما شاركنا نوبات الضحك، أو مداعبة ممرضات العمليات بقفشات لاذعة نتبادلها تخفيفًا لتوتر حركة المشارط، ووطأة أبخرة التخدير وروائح التعقيم والهواء الصناعي المكيف، ومشهد اختلاط اللحم بالأعصاب، في محاولة للحفاظ على أجهزتنا العصبية في أقصى درجات اليقظة، واعتاد أن يدخل في أوقات الراحة من العمل تحت الملاءة على أحد أسرة سكن النواب ليغط في نوم عميق يندر أن ينعم به دون استدعاء!

ذات صباح شتوي بارد غلفه ضباب كثيف حجب ضوء النهار، تحاملت على نفسي محاولاً طرد هواجس البداية الكابية لنهار عمل ممل، وذهبت مبكرًا للمستشفى لانتظم سريعًا في طاحونة العمل، ثم بدأنا العمل في العمليات نتناوب المعاونة فيها أنا وصقر وماجد زخاري مع رئيس القسم والاستشاري، في محاولة يائسة للسيطرة على الوقت الذي يتبخر أمام القائمة الطويلة للعمليات والإمكانيات المتواضعة. وبينما كنا في استراحة قصيرة بحجرة الأطباء، بعد أن أتم رفعت إفاقة المريض من تأثير المخدر، ودخل المريض التالي مستلقيًا على الطاولة في انتظار قدره معنا، دخلت علينا سمية ممرضة العمليات السمراء تسأل: الله أمال فين د/ رفعت؟ تعجبنا من سؤالها وقلنا: تلاقيه جوه بيخدر الحالة، فأجابت: لا ده سابنا وقال جهزوا العيان وأنا جاي حالاً، ودورنا عليه في كل مكان مش لاقيينه!

انتابنا جميعًا القلق، وانفجر الاستشاري غاضبًا: دي مش طريقة شغل دي، العيان بقاله شهر مستني دوره، لازم العملية تتعمل النهارده بأي شكل، اتصلوا برئيسة قسم التخدير تيجي حالاً، خرجنا أنا وصقر نبحث عن رفعت في كل مكان دون جدوى، وفجأة صرخ ماجد: إلحقوني! جرينا ناحية الصوت الآتي من حمام العمليات فرأينا ماجد يطرق الباب بعنف وهو يقول الباب مقفول من جوه وماحدش بيرد! ظل يركل الباب بقدميه وكتفه حتى انفتح على المشهد المهول؛ رفعت جالسًا على قعدة التواليت، ساقاه مكشوفتان بينما هناك حقنة مدلاة من أحد أوردة ساقه اليمنى، ورأسه ساقطة بين ذراعيه المرتكزتين على الفخذ، تأكدنا من غياب النبض وتوقف عضلة القلب نهائيًا، وبادر ماجد لسحب

الحقنة فنهره صقر قائلاً: سيب كل حاجة زي ما هي، علينا استدعاء مدير المستشفى فورًا، وتقدم الاستشاري ليتأكد من موته بنفسه، ثم أمر بسحب الحقنة من الوريد الذي أحاطت به هالات سوداء تنبئ بما جرى، كانت بقايا المخدر واضحة، حتى أن الأمبول كان ملقى بإهمال إلى جوار قدميه!

انكشف السّر، كان رفعت يتعاطى المخدر اللعين ليعينه على مقاومة الإرهاق والإحباط، في مواجهة حياة جافة انكفأ فيها على نفسه اختياريًا، لكن قواه خانته ولم يعد قادرًا على المقاومة والاستمرار، فكانت نهايته بهذا الأسلوب العبثي! لم نجد له نبضًا ولا في جسده روحًا لأنهما تسربا منه على مر ساعات عمل طويلة بلا هدف واضح، مات بلا صخب ولا أحلام ولا أصحاب، مات رفعت بعد عزلة استسلم لها أوقعته في هوة الكآبة وندرة الكلام إلا بما يكفي للاستمرار فيها. ها هو رفعت قد أعلن لنفسه - ولنا جميعًا فيما يبدو- عبثية الاستمرار، وأثبت لنا أن مواصلة الحياة حماقة لا يفوقها إلا حماقة القرار الذي اتخذه بالتوقف عن اللعبة، اللعبة التي نلعبها دون أن نتمكن من القضاء على شيطان الملل أو الهرب من جحيم اللا جدوى!

فجرت فاجعة موته شعورًا مريرًا - اختزنه كل منا بداخله- بأننا جميعًا شركاء في لعبة إبقاء الحال على ما هو عليه في صمت لا يبارى، وتسلل كل منا- في غفلة من أقرانه- إلى ركن لا يراه فيه أحد كي يندب ما نحن غارقين فيه من التواطؤ باللهو والعمل!

بعدها هلَّ علينا عام 1986، وقناعتي تزداد يومًا بعد يوم بعدم جدوى الاستمرار، وبُحت لرئيس القسم ولصقر وأمين بنيتي ترك

العمل، نصحوني جميعًا بالتريث وإلا سيكون شبح البطالة في انتظاري، وارتأيت الانتظار لمراجعة قراري حتى تأتي اللحظة المناسبة، فهناك ما يدعوني للبقاء ضمانًا لحد أدنى من الدخل مهما كان تافهًا، واكتساب خبرات مهنية مهما تواضعت، أما حكاية المناخ فلن أفلت منه أينما ذهبت، وكانت العيادة التي فتحتها بحي منشأة ناصر العشوائي- حال خطبتي لهناء- تحوطها أكوام القمامة، في حي زُرع قسرًا على امتداد طريق النصر، يا ربي أي مكان لعيادة هذا؟ وأي مجال متاح لممارسة الطب في بقعة كهذه، وأي مستقبل ينتظرني إن تركت العمل هنا؟

حظر

بعد فاجعة موت رفعت، كنت أتبادل حديثًا عابرًا مع صقر وأمين حين أقبلت الحاجة/ عديلة فنية الأشعة لتخبرنا أن بيانًا أذيع أعلن فيه فرض حظر التجول من الخامسة مساء اليوم، ابتلعنا ريقنا بصعوبة وتبادلنا نظرات الدهشة، ودرنا حول أنفسنا نستفسر عما جرى، وأبلغنا مدير المستشفى اللواء السابق بالجيش حقيقة الأمر: إنتم نايمين على ودانكم، عساكر الأمن المركزي تمردوا وخرجوا بأعداد كبيرة من معسكرهم بطريق مصر اسكندرية الصحرواي، ووصلوا شارع الهرم، كسروا إللي طالوه من واجهات المحلات والعربيات، وضربوا نار بشكل عشوائي، ودلوقت قرّبوا من وسط البلد، البلد مقلوبة يا حضرة إنت وهو!

ساد هرج ومرج على عادة المصريين في حالات الطوارئ، وأمر المدير ببقاء النوبتجيات الموجودة من أطباء وتمريض وعمال، والباقي يروح على بيته عِدل، كله لازم يكون في بيته قبل الحظر، كانت الساعة جاوزت الواحدة ظهرًا، واستعطفتني الحاجة/ عديلة- العائدة من فترة إعارة عشر سنوات في ليبيا- أن أوصلها حتى تركب لبيتها في المطرية، قلت لها: ما فيش مشكلة أوصلك تركبي وبعدين أروح، تأبطت ذراعي بشعور فطري بالأمومة، سرنا معًا حتى اقتربنا من ميدان الظاهر، فتوقفت أمام محل بقالة لشراء

تموينًا لبيتها قائلة: ما حدش عارف حنفضل في بيوتنا لحد إمتى؟
استندت على عامود النور قبالة المحل متأملاً الشارع يعج بحركة شبه هستيرية، فقد فاجأ موعد الحظر الجميع، وتساءلت مع نفسي: يا إلهي عساكر الأمن المركزي تمردوا، كيف بلغوا هذا الحد ولماذا؟ يا ترى ما الذي أوصلهم لهذه الحالة من اليأس وقد كانوا نموذجًا للمصريين المغلوبين على أمرهم، يعانون من إهانات الضباط لهم دون شكوى، لكن أن يشهروا سلاحهم في وجه ضباطهم وبشكل جماعي، هذا أمر يحتاج لما هو أكثر من ميراث الغضب، ومن نظم تمردهم، وكيف اتفقوا عليه؟!

وبينما أنا على حالي من الحيرة في انتظار عديلة وهي وسط زحام من الزبائن يفوق قدرة صاحب المحل، أفقت على ديالوج بين صاحب المحل المشغول بتلبية طلبات زبائنه وبين صاحبه الذي يكلمه أو يكلم نفسه في الواقع- واقفًا يتفرج على الشارع- وكان شابًا في الثلاثينيات من عمره، يتكلم بهدوء يحسد عليه على خلفية من صياح الزبائن، وأطلق إعلانًا عفويًا دون أن يحدد لِمَن يعلنه، وإن ظلت نظراته عالقة بالمسافة بينه وبين الجمهور الذي يخفي عنه وجه مُحدِثُه، متأملاً فوضى الشارع في لا مبالاة وسخرية لا لبس فيهما:

ما تقلقش يا عم، دي هوجة، شوية ويهبطوا على ما فيش، بعد ما يتقتل منهم عدد في علم الله، دول شوية عساكر غلابة استغلهم ظباط كبار بحكم الذل إللي شافوه ورموهم في وش المدفع، الحكومة بقى تسميها تمرد تسميها عصيان هي حرة، بس هي هوجة، شوية عساكر طلقوهم في الشوارع يا وِلداه ينهبوا محلات ويكسروا عربيات وتبان إنها فوضى، لكن في الأصل هي خناقة

بين الكُبرات، كل واحد فيهم عايز يمشي كلامه، الكبار وقعوا في بعض مالنا إحنا ومالهم، خلينا نتفرج لحد ما نشوف أخرتها، إحنا لا لينا في الطور ولا في الطحين!

وكأن ما قاله صياغة ما لبيان شعبي عاجل يصف ما جرى مقابل بيان رسمي هزيل يشوبه الخوف على النظام من الإنهيار بفعل فوضى العساكر الغلابة التي أسموها في وكالات الأنباء الأجنبية ثورة الحجارة، ولم تخلُ نبرة التهكم والضحكة الباهتة على شفتي الشاب وهو يلقي بيانه من مرارة، فتبعه ربما ليرد على تساؤل برز في ذهنه بجملة قاطعة:

هو فيه حد حاسس بينا، ولاّ يهمه عيالنا كلت ولاّ جعانة، مكسية ولاّ عريانة، يا راجل خليها تولع! خرجت عديلة بعد أن حملت ما يكفيها ويكفي جيرانها لأسبوع، أمسكت بيدها حتى وصلنا تقاطع بورسعيد، وركبت سيارة أجرة مشفوعة بطلبي منها الاتصال لأطمئن على وصولها البيت بسلام.

قبل أذان المغرب كان ضور النهار ينسحب تاركًا الشوارع خاوية في محيط من الغبار والظلال التي خلفتها حركة المرور المذعورة، وقد خلت تمامًا من كافة أنواع البشر وكافة أشكال الحركة، اللهم إلا بعض الكلاب الضالة تنبح على استحياء ربما طلبًا لمؤانسة من الناس، وبلغ الهدوء حدًا يكتم الأنفاس، حتى النوافذ خلت من المتلصصين .

يا إلهي، بهذه السرعة انكمش الناس في بيوتهم يحاصرهم الصمت بقسوة خيالاته وأشباحه، وبمجرد أن أسدل الليل أستاره كانت قدرتي قد نفدت على تحمل وحشة البيت وجدرانه بصمتها

المكين، وتحدث المسئول الإعلامي- نيابة عن رأس النظام الذي اختفى- في بيان مقتضب مستخدمًا كلمات كاريكاتورية تصف المتمردين بالشرذمة والقلة المنحرفة، بنبرة توتر زادت من توقعات الناس بأن الحدث أكبر مما بدا!

ارتديت ملابسي في عجالة، ونزلت إلى الشارع الذي خيم عليه صمت القبور، وكأن القاهرة بصخبها وضجيجها المعهود صارت مدينة للأشباح، وفي ميدان الجيش ظهرت مجموعة من صبية تتصايح وهم يلعبون أمام مداخل بيوتهم في المشهد الناطق الوحيد على خلفية من الصمت التام، أكملت السير باتجاه ميدان الظاهر ثم شارع الظاهر، حتى وصلت شارع الفجالة حيث انتشر جنود الدوريات من الجيش للقبض على فلول المتمردين، واستوقفني جندي مدجج بأسلحته فأبرزت بطاقتي المهنية، فأشاح ببندقيته ووجهه الجامد موجهًا نظراته النارية الآمرة لي أن أستمر في طريقي.

وصلت ميدان بركة الرطل الذي يطل عليه المستشفى الكئيب، وألقيت التحية على الحارس العفوي الجميل/ عم يوسف الذي لا يكف عن مشاغبتنا بنكاته اللاذعة، طلبت قهوتي وشربتها بغرفة الطوارئ التي كانت خالية إلا من دفتر تسجيل الحالات مفتوح على مصراعيه، ألقيت نظرة على ممر الإدارة فوجدته مظلمًا إلا من نور خافت قادم من قسم الأشعة، وعدت لغرفة الاستقبال متتبعًا صوت د/ خالد الجهوري المميز وعينيه الخضراوين المشرعتين على المدى، وإلى جواره نجاة الممرضة بشفتيها الغليظتين وذقنها المسحوب لأعلى، وجسدها الذي يستدير في نعومة تحت

ردائها الأبيض المحكم تمامًا، وجدتهما ساهمين يستمعان لأغنية "بنادي عليك" ضحكت قائلاً: ها قد لبيت النداء، فرحا بقدومي في هذا السكون الثقيل، تركتهما وصعدت لتفقد أحوال المرضى الذين ألقى بهم حظهم التعس فريسة للمرض في هذه الظروف العبثية الغامضة، وقبل أن أبلغ سكن النواب وجدت سامية كعادتها منهمكة في إعداد وصفات العلاج قبل توزيعه، تألق وجهها في الضوء الخافت المنبعث من اللمبة المعلقة من سقف الغرفة، بادرتها: كيف الحال؟ أجابت بدهشة: إيه إللي جابك؟ جيت أطمئن عليكو حرام ولاّ حرام؟ ردت بنبرة حنونة: مش خايف تمشي في الشوارع في الظروف دي؟ قلت: الخوف ملغي من قاموسي من زمان أنا قلبي ميت يا ماما، ولازم أزور أمي وأختي وأطمئن عليهم، وبعدين أنا أصلاً وحداني يرضيكِ يعني أقعد أكلم الحيطان؟ وكلها ساعتين تلاتة بالكتير وأرجع لك بالعشا وكله يبقى تمام، ما تقلقيش عمر الشقي بقي.

أسرعت إلى الشارع، واتخذت طريقي المعتاد من باب البحر إلى كلوت بك ثم الكنيسة المرقسية حتى وصلت شارع الجمهورية، وهناك لمحت سيارة أجرة شاردة في فراغ الشارع الموحش، استوقفتها وركبت إلى جوار السائق، الذي التهى عني بالنظر أمامه مترقبًا الكمائن الأمنية، وما أن تجاوزنا فندق فيكتوريا- الذي ظل بعد أن وضعت الحرب العالمية الثانية أوزارها وتركه رواده من قادة الألوية والفيالق غارقًا في جحيم النسيان- حتى استوقفنا الجنود مصوبين فوهات بنادقهم لوجوهنا المنقبضة، أبرزت بطاقتي المهنية ففتح الصول المدجج بأسلحته فرجة في متاريسه وأكملنا طريقنا إلى ميدان طلعت حرب، والسائق العجوز

بأسنانه المتساقطة تعلو عينيه نظارة ذات إطار أسود بلون حريق القاهرة في الخمسينيات- ربما نجا منه بالصدفة كما نجا غيره من قنابل العدوان الثلاثي التي ألقيت على مدن القناة - ولعله يتساءل الآن، من أضفى هذه الغلالة السوداء على القاهرة، أي حريق جديد أتاها؟ وصلنا وقد أفقت من حوار خيالي لم يدر بيننا.

صعدت مسرعًا، وتلقفتني أمي بخوف مشوب بفرحة رؤيتها لي سالمًا، أعدوا لي القهوة وبادرت هدى: بات معانا الليلة دي، كويس إنك جيت عشان ما تباتش لوحدك في العباسية، ابتسمت شاكرًا لها دعوتها: لأ ما فيش داعي أبات، أنا جيت أطمن عليكم وحأرجع المستشفى يمكن يحتاجوني، ولو زهقت المسافة للبيت ما تخدش أكتر من عشرِ دقايق، انفجرت هدى في وجههي قائلة: إنت بتعمل كده ليه، عايز القلق يقتلنا عليك، السكة مش مضمونة يا ابني، تملكني خوف حقيقي خصوصًا مع سماع صوت طلقات رصاص لم ندر مصدرها، لكني قلبت الموضوع كوميديا: باين عليكي عارفة قيمة أخوكي بجد، بس ما تقلقيش ما حدش بيموت ناقص عمر، وخلي بالك أنا واد عفريت وأعرف أزوغ عند اللزوم، ودعوني كلهم كمن كان على سفر، وغمرتني أمي بنظرات إشفاق وعتاب.

كانت المحلات كلها مغلقة بطبيعة الحال، تركت الرصيف عامدًا وسرت في نهر الطريق يتملكني شعور وهمي بالنفوذ، أسير وحدي في شوارع لا ظل فيها أو خيال لكائن حي، يراودني خوف مبهم من احتمال مرور سيارة إسعاف مسرعة أو طلقة نار طائشة لا أحسب لها حسابًا. عندما وصلت المستشفى كانت سامية أنهت مهمة توزيع العلاج، وجلسنا طاقم التمريض مع د/ محمود

ابن أسوان الجميل، ود / خالد ابن الشرابية لتناول العشاء الذي أحضرته معي، وعلا صياحنا وتخاطفنا الأكل من بعض كعادتنا، وضحكنا وكأن الدنيا على حالها نحاول اقتناص لحظات مرح تعيننا على الهرب من هواجس الواقع المريب.

مرت أيام الحظر ما بين زيارة أمي في الصباح، ومرور يومي في الليل على المستشفى، التي كانت بعيدة عن مسرح الأحداث، وفي اليوم الثالث قررت زيارة سلمى في شبرا، وكنت قد تعرفت عليها أثناء عملي في مكتب تحصين المسافرين بمجمع التحرير أيام التكليف، وكان جزء من أسطورة البيروقراطية المصرية، التي يُترك فيها المواطن حرًا حتى يحتاج ورقة من جهة حكومية، عندها لا بد من تسديد الخانات، ودفع فواتير الدولة المؤجلة، فلا بد من الوفاء بحق الحاكم والدولة مهما طال الوقت.

عندما فتحت سلمى باب الشقة وجدتني مبتسمًا وبادرت: ضيف غير متوقع مش كده؟ احتضنتني بلهفة صادقة: بتقول إيه ده البيت بيتك، وصلت الصالة فوجدت أمها جالسة كعهدها في المدخل ألقيت عليها التحية فردتها قائلة: أهلاً أبو عرام، أجبت: أهلاً بيكي يا حاجة عاملة إيه يا ست الكل؟ اسمع يا واد يا دكتور إنت، كلام البهوات بتاعك ده كلام ولاد ناس صحيح بس إنت مضيع نفسك بإيدك، كفاياك بعزقة في فلوسك وإرسى لك على بر وأبدأ أسس لنفسك، نشرب القهوة وأقرا لك الفنجان وعايزاك تفتح ودانك عشان أقول لك كلام حابساه من زمان: إنت محتاج واحدة تدبر لك أمورك لحد ما تقف على رجليك، قلت: ده كلام برضه يا حاجة يعني أنا واقف على إيديا لا سمح الله؟ ما أنا قدامك أهه

صاغ سليم ورأسي في مكانها وكله تمام. قالت بيأس: ما فيش فايدة فيك، عامل زي الطير المهاجر، لا لك عش ولا عايز ترسى لك على بر، اقتحمت سلمى الكلام: بعدين معاكِ يا حاجة هو كل ما الدكتور يزورنا تسمعيه الموشح ده، كفاياك تبكيت في الراجل، ردت مدافعة عن نفسها:

الراجل عارف إني بكلمه من قلبي، ويا بخت من بكاني وبكى الناس عليّ ولا ضحكني وضحك الناس عليّ، فقلت لوقف المشاكسة المعتادة بينهما: سيبيها يا سلمى أنا عارف إنها بتحب لي الخير، وإن جيتي للحق أنا فعلاً محتاج إللي تلمني وتعلمني الأدب، ولو عندك واحدة تنفع للوظيفة دي أنا جاهز، إلتقطت الخيط وقالت: أيوه يا أخويا ما هو كلامها على قلبك زي العسل، اشبعوا ببعض، وقامت الحاجة متعللة بتحضير الغدا بنفسها، فداعبت شعر سلمى المنسدل على خدودها: مش إنت أولى يا بت تاخدي بالك مني وتدبر لي أموري؟ لم ترد ونظرت لي عاتبة لأنها تعرف أني أتهرب من الارتباط بها أو بغيرها. ودعتهم بعد أن اعتذرت عن الغداء لأني معزوم عند أختي، وتركتهم مقبلاً سلمى على السلم مودعًا من كانت بمثابة شقيقة وصديقة أحبها لكني لا أريد توريطها معي.

عدت للبيت بعد الغداء مع أمي وأختي لأختلي بنفسي أؤنبها وتلعني، ألومها وتعاتبني، وفي اليوم التالي انتهى الحظر، واستعادت الدولة كامل سيطرتها على البلد بمعاونة الجيش الذي تعامل مع الناس بوصفه حاميهم، وعاد من أفلت من عقاب الموت من جنود الأمن المركزي لثكناته، مع وعود بتحسين أحوالهم، ومحاسبة المسئولين عن التمرد في محاكمة لم نسمع شيئًا عنها سوى قرار بالعفو عن المشاركين- الأحياء- في الشغب من

الجنود، وأجمعت التكهنات على أن صراع أصحاب المصالح مع وزير الداخلية الذي أقيل اللواء/ أحمد رشدي هو سبب الفتنة لأنه اكتسب شعبية طاغية بين الناس لنزاهته، لكنه فيما يبدو تجاوز الخطوط الحمراء بإقامة الدعوى وإتهام رؤوس كبيرة في النظام فيما عرف بقضية الرشوة الكبرى في وزارة الصناعة!

في تلك الليلة من شتاء 1986، زار ملك الموت عم/ محمود الذي أمضى قرابة ثلاثة أسابيع في عنبر الجراحة، يتبادل الإشراف على حالته أطباء الباطنة والجراحة دون تقدم يذكر، فقد كان كبد الرجل تليف إلا قليلاً بفعل فيروس "سي" اللعين الذي استوطن جسد آلاف المصريين، وانتشرت عدواه بسرعة تثير التساؤل حول حقيقة مصدر العدوى به حتى صار يفترس الصغير قبل الكبير في مناخ تلوثت فيه المياه وأكياس الدم والذمم!

كانت حالة عم محمود روتينية في مجملها، لكن شخصيته جعلتها حالة ذات طبيعة خاصة، فهو شيخ لم يفارق كاكولته وزيه التقليدي حتى مات، له لحية بيضاء تحيط بوجهه الأبيض المستدير، وعينين ثاقبتين تغوصان في بياض مشرب بصفرة المرض القاتمة، ولم يكن أي منا يمكنه أن يغامر بالنظر إليه مباشرة لأكثر من ثوان، لأنهما كانتا ترفلان في بحيرة نورانية من طمأنينة الإيمان وتنفذان لكوامن النفوس، وتمتع الرجل بأبوة حانية أسبغها على الجميع، وداوم على معاونة الممرضات في متابعة علاج مرضى العنبر وفحوصاتهم ومواعيد عملياتهم، يسأل كل واحد عن أحواله بمحبة خالصة، وأنصب جل اهتمامه على فتيات التمريض، لأنهن في رأيه الأكثر تعرضًا للقهر، فبادلنه

أبوة بحب وحنوًا بمودة وسماه الجميع "بابا محمود"، وكان يرقد في السرير المقابل لسريره عم جرجس الضرير الذي يعالج من كسر بالحوض عولج بتثبيت جراحي إضافة إلى مضاعفات السكر بعد العملية، وحرص كلاهما على القراءة، هذا يقرأ آيات القرآن وذلك يترنم بترانيمه، هذا يضع المصحف وذاك يضع صورة البابا شنودة، وفرض أداؤهم لتلك الطقوس طابعًا نورانيًا على العنبر كله.

أحب الجميع بابا محمود وتنافسوا في التودد إليه وتلبية طلباته النادرة، إذ كان يتمتع بزهد النساك، واستحوذ على شعور طاغ بالألفة والإكبار له من الجميع، بينما كنت مأخوذًا بقدرته على تحمل الآلام الشرسة بقوة الروح التي شفت وزادها بهاءً صوته العذب في الترتيل، ورضاه بقدره، وإيمانه بأن مرضه اختبار عليه أن ينجح فيه بالصبر عليه، وكلما زاد ألمه انخفض صوت ترتيله حتى يصير همسًا ليعلو تدريجيًا، ربما مع دمعة تنساب على استحياء طلبًا للغفران.

في ذلك اليوم الأول بعد الحظر، انتهى ضجيج النهار وأقبل الليل بطيئًا، وبعد أن أنهيت المرور على الأدوار بوصفي النائب الإداري، عدت للسكن لأستلقي قليلاً تأهبًا للسهر، وامتلأ هواء الغرفة بدخان سجائري وشطحات خيالي، منصتًا للست تشدو برباعيات الخيام، وفجأة اقتحمت الممرضة نجاة الباب يسبقها صراخها ووقع أقدامها المهرولة عبر الممر، قفزت من سريري لباب السكن مستطلعًا الأمر، فإذا بها تولول: الحقنا بابا محمود بيموت، وما فيش ولا دكتور فيكي يا مستشفى لا تخدير ولا باطنة، والزميل

الوحيد الموجود طبيب أطفال يغط في نومه كأهل الكهف، جريت بسرعة لأجد الرجل ساكنًا يتصبب العرق البارد من جبينه ويبلل لحيته البيضاء في دفقات تزداد غزارة، وبقياس ضغطه وجدته مرتفعًا، وعضلات وجهه تتقلص من آلام بدا بوضوح أنها جلطة بالقلب، وإن لم تتوقف شفتاه عن التمتمة بآيات من سورة يس، أمرت بسحب عينة دم لعمل تحليل إنزيمات الجلطة، وسرعة إحضار أمبول مورفين أو بيتادين أو ستادول على أقل تقدير، وعمل رسم قلب وإحضار أسطوانة أوكسجين، وعادت نجاة يائسة لتقول: ما فيش ولا أمبول لا في العمليات ولا في الطوارئ!

ماذا أفعل ياربي، الألم الرهيب ممكن أن يؤدي لصدمة عصبية قاتلة، طلبت استدعاء د/ موريس اختصاصي القلب الذي يسكن قبالة المستشفى، حضر فورًا وأكد التشخيص بجلطة القلب، ووضع مخفضات للضغط في المحلول، بدأ وجه الرجل يبهت حتى اختلط بياضه بلون لحيته، والممرضات نجاة وسامية ودولت يسابقن الزمن للحصول على أمبول مورفين من أي أجزخانة دون جدوى، فقال موريس: ما فيش فايدة لو ما فيش مورفين ما فيش فايدة! وشرع في تنبيه عضلة القلب بجهاز الصدمات الكهربية بينما النبض يتراجع تحت يدي ويتباعد تدريجيًا في سباق غير متكافئ مع الموت، وصوت أنفاس الرجل يعلو متباطئًا مختلطًا بصوت تلاوته المتخافت لسورة الرحمن، ثم علا فجأة "فبأي آلاء ربكما تكذبان" نظرت إلى موريس هامسًا: لا بد من حقنُه بالأدرينالين في عضلة القلب، فقال في ذروة توتره: فلتفعلها إنت أنا مش قادر، خطفت منه السرنجة ورشقتها- بكل ما أوتيت من ثبات ورغبة في هزيمة الموت- مباشرة في البطين الأيسر والثواني

تمر منذرة بالنهاية، وما أن انزلقت وسكنت عضلة القلب المسكين ضغطت مؤخرتها دفعة واحدة ليسري الدواء إلى القلب، لكن بعد فوات الأوان، فقد فاضت روح الرجل!

أسرع موريس بعمل تنفس صناعي بالفم بالتزامن مع الضغط على القفص الصدري لتنبيه القلب حتى سمعنا صوتًا خيفضًا رائقًا يصدر من فم الرجل يحيط به زبد أبيض متمتمًا: لا إله إلا الله، مختتمًا صراعنا وصراعه، انتابنا ذهول من هول اللحظات التي بدت كدهر، لفظ بابا محمود أنفاسه الأخيرة مغمضًا عينيه نصف إغماضة تغشاه سحابة الموت التي لا يخطئها من خَبِرها، بينما تعلو وجهه ابتسامة لم نعرف من أين أتت ولا متى ارتسمت على وجهه الذي نفد منه أي أثر للحياة.

بكت سامية في صمت، وتعالت صرخات نجاة ودولت وانطلقتا تجريان يمنة ويسرة بلا هدف يتقافزن على السلالم بشكل هستيري وكأنهن من نساء قبيلة "الزولو" يرقصن رقصة الموت، غطيت وجه الرجل بعد قراءة الفاتحة على روحه مغالبًا شعوري بالقهر، وبدا موريس عبوسًا كما لم أره من قبل، يتملكه غضب ويأس قائلاً وهو يغادر: ليه؟!

لم تتجاوز سكرات الموت منذ بدأت آلام الجلطة سوى ساعة ونصف تقريبًا، خرجت بعدها من بوابة المستشفى مودعًا موريس- بعد أن كتب تقرير الوفاة- ملتمسًا هواء لا تملؤه رائحة الموت، مبتعدًا عن صرخات الصدمة وبكاء الخسارة، واستندت على سور المبنى محنيًا رأسي محاولاً إخفاء دموعي، ثم عدت مصدرًا تعليمات إنزال الجثة للثلاجة بعد ساعتين كما تقضي شروط إعلان الوفاة، وأبلغت مدير المستشفى تليفونيًا بالوفاة، وسجلتها في

دفتر الأحوال، ثم حملته تحت إبطي وبيدي فنجان قهوة يعينني على اجتياز ما تبقى من ساعات الليل.

ذكرت في التقرير أن الأعمار بيد الله ولا أحد يخالف موعده، لكن بابا محمود راح ضحية الصراع بين قسم الباطنة والجراحة كل يريد التخلص من مسئولية علاجه في مرضه الأخير، لأن القاعدة في مستشفيات التأمين أن يقلل كل قسم من عدد الوفيات لديه! حتى لا تتراجع تقارير الكفاءة السنوية للأطباء، التي يضعها الأطباء والإداريون في فرع القاهرة للتأمين الصحي، ولطالما كان "المنتفعون" وهو الاسم الرسمي لمرضى التأمين، عبئًا وصداعًا لكل طاقم العمل، فهم بالضرورة فقراء، وطلباتهم كثيرة ومصادر تمويل علاجهم محدودة، ومستشفيات الهيئة متهالكة، وجاء الحظر ليكشف مدى ترهلها حتى أننا لم نجد أمبول مورفين لإنقاذ الرجل، لنفاد أدوية الطوارئ خلال فترة الحظر!

صباح اليوم التالي رفض الزملاء التوقيع على تقرير الحالة اليومية الذي سجلته، ربما لقسوة وصراحة ما جاء فيه، وقال أمين خجلاً أنه يخشى عواقب التوقيع ولا يريد إدانة الزملاء، ساعتها بلغت قناعتي درجة اليقين أنه لا جدوى من بقائي في هذا المستشفى بعد اليوم، فقد استنفدت كل أساليب المقاومة والصبر، وباءت محاولة الإدعاء بأن كل شيء على ما يرام بالفشل، وكما قال زميل ببرود يليق بالوضع: دع الملك للمالك، ولاّ إنت فاكر إنك حتصلح الكون بتقريرك!! تاه غضبي في سفه الكلمات التي قيلت مؤكدة أن الموت علينا حق والراجل كان ميت ميت.

أتى موت الشيخ بعد ثورة الحجارة، ومن قبله موت خالي، وموت

الزعيم مغتالاً، وموت رفعت العبثي، كحلقة أخيرة في سلسلة من أحداث تلاحقت لتؤكد مدى البلادة التي لم يعد يضارعنا فيها أحد، نقِرُ بما يجري حولنا باعتباره أمرًا واقعًا لا نملك إلا قبوله ومسايرته، وهكذا كان عليَّ تحمل مسئولية التقرير وحدي، ولم يفتح السيد اللواء الطبيب مدير المستشفى ولو تحقيقًا داخليًا لمعرفة ما حدث بالضبط، ولا حتى أجرى مناقشة شفوية مع من حضروا الواقعة، بل قرر تمزيق صفحات التقرير التي كتبتها بخط يدي، وقام أحد مساعديه المخلصين، الدكتور / أبو الفرج - اختصاصي الجراحة ذو الباع الطويل في العلاج بالأعشاب والحجامة- بتعديل ترقيم الصفحات ووصف الوفاة بالطبيعية نتيجة هبوط مفاجئ في الدورة الدموية والتنفسية!

..

تبارى الموظفون والأطباء في استكمال الخطة "الحربية" لبيان أن كله تمام، وأن العمل في المستشفى يسير على خير ما يرام، استجمعت شتات نفسي، بينما عيون الجميع تنهشني في الطرقات ترقبًا لردة فعلي!

توجهت إلى الممر المؤدي لمكتب المدير محاولاً إخفاء بركان الغضب الذي ينفث حممه في وجه من أراه ليختفي في أقرب مكتب بعيدًا عني وكأني كلب أجرب، استقبلني المدير بابتسامة باردة جالسًا على مقعده الدوار، وعن يمينه كبير النواب الهمام د/ أبو الفرج يُملي عليه آخر جملة في التقرير البديل، وعلى المكتب يرقد ملف الرجل منتفخًا بنتائج التحاليل والأشعات وتذاكر العلاج وتقارير المتابعة! قلت:

تغيير التقرير مسيره ينكشف من اختلاف ترقيم الصفحات، ثم ماذا كتبتم عن محاولة إنقاذه، ماذا قدمنا له ساعتها، ودفاتر

العمليات والطوارئ خالية من أي دواء يمكن أن ينقذه؟ فرد بهدوء وثبات: حكاية الترقيم أمرها سهل وعالجناها فعلاً، مش كده ياأبو الفرج؟ يا الله وقّع يا راجل خلينا نخلص، لن تجد من يؤيدك في شهادتك، وستكون الوحيد الذي يتهم زملاءه، إنت أصلك مش فاهم حاجة لأنك ثورجي وواخد الأمور جد زيادة عن اللزوم، ثم إنت مش قلت إنك عايز تسيب المستشفى؟ يا سيدي ما عليك غير إنك تقعد في بيتكم أسبوعين في أسبوعين، وحيجيلك جواب إنهاء خدمة وإنت زي الباشا!

استحضرت طاقتي على كبح الغضب، وبعد توافد المشيعين لحمل جثمان الرجل في مشهد جنائزي بائس، سرت ببطء باتجاه غرفة المدير ثانية حتى خرج من معه، فأدرت ظهري لهم حتى لا يتوقع أحدهم نيتي بالدخول إليه، بينما ضربات قلبي تتسارع، وتراءت لي من النافذة المطلة على منوّر المستشفى أكوام القمامة والمخلفات البشرية من الأعضاء المبتورة والأورام المستأصلة على هيئة حيوان خرافي له مئة رأس، تتوسط كل منها عين جاحظة، ويتدلى منه لسان لزج تعلوه حبيبات لاقطة تهم بابتلاعي، وقلت لنفسي: لا بد أن أتخلص من تلك اللزوجة التي علقت بروحي في هذا المكان المُزري، استدرت واتجهت مسرعًا كالطلقة باتجاه غرفته حتى صرت قبالته وأغلقت الباب من خلفي، رأيته منهمكًا في حديث تليفوني ينهي به ترتيب أموره مع موظفي الفرع، ولما رأى نظرات عيني المتحفزة أنهى مكالمته وقال:

قررت إيه يا مولانا، وقفت أمامه في منتصف الغرفة أطلق عليه رصاص كلماتي الغاضبة: حان وقت الحساب يا سيادة اللواء، عايز أقول لك إنك جبان وخسيس، كل إللي همك الكرسي التافه إللي

إنت قاعد مستأسد عليه، لا يمهك مين يموت ولا مين يروح فطيس، أنا أقدر أقلع الجزمة وأديك بيها على دماغك وأقلب عليك المكتب إللي بتتحامى فيه. أصابه رعب حقيقي فقال مبهوتًا: حتضربني يا عزت؟ أنا برضه في مقام أبوك، ضربك لي مش حيرجع إللي راح، ومش معقول تخلي موت الراجل سببًا في هدم سمعة المستشفى على رؤوس العاملين فيه، إعقل يا ابني.

بدا لي كفأر لا يجد مهربًا من مصيدة غضبي الجامح وقلت: أولاً إنت مش زي أبويا ولا عمرك حتكون زيه، أبويا ما يرضاش بالتزوير، وثانيًا أنا يكفيني إنك قدامي زي الفار، ملعون إنت والمستشفى بتاعتك، مش حأوسخ إيدي بضربك، وليسامحني الله على قلة حيلتي حين استنجد بي الرجل وهو يحتضر، وليسامحني على الأيام إللي قضيتها بينكم أماطل عشان ما أسيبش المستنقع إللي كلكم غرقانين فيه، فلترتعوا فيه ما شئتم، أما أنا فقد آن أوان أن أنجو بنفسي منه!

انتهت إلى الأبد علاقتي بالعمل الحكومي، في المستشفى الذي دخلته مثقلاً بأحزان حب ضاع، لأخرج منه مثقلاً بألم العجز أمام أخطبوط اللامبالاة، ودخلت أوسع أبواب المجهول، يطاردني شبح الموت ساخرًا مني، وكأنني "هاملت" حين فجعته الخيانة، هناك في ميدان بركة الرطل التي جفت قضيت عامين إلا قليلاً، بينما هنا وهناك تكابر القاهرة في مقاومة الانهيار، ويكابد المصريون جميعًا من أجل أسطورة البقاء، فلم يعد إلا البقاء دليلاً على صلابة أحجار أسوارها، وجلَد أبنائها في مواجهة عناد الزمان، فقد تسلقت لبلابة الفساد شواهد القبور التي تحيط بأسوارها القديمة، واخترقتها من جهاتها الأربع عشوائيات البناء وفوضى أخلاق الفقر والزحام، في

مناخ خانق من أنصاف المتعلمين والجهلة الذين هبوا للدفاع عن دين صحراوي وافد علينا، وتحالف الفساد الحكومي مع التشنج الديني في ترسيخ اللامبالاة والبلادة، واستمسكت النخبة بأقصى درجات النفاق للحفاظ على مكاسبها الهشة!

كنا وقتها في أوج هوجة التسفير والترحيل لبلاد النفط، أو كما سماها رفقي الخروج الثاني للمصريين، وكان خروجهم الأول في الخمسينيات بعد مذبحة القضاء والإخوان، سافر الآلاف بعد تمثيلية ثورة التصحيح وطفرة البترول بعد حرب 73، وجمعوا هناك الأموال، ليعيدوا تدويرها في أسواق العملة والمضاربات في مصر، وعلى رأسهمَ الإخوان الذين خانهم أهلها – كما يرون- بتركهم يواجهون السجون والاعتقال، فاعتبروا مصر دار كفر! وفي نفس الوقت كان رجال المال والإقطاع السابقون في عصر ما قبل الثورة يدينون أهل مصر لأنهم ساهموا في تأميم الدولة لأملاكهم وأموالهم، بتأييدهم لناصر والاشتراكية، التي أتاحت لهم التعليم المجاني، وتوعدنا هؤلاء وأولئك بالحساب، ودفع أثمان جرائمنا في حقهم!

أمضيت ثلاث ساعات مع أمين أحدثه بما يفور به عقلي سخطًا على أحوالنا التي بلغت ذروتها معي في حادثة موت بابا محمود، فقال: هون عليك يا راجل إيه الغليان ده كله، يا إخي إحنا مش مسئولين عن الكون، فأجبته: أنا لا مسئول عن الكون ولا حاجة، كل الحكاية إني بأدوّر على مخرج من دائرة الإحباط إللي محاصراني، وبعدين يا عم أنا مسئولياتي كبيرة ومش ناوي أتخلى عنها، مشيرًا بسخرية إلى المارة من عباد الله بعد خروجنا من فندق

الكوزموبوليتان، يعني أسيب السناكيح دول لمين؟!

بعد عودتي ليلاً للبيت، وقفت أمام المرآة متسائلاً: إيه الخطوة الجاية يا بطل، بترت علاقتك بالحكومة بعد ما بترت علاقتك بهناء، وبقيت في الفراغ، قول لي بقى حتواجهه إزاي؟ متهيألي إنت محتاج راحة عشان تستعيد قدرتك على المقاومة، توجهت ظهيرة اليوم التالي إلى مقهى البستان مستمتعًا بنهار شتوي صاف، ومع فنجان القهوة استرخيت في انتظار أول الوافدين فكان الصديق فادي، حياني قائلاً بابتسامة خبيثة: سلام يا أخ، فرديت: أهو إنت إللي أخ وستين أخ كمان، هي ناقصة تبتديها بالشتيمة، رد متعجبًا: ليه كده بس يا أبو الدكاترة؟ ما إحنا برضه كلنا إخوة.

. يا أخي ملعون الإخوة على الأخوات والكتانات إللي جلدهم تخين والبرود عندهم بزيادة، يا واد يا أسعد هات قهوة للباشمهندس عشان يظبط دماغه، فرد أسعد وكان متابعًا للحوار: عيب كده يا فادي بيه ده مهما كان دكتور، وممكن يعملها معاك ويكشف عليك، يبقى ساعتها إزي الحال؟ ضحك فادي وقال: الله هي إيه الحكاية بالظبط؟ التفت إليه وقد حطمت قلاع سخريته المعتادة وقلت: أبدًا يا عمنا لا حكاية ولا رواية، إنت عارف إن أنا مش أخ، لا أنا ماسك سبحة ولا مربي دقني ولا لابس جلابية قصيرة، ثم أنا كمان مش انفتاحي، وحبيت أنبهك عشان لامؤاخذة تختار ألفاظك.

انضم إلينا رفقي، وبعده جاء رؤوف مخرج المسرح الشبيه بالسحلية بحركته السريعة الناعمة، وكلامه السريع سرعة طلقات الرشاش الآلي، ضحكنا معًا، وتدخل رفقي في استطراد مبدع: صحيح يا باشمهندس، اليومين دول أخ دي بقت شتيمة، خصوصًا

كله دلوقت بيربي دقنه ويلبس جلابية ويمسك سبحة، المصريين لما سافروا رجعوا لنا في الآخر بالتكفير والجلاليب وموضة الإخوة والأخوات!

اتسعت الجلسة، وتحلق حولنا قشالة الشاعر ابن المنصورة، وباهي إدريس المترجم، وفادية الحمصاني الصحفية بالقطعة، وهنية بنت المنصورة التي تعيش خيال وتهويمات الحشيش والأفكار الوجودية، وكأن رفقي قد صار شيخًا لطريقة من الطرق الصوفية، تأملته صامتًا حتى أنهى جدله وسألته: وإحنا يا عم رفقي، إللي ماخرجوش ولم يسعوا لخروج، حنستمر في الفرجة على الكوميديا السودا دي لحد إمتى؟ وبما إنك متفرج قديم، ليه بقى بيسموا الحرامية الكبار بتوع الانفتاح قطط سمان؟

اتسعت ابتسامته وقال: طبعًا عشان بياكلوا الفراخ إللي زينا! فأردفت: لا، أنا بتكلم جد. فكر قليلاً ثم أومأ قائلاً: بصراحة السبب مش معروف لكن فيه تفسيرات كتير، تفسير ساذج بيقول لأنهم زي القطط بياكلوا وينكروا، أو لأنهم بسبعة أرواح زي القطط، يعني تلاقي الواحد فيهم عامل محارة، وسمسار أراضي، وتاجر شنطة، وبيسلِّك بضايع في بورسعيد في أوقات الفراغ، وفيه تفسير تاريخي بيقول إن القطط رمز فرعوني وأجدادنا كانوا بيتفاءلوا بيه، والتفسير الشعبي وده له وجاهته برضه، بيقول إنهم قطط من حيث إنهم عايشين على دم الغلابة، أمال يعني تفسر إزاي إن موظف كحيان وعدمان يعمل جمعية عشان يطلع بورسعيد يشتري شوية حاجات مالهاش لازمة أصلاً من محلات القطط إياهم؟ ولما ييجي يعدي بيها يا ولداه من الجمرك يقابله

زبانية ينهشوا لحمه ويفتشوه ذاتي، عشان يتأكدوا إنه مش مهرّب ساعات ولاّ فانلات "مونتايجو"، وبعد ما يدّفعوه الفردة يرجع فرحان بشوية الهلاليل إللي جابها!

كان رفقي بالطبع يشير للمنطقة الحرة ببورسعيد التي أفتتحت في 1976، والبطاقات الاستيرادية التي حصلت عليها الراقصات وأعضاء مجلس الشعب وأصحاب الحظوة لاستيراد البضائع – بدون جمارك– التي تعود على صاحبها بالملايين، وتواصل الحديث الساخر بعدها حول نتائج الانفتاح على المجتمع كله، إضافة إلى تجار الشنطة الذين يسافرون لشراء بضائع من الماركات العالمية (الهفأ) وإعادة بيعها في المحلات بأضعاف ثمنها، إلى جانب السوق السوداء للعملة التي كان يأتي بها العائدون من الخليج، والتي سيطر عليها الإخوان وكبار رجال الدولة!

فشل أبي وابن عمي وأخي حمدي في إقناعي بالعودة للمستشفى وأن يثنوني عن عزمي على الطلاق البائن مع العمل الحكومي، بعد أن قلت بحسم: سأفقد آدميتي في هذا المكان الردئ، ومقابل كام؟ مية وخمسين جنيه عُمي ما يكفوش تمن القهوة والسجاير، ورغم أنهم عددوا لي مخاطر الخروج من جنة الحكومة، إلا أنني نظرت إلى أبي الذي أفنى عمره في الحكومة، وأخي التكنوقراط، وابن عمي الذي استقال من الجيش بدعوى الهجرة لأمريكا أرض الأحلام، وقلت: أنا عارف إن أمي منتظرة نتيجة الجلسة دي، أنا حاعفيكم من الحرج معاها، شنطتي جاهزة وأنا خارج ومش راجع!

لم يملكوا أمام كلامي إلا بعض كلمات إشفاق مقتضبة من أبي

الذي تمتم في أسى: يا ابني صدقني مفيش حاجة حتتغير في البلد دي، ومش حينوبك من ده كله إلا البهدلة، الواقع إللي أنت بتتمرد عليه مش حيتحرك ولا سنتي واحد، وعلق ابن عمي محمود: قرارك في إيدك يا عزت وأنت مسئول عنه، أما حمدي فأعلن باختصار: مفيش فايدة إحنا بنضيع وقتنا على الفاضي، وخرج لأمي ليقول لها: ابنك عنيد ومفيش فايدة فيه، خلّيه يدفع تمن عناده، طالما ساب البيت ما حدش له كلام عليه.

انطلقت إلى المجهول، وجلست في محطة مصر بلا خطط، ثم عقدت العزم على زيارة سامي- العضو المؤسس بشلة الوطاويط الذي عاد بعد عشرة أعوام من الغربة في إيطاليا ليتزوج ابنة شيخ البلد في القصاصين ويستقر هناك- وعندما رآني أمام باب بيته تلقفني بحرارة الصديق المُحِب وقال بعد أن تناولنا إفطارًا شهيًا: خير يا عزت؟ أنا تحت أمرك، أجبته بعد أن حكيت تفاصيل ما جرى: كل الحكاية حاأقضي معاك يومين أَلِم فيهم نفسي، وبعدها يحلها ألف حلاّل، وصحبني بعد الغروب لأمتع نظري بالخضرة الممتدة مرصعة بالنخيل وأبراج الحمام وأشجار البرتقال، بينما سكان القرية الموغلون في الكتمان يلقون علينا التحية العابرة، واستغرقنا في تأمل المشهد الرائع للريف منصتين للشيخ صابر حماه وهو يحكي لنا حكايات الأرض والنخل والبشر.

في صبيحة اليوم الثالث من إقامتي ركبنا سيارته ليوصلني إلى مدينة الإسماعيلية، حيث كنت على موعد لإجراء مقابلة شخصية أملاً في العمل طبيبًا بهيئة قناة السويس، اطمأن على إقامتي بفندق مناسب ودعا لي بالتوفيق، وفي الصباح التالي ذهبت لإدارة

شئون العاملين بالهيئة مبكرًا، فإذا بجميع المتقدمين للوظيفة قد سبقوني إلى هناك، وانتظرنا كلٌ منا يُمني نفسه بالفوز بالوظيفة دون غيره، وجاء دوري بعد صبر طويل استنفد قرابة نصف علبة سجائر وعددًا لا بأس به من الابتسامات المتبادلة غير المبررة بيننا ونحن نتبادل ثرثرة لا معنى لها.

دخلت حجرة الاستقبال، وتأملت المكان، لا يتعدى شكله أي مكتب لموظف عادي بهيئة البريد في حي متواضع، وقد جلس فيه ثلاثة رجال في كامل هيئتهم، تسبقهم بطونهم المنتفخة ووجوههم المتجهمة التي تثير في النفس انقباضًا لا لبس فيه، ما ينبئ عن فداحة تلك المواجهة في مشهد عبثي أقرب لمشهد في مسرحية ما لـ "بيكيت"، وقد تدلت فوق رأسي – جالسًا على المقعد المقابل لمكتب الثلاثة- لمبة فقيرة من السقف العالي، بالكاد تضئ الغرفة التي أغلقوا نافذتها الوحيدة، وإلى جواري دولاب أكثر فقرًا يعلوه جبل من الملفات، كدت أضحك وأنا ألملم شطح تأملي بينما رئيسهم الذي توسطهم وكان أقلهم احتفاظًا بخصلات شعره الذي اختفى عن معظم مساحة جمجمته المستديرة بشكل مضحك، تعلو عينيه نظارة سوداء كالحة، وهو يقلب أوراقي الموضوعة أمامه بلا مبالاة ثم بادرني: أين كنت تعمل من قبل؟ أجبته: في التأمين الصحي. ولماذا تركته؟ لم أستطع التواؤم مع نظام الإدارة وطبيعة العمل فيه. وماذا تظن في نظامنا هنا بالهيئة؟ رديت بثقة لا داعي لها: كل خير إن شاء الله، ولو تكرمت سعادتك توضح لي نظامكم، وتحسست جيبي لأطمئن على كروت التوصية الثلاثة- أحدهم من أخي اللواء بالمباحث العامة، والثاني من جاري مساعد وزير الدفاع للشئون المالية، والثالث من ابن عمي الضابط بالمخابرات-

فقال السيد غليظ الهيئة: العمل معنا له شروط:

أولاً ستكون تحت الاستدعاء 24 ساعة يوميًا، والإقامة حتكون في أحد مساكن الهيئة سواء في بورسعيد أو بورتوفيق أو الإسماعيلية، ولن يكون لك الحق في إجازات أو منح تفرغ لإتمام دراساتك العليا، والمرتب لن يتجاوز 250 جنيهًا بالبدلات، وأجازتك السنوية شهر بما فيها العارضة إيه رأيك؟! فقلت ببرود: سيدي أنا عارف إن المقابلة دي تمثيلية وتحصيل حاصل، أكيد إنتم عارفين إللي حيتعين وزمانه اتعين خلاص، صحيح أنا عملت حسابي وجايب معايا كروت توصية- أخرجتهم من جيبي وقمت بتمزيقهم بهدوء متجهًا إلى الباب- وفي منتصف المسافة وقفت وقلت: الحقيقة شروطكم لا تناسبني إلا لو وعدتوني بالجنة، وطبعًا الجنة مش عندكم، سلام يا أساتذة!

خرجت متعجبًا من مهارة اللعبة التي يمارسها المجتمع مع السُذج امثالي، الذين تقذف بهم الأحلام دون سند من نفوذ أو حيثية في أتون الوهم، والتهم الموقف ما تبقى لي من فتات التفاؤل! لكنني قررت البقاء ليلة أخرى للتخلص من آثار هذه المقابلة العبثية، درت في الشوارع النظيفة حتى من البشر، تحف أرصفتها أحواض زهور وأشجار باسقة، بينما بعث فيّ منظر البيوت ذات الطابقين بطرازها الإنجليزي وأسقف القرميد الحمراء المائلة، تحيط بها حدائق صغيرة تبدو للمارة من فتحات الأسوار الخشبية، المطلة على مشهد صاف من زرقة مياه القناة على الضفة الأخرى من الطريق، شعورًا بالبهجة كنت في حاجة إليه، أضناني البحث عن مكان مفتوح لاستقبال زبونًا يريد فنجانًا من القهوة، وفي النهاية أبصرت مقهىً وحيدًا له أبواب خشبية مفتوحة

على استحياء، يتميز بالنظافة والكآبة معًا، شربت قهوتي متشاغلاً عن الزبائن القلائل ذوي الوجوه الباهتة الذين جمع بينهم صمت مكين، بالنظر إلى الجريدة حتى أتممت قهوتي وخرجت مسرعًا، وقررت أن أغادر البلدة بأكملها بأسرع ما يمكنني.

عندما وصلت إلى موقف عبود بالقاهرة قفز السؤال: أين سأقيم؟ فقد فشلت خطة العمل والإقامة خارج القاهرة، وها هي القاهرة موحشة متوحشة، إلى أين تذهب يا حلو؟ نزلت من السيارة في الموقف بحي شبرا الذي قررت أن يكون محل إقامتي، وكنت في حاجة إلى بداية حتى يتسنى لي استئجار مقرًا لسكني، وساقتني قدماي لمقهى الأنوار بمنية السيرج، وكنتِ أتردد عليه للقاء شلة شبرا أيام زياراتي الأسبوعية لمنزل هناء بحدائق شبرا، ولحسن الحظ وجدتهم جالسين يتوسطهم سعد الفيشاوي زميل الدراسة ابن دمياط ودينامو الشلة، استقبلوني بحفاوة وبعض من الدهشة لما رأوا حقيبتي إلى جواري، شرحت لسعد في عجلة حكايتي، فعرض عليَّ الإقامة معه في شقته بشارع عبد الحميد الديب حتى أدبر أموري، ومن ثم ذهبنا معًا بعد عشاء سريع، وعشت معه قرابة ستة شهور كلها شقاء، وإن تخللتها ساعات قليلة من المتعة جمعتني بالشلة، وبقى الأمر الذي يحتاج إلى حسم بلا حسم، كيف سأعيش بلا عمل، بلا حبيبة، بلا مأوى حقيقي؟ في محاولة مستميتة للوصول إلى حالة من السلام مع النفس ورؤية الخطوة القادمة بشيء من الوضوح.

توزع يومي خلال تلك الفترة ما بين تخزين ما يكفي من مياه- التي لا تصل للحنفيات لأكثر من ثلاث ساعات ليلاً- وتدبير ما

يكفي لسد الرمق من عملي بمستوصف في ميدان فيكتوريا، إضافة لعملي صباحًا مندوبًا للمبيعات في شركة تبيع برامج تعليم ذاتي للغات، مع قليل من تسكع في وسط البلد عندما يتيسر الحال! بدأت أزور أبي في مقهاه بعد انقطاع طوال ستة أشهر، وكان قد استسلم لقراري وتساءل يومًا- بينما كنا معًا في جلسة صفا بمقهى جروبي- ربما كنت على حق في قرارك، مش دايمًا الكبار هُمَّا إللي صح، ربما استطعت تحقيق أحلامك، لكن أوعدني إنك لو اتجوزت ما تخلفش عيال في البلد دي، أنا ظلمتك دون أن أقصد فلا تظلم أنت أبناءك القادمين!! فزعت لما قاله وسألته مُروعًا: بتقول إيه يا حاج مش عايز تشوف ولادي؟ إنت ما بتحلمش برؤية أحفادك؟ أجاب بنرة حزينة: صدقني مش ممكن تعرف مدى شوقي لحفيد من صلبك، لكن بجد أنا عايزك تنجو من بلد لا أمل فيه، فاهمني يا ابني؟!

نوسة

انتقلت أوراقي- التي تقدمت بها لمنحة السلام- من القطاع العام إلى القطاع الخاص بعد تركي مستشفى التأمين، ومعها انتقل الإشراف عليها من سمية بنت حي الشرابية إلى فردوس بنت حي الأميرية، ومنذ اللحظة الأولى لرؤيتها لم تغب صورتها عن خيالي بشعرها المنساب وعيونها المكتحلة بلون الليل، ووجهها المستدير ووجنتيها الممتلئتين حنوًا ونضارة، وشفتيها اللتين تهمسان بالكلمات همسًا.

صرت أتردد على المكتب مرة أو مرتين أسبوعيًا متذرعًا بالسؤال عن مصير البعثة لرؤيتها، بينما أوراقي تتنقل ببطء من

إدارة البعثات إلى المجلس الأعلى للجامعات إلى المكتب الثقافي بواشنطن ثم العودة بحثًا عن موافقة هنا أو توقيع هناك، وكنت أسأل ساخرًا: فينك يا أوراقي؟ يا ترى إيه إللي جرى لك؟ تلاقيها تاهت يا ولداه في المكاتب ولاّ غرقت في المحيط! ثم بعد مماطلات لا حصر لها فاجئتني قائلة: بصراحة الأمور لم تتقدم ولا خطوة واحدة، وهناك اتفاق ضمني بين البعثات والمجلس الأعلى على ضرورة مد جسور للتواصل بين المبعوثين حتى يصلوا إلى قدر من الانسجام قبل سفرهم!!

نظرًا لغرابة الكلام أجبتها: إيه العبث ده؟ إمتى وإزاي وليه المبعوثين يتقابلوا ويحصل بينهم تجانس، قال تجانس قال! أجابت بهدوء: عمومًا حنتصل بيك إذا جدّ جديد. كنت في كل مرة أنوي أن أدعوها خلسة لحديث خاص في أي مكان، بعيدًا عن المكاتب المتلاصقة والعيون المتلصصة وفوضى المترددين على المكتب، لكني كنت أجلس كل مرة على الكرسي الوحيد المتاح مضطرًا لمجاملة هذه وترضية تلك من الموظفات، منتظرًا لحظة لم تأت أبدًا أقدم فيها على خطوتي، لهذا بمجرد أن قامت لتصوير بعض الأوراق، تربصت بها في الممر عند عودتها لمكتبها وباغتها قائلاً:

بالله عليك يا آنسة إيه حكاية التجانس دي، دا كل واحد فينا ما يعرفش التاني أصلاً، إيه رأيك يا بنت الحلال، نبدأ أنا وأنتِ في التجانس وبعدين يحلها الحلاّل؟ أجابت بارتباك وضح في اندفاع الدماء إلى وجنتيها مما أضفى على سُمرتها بهاءً وسحرًا: قصدك إيه؟ فقلت: قصدي إني حإتصل بيكِ من البيت ونتفق على التفاصيل، وانسحبت بدون أن أعطيها فرصة الرفض أو القبول،

وإن كنت أظنها تمتمت بعدم ممانعتها.

أدرت قرص الهاتف وأنا أتأمل الأرقام وأملأ عيني منها بوصفها مفتاحًا كوديًا لعالم أوشك على الدخول فيه، وجاءني صوتها متحفظًا مرتبكًا برغم الجهد الذي بذلته للمحافظة على تماسك نبراته فقلت لها: إيه رأيك نتقابل بره المكتب، عندي كلام عايز أقوله لك لا يحتمل جو المكاتب، وأنا وإنت ناضجين بما يكفي لنكتشف معًا إذا كان تعارفنا وتقاربنا يستحقان أم لا، كل إللي بأطلبه فرصة، بعيد عن عيون زملائك وتلصصهم وبعدها تقيّمي المسألة براحتك وتقرري، ممكن تديني الفرصة دي؟

جلست قبالتي في مقهى جروبي فبادرتها: أكيد سألت نفسك يا ترى الدكتور ده عايز مني إيه؟ وطبعًا إنت مش حتقبلي بعلاقة للتسلية وتضييع الوقت، طبيعي أي بنت محترمة لابد يكون الارتباط مبررها الوحيد عشان تتقابل مع حد، ولازم إللي في مكاني يقدم الدليل أولاً على أهليته للارتباط وجدية العرض إللي بيقدمه، مش كده برضه؟ وأردفت دون انتظار لتعليق منها: أنا ما عنديش اعتراض على المبدأ، لكن لو بدأت العلاقة بينا على الأساس ده مش حينفع، بالعربي كده لما تعرفي ظروفي مش حتلاقييني مؤهل للجواز، أنا باقترح عليكِ نبدأ بالتعارف كأصدقاء، إذا أرواحنا اتلاقت ولقينا إللي يجمعنا إنسانيًا، العلاقة حتنمو لوحدها وأوعدك إني مش حأحملِك حاجة فوق طاقتك، ومش حأخدعك، وحيفضل من حقك تقرري نستمر ولا نفضها سيرة في أي وقت تختاريه، قلتِ إيه؟ بدا كلامي مقنعًا ونبرة صوتي صادقة بما يكفي أن توافق على تبادل الاتصال واللقاء.

وعندما أدرك أمين وصقر من كلامي عنها أني على وشك الوقوع في غرامها، وأنها على وشك الوقوع- كما يتصورون- في شِباك هوايا، فاجأني كلاهما - وكأنما اتفقا مسبقًا على الكلام - برفضهما محاولتي التقرّب إليها، وقال أمين إنه عرفها أيام تقديمه لبعثته إلى أمريكا، وأضاف بحسم: حرام عليك، دي بنت ناس وملهاش تجارب، ولاّ إنت مش مكفيك النسوان إللي بتتصرمح معاها، على الأقل إللي عرفتهم كانوا من النوع إللي يناسبك، وما فيش واحدة منهم هجرتك قبل ما تعملها إنت وتخلع .. أصر صقر وأمين على تحذيري، حتى أن أمين هددني بلهجة أول مرة تصدر منه: اسمع إن جرحت شعورها أو كسرت قلبها تأكد إنك حتندم وقال متوعدًا: صدقني مش حتفلت من العقاب الإلهي لو غدرت بيها!!

أدهشتني لهجة التهديد وتصويرهم اقترابي منها نذير شؤم عليها، وقلت: حتى لو كانت بنت خام ونقية زي ما بتقولوا، مين قال إني ناوي على أذيِّتها؟ ولاّ الحب في نظركم خطيئة؟ أما أمركم عجيب والله، أنا نفسي إترددت كتير في الاقتراب منها، لكن عندي رغبة قوية في علاقة معاها، تجربة حقيقية تنشلني من العبث إللي أنا غرقان فيه، ولا إنتوا شايفين إن مش من حقي أكون بني آدم طبيعي؟ ويكون في حياتي واحدة، ولو لمرة واحدة ما تقبلش بكل إللي أقوله أو أعمله، واحدة ما تتحججش بالفضيلة وتماطل لحد ما أبدأ أزهق وأنوي الهرب منها تقوم مِسلِمة لي من غير شروط، مليت يا جدعان من المتحررات، والمتسامحات مع جنوني، إللي بيشدهم تمردي ولا مبالاتي باعتباره فولكلور، أو إللي عرفوني بوصفي صعلوك مثير للفضول، خوفكم المبالغ فيه على فردوس فيه سوء فهم وسوء ظن مسبقين، أنا مش المستهتر إللي

إنتوا شايفينه وبس، ده تسطيح واستسهال في الحكم، أنا مش شايفني الوحش إللي لازم ولاد الناس يبعدوا عنه باعتباره رجز من عمل الشيطان، أنا من يوم ما سبت هناء قلبي عامل زي الخرابة المهجورة، ووجود واحدة زي فردوس ممكن يدِّي لحياتي معنى، بالراحة عليّ يا جماعة الخير، وعمومًا أنا شاكر لكم إنكم وضحتوا لي قد إيه أنا بشع! بدت عليهم الرغبة في الاعتذار وقال أمين: يا عزت إنت حر، بس راعي ضميرك معاها، دي بنت ناس وقلبها أخضر، يعني إنت إللي حتسوق يا صاحبي، حاول توصل بيها لبر الأمان، ماشي؟ ماشي يا عم الشيخ.

أدخلتني فردوس عالمًا من صفاء النفس، وأزالت عني غيوم قصتي مع هناء، عدت أرى الصباح مبهجًا برائحة الندى، وعاد الليل يأسرني بحلاوة أصواته الهامسة، وعدت استمع لموسيقى الكون تنساب مع ضوء القمر يفيض ألقًا، وعندما بلغ حبي لها حد اليقين، طلبت مهلة للتفكير، فقلت لها: خدي وقتك، بس لازم يكون عندك في الآخر إجابة على سؤال مهم، هل حبك وإيمانك بي يكفيك لتقضي بقية عمرك معي من غير شروط؟ ولو كان جوابك أيوه حتلاقيني في انتظار البشارة منك.

تركتها لعزلتها تناجي نفسها وتفكر بحرية، بينما غصت أنا في ذاتي محاولاً استشراف الخطوة القادمة، ثم التقينا بعد فترة لم تطل على ضفة النيل الذي طالما احتوانا في بهاءه وحفظ أسرار نجوانا، تأملتها وهي تبثني البشارة وعيناها تفضح حبها الغامر فقلت: آن لنا أن نبني حلمنا وحياتنا معًا، فسألت: مالك خاسس كده ليه؟ فأجبت: ما تشغليش بالك أنا كويس، وأكيد حأبقى أحسن

ما دمتِ معايا، أوعدك حأوجد صيغة لحياتنا مافيهاش أوهام، وحأسوي حساباتي مع الدنيا، وسأكون ما أريده لنفسي لا ما يريده الآخرون لي، وطالما إنت معايا حأواجه الدنيا كلها من غير خوف ولا قلق، إحنا زرعنا بذرة المحبة، وأكيد حنجني ثمارها.

تم زواجنا في العام الثالث للقائنا، بعد أن صرت طبيبًا بشركة استثمارية براتب ثابت، إضافة لما كانت تجود به عليَّ العيادات التي أتردد عليها، وقضينا عشرة أيام عسل في اسكندرية، وأنعم الله عليّ بشعور جديد لم أعتده طوال حياتي، العودة إلى بيت تملؤه السكينة وتنتظرني فيه امرأة محبة آنس لكلامها وتأنس لكلامي، أحكي لها وتحكي لي.

الواقعة

أفقت في ذلك اليوم غارقًا في بحيرة من العرق، حاصرت جسدي بلزوجة، وغطت عينيّ بغشاوة، وانتابتني رعشة لم يبددها سوى استسلامي للماء المنساب من الدُش يزيل عني غبار الليل العالق بروحي، شربت قهوة الصباح بفتور، وخرجت مثقلاً بخوف مبهم، وشعور طاغ بالسأم من دوامة العمل العبثية، سرت بخطى متثاقلة حتى وصلت لمحطة الأوتوبيس، منتظمًا في قافلة تقف بانتظار حافلة بالكاد يمكنها أن تسع ركابها، في رحلتهم اليومية لمقار أعمالهم أو لقضاء حاجاتهم. شدني مشهد المنتظرين من الرجال والنساء معلقة عيونهم برقم باهت في مقدمة الحافلة التي ينتظرونها متحفزين، ربما أمكنهم أن يجدوا موقعًا لقدم فيها، وربما ظلوا عالقين بالسِلّم، وإن حالفهم الحظ استطاعوا اختراق الأجساد المتلاحمة، وقد ينالون شرف الجلوس على مقعد خيالي شاغر. تفاصيل لم تشغلني كثيرًا بقدر احتسابي لعذاب الطريق الطويل الذي عليّ أن أقطعه، حتى لو كسرت حدته بالتوقف للراحة بالمقهى، في رحلتي إلى قلب الصحراء بمدينة السادس من أكتوبر، حيث صرت طبيباً بمصنع الزجاج.

عندما بلغت ممر البستان، ووفقت في الحصول على كرسي متماسك قليلاً من كراسي المقهى المتهالكة - التي تتربص فيها

رؤوس المسامير بسراويلنا لتنتشها، ناهيك عن السقوط من فوقها فجأة بفعل أحد سيقانها المتآكلة- ألقيت بجسدي على الكرسي متلهفًا لفنجان القهوة المعتاد، محاصرًا بضجيج ورشة إصلاح السيارات في شارع البستان السعيدي المزدحم في مثل هذه الساعة من النهار.

على مرمى البصر لم يكن هناك شيء غير مألوف، جلست متململاً في انتظار صديق ما يأتي لنتمم معًا طقس الملالة بالثرثرة حول أمور قتلناها جدلاً، أو بحديث ما نصب فيه لعناتنا وسخطنا على كل شيء، وهو ما نبرع فيه نحن المثقفين، ربما لأنه يشعرنا أننا أكثر تحضرًا وإنسانية - لا أدري كيف- عمن سوانا، ولعلي كنت في هذه اللحظة أكثر احتياجًا لصديق مثل فادي يمكننا معًا ممارسة سخريتنا العبثية، لكن لم يظهر أحد، وخلا المكان من رواده التقليديين في هذا النهار الثقيل في أول يوم من أغسطس. انهمكت في تناول القهوة متأملاً الممر أمامي، تظلله الشجيرات التي تتوسط الجالسين وتحتويهم، بينما الشارع يضيق بالمارة والسيارات الرابضة على جانبيه، تقطعه السيارات بصعوبة وبطء لإتمام مناورة المرور دون احتكاك بسيارة واقفة، أو طرف ثوب لفتاة تتهادى لا مبالية بزحام الشارع، أو ببائع جلقات السميط تتمايل فوق رأسه في رصتها المتقنة حول العِّصِي البارزة من حواف سلته.

لم يكن المشهد مثيرًا للانتباه، اللهم ذلك الهدوء المكين الذي استبد بالحركة فيه وخيم على الجالسين والعابرين، حتى أن الكل بدا مطأطيء الرأس، لا يتبادل حديثًا مع جار له ولا حتى همسًا. تجاهلت الصمت الذي غلف كل شيء، وكبحت شعورًا بالتوجس يجثم على صدري، مكتفيًا بما نالني من صهد الحر والرطوبة

الخانقة، وغادرت المقهى متباطئًا، وواصلت رحلتي حتى نهاية شارع الهرم حيث ركبت سيارة الميكروباص التي انطلقت من فورها على طريق الفيوم الصحراوي، حتى وصلت إلى باب المصنع القابع على حافة المدينة التي زرعت في قلب الصحراء.

دخلت من البوابة رأسًا إلى عيادة المصنع، ألقيت بجسدي المتعب على كرسي المكتب، محاولاً التخلص من أثر الرحلة، وازدردت كوب الماء المثلج الذي يحرص الممرض العجوز على وضعه أمامي، وشرعت في القيام بمهمتي مع العمال، وبمجرد إنهائها توجهت للإدارة لإنجاز الأمور الروتينية من توقيعات ومراجعة للفواتير العلاجية، وبادرني مسعد محاسب الشركة، الذي تجاوز الأربعين من عمره وتساقطت غالبية أسنانه بفعل مرض السكر وزواجه من ثلاث نساء قصموا ظهره الذي بدأ مبكرًا في الانحناء:

شفت اللي حصل؟ تعجبت من طرحه مثل هذا السؤال عليّ أنا بالذات، فقد كان شخصًا لا يثير اهتمامي ولم يسبق لنا تبادل أي حديث مهم، ألقى سؤاله بصورة مباغتة، والكل في المكتب في حالة ترقب مبهمة، وقد علت وجوههم مسحة من دهشة وبلاهة لا يوجد ما يبررها، فأجبته متهكمًا: وإيه اللي ممكن يحصل في البلد دي بالله عليك يا أستاذ مسعد؟ عندئذ تدخل عبد العليم مدير شئون العاملين- العائد بعد عشر سنوات قضاها في هولندا لينتهي به الحال إلى هذا العمل الروتيني الممل دون أن يبدي ضجرًا - قائلاً:

العراق غزت الكويت! أصبت ببلاهة عدم التصديق وقلت بعفوية: بتقول إيه؟ فقال: بقول لك الجيش العراقي دخل الكويت واحتلها بالكامل، الكوايتة صحيوا على صوت الدبابات في الشوارع، ولقوا العساكر العراقيين واقفين على أبواب البيوت، وسمعوا صوت

الرصاص من كل اتجاه، الراديو قدامك، اسمع بنفسك!

انتبهت للراديو الموضوع على مكتب مسعد على غير العادة، والدهشة لم تغادر الوجوه بعد، وتبينت أن الواقعة حدثت بالفعل، وإن كانت الأخبار مشوشة ومضطربة تحاول تفسير الأمر والتنبؤ بما سيحدث دون جدوى، ولاحت في أفق الغرفة نذر الشؤم التي ستحل بالمنطقة نتيجة هذا الفعل الفاضح في حق بلد يرفل من زمن على بحيرة بترول في وداعة وربما بشيء من بلادة.

إذن لم يكن الخبر دعابة ثقيلة أطلقها أحدهم، كعادة الناس كلما زادت رتابة الأحداث خصوصًا في آخر يوم عمل في الأسبوع، وبدأت أدرك سر غياب أخي حمدي- المدير الإداري للمصنع- عن مكتبه، حيث كان المصنع ملكًا لأحد كبار المستثمرين الكويتيين، بينما الجميع غارقين في حالة من الصمت الكئيب يتطلعون في وجوه بعضهم البعض بعيون زائغة، والعمل متوقف تمامًا، لا أحد يطلب شيئاً من آخر أو يناوله ورقة، أو حتى يبادله رأياً حول شأن من الشئون، حتى بدوا كمن يتابعون إنزال جثة هامدة إلى مثواها الأخير!

حال الصمت بيننا فلم ينطق أحد بكلمة، وانفردت بمقعدي إلى جوار السائق حتى وصلنا ميدان التحرير، وقد أنهكتني الرؤى التي مرت بخاطري طوال الطريق مختلطة بوجوه الناس في شارع فيصل، وحركتهم التي ظلت على حالها من الفوضى والكآبة منذ بداية النهار الثقيل، وانطلقت من فوري نحو المقهى فوجدته يغص بالرواد، يخيم على المكان غروب مشوب بحمرة ممتزجة باصفرار الترقب وغبرة الاضطراب، وقد أثارت "الواقعة" بطبيعة

الحال شهوة الكلام والتأويل بين الرواد، أطرقت متلقفًا قذائف التفسيرات، وسيل الاتهامات التي تناثرت في كل اتجاه دون أن تفلت منها جماعة أو حاكم أو بلد!

انفرجت أسارير الإعلام عن تفاصيل ما جرى، وانصرف الجميع لمتابعة الوقائع على شاشات التليفزيون، نقلاً عن قناة "سي إن إن" الإخبارية، الضيف الثقيل الذي هبط علينا من حيث لا ندري، وتسللت الأخبار من القناة إلى البيوت، جنبًا إلى جنب مع قوافل الهاربين من جحيم الغزو من الكويتيين، والمصريين الذين فروا بجلودهم من أتون حرب لا ناقة لهم فيها ولا جمل، واستحوذ الحدث على اهتمام الجميع، ولم يعد هناك حديث في بيت أو مقهى أو مقر عمل، وربما بين الرجل وزوجته في غرف النوم، يخلو من تعليق هنا او تفسير هناك، وانهالت التنبؤات من الجميع، كل حسب طاقته، وولدت الأزمة في الخليج الفارسي- الاسم الذي استخدمه الإعلام الأمريكي للخليج العربي - حالة من الترقب لم يفلت منها كبير أو صغير!

كانت الواقعة أكبر من قدرة أي إنسان على الصمت، وتوالت توابع زلزال الغزو المشئوم بلا اعتبار لصمت أو صخب، بداية بقرار الجامعة العربية الذي ألقاه علينا بصيغة تلقينية خبير القانون الدولي مفيد شهاب الدين، ليعلمنا ما لم نكن نعلم عن اتفاقية الدفاع العربي المشترك، لفتح باب الشرعية لاستدعاء الجيوش العربية وغير العربية في تحالف تقوده أمريكا لتحرير الكويت!

في غضون ذلك، فشلت الرحلات المكوكية للوسطاء من العرب والعجم في احتواء الموقف، ما أدى إلى هوس محموم بضرورة

التحرك، وحتمية التحالف بين دول العالم "الحر" لتحقيق مطالب "الشرعية الدولية"، ورغم كل الأسباب التي تتفق ومنطق الحق والعدل- حول مبررات تأييد العالم كله لشن هذه الحرب دون غيرها - بدا النفط مبررًا مقبولاً لتسارع القوى الاقتصادية والعسكرية الكبرى لحماية منابعه، وإن ظل مشهد وقوف العربي في وجه أخيه العربي شاهرًا سلاحه محيرًا وصادمًا في آن، وأطل السؤال: وما الذي دفع الأول أن يفعلها بالثاني باديء ذي بدء؟

احتدم الجدل بيننا – كما تقتضي عادتنا – وتناطحت الآراء بين مؤيد لصدام في غزوته الميمونة، وبين من أشفق عليه من هول ما ينتظره هو وشعبه وجيشه، الذي استنفدت قوته في الحرب الجنونية لثمان سنوات مع إيران، وكان سامي سالم، الكاتب المفوه ذو القامة واللسان الطويلين، مروجًا كبيرًا لخطورة الآلة العسكرية وجسارة القوات الأمريكية، وأطلق العنان لسخريته المعهودة من حديث "صدام" عن سلخ فروة رأس جنود المارينز مثلما فعل الهنود الحمر بالغزاة البيض، بالطبع قبل أن تتم إبادتهم!

أبهرنا سالم ومعه كثيرون، بحجم معلوماتهم عن تفاصيل القدرات القتالية للقوات الأمريكية، وكفاءة تدريب جنودها، وشرح لنا بالتفصيل ما يعده الأمريكيون لنا- نحن الجاهلين بقدر أمريكا - بينما كان أهل المقهى من بسطاء أدباء الأقاليم، والأجيال التي خاضت حرب أكتوبر، والناصريين والقوميين وأهل اليسار، وأهل الصعيد الطيبين في رأي سالم قومًا أصيبوا بداء الناصرية البطَّال، الذي جلب علينا هذا الطفح الشوفيني من الإيمان بإرادة الشعوب وأوهام حتمية انتصارها!

حارت الأقلام في وضع تصور لشكل الحرب المقبلة وطبيعة معاركها، في ظل تحالف دولي لتحرير بلد ربما لا تزيد مساحته عن مساحة شبرا الخيمة، بلد تركه أهله هربًا من عدوهم الذي تركوه لينال عقابه السرمدي على أيدي جنود المارينز الأبرار! وانهالت علينا تصريحات العالمين ببواطن الأمورتوضح طبيعة الحرب المقبلة، كجزء من التمهيد الإعلامي لها بحرب نفسية تحطم الثوابت، وتقضي على أحلام القومية العربية التي اغتالها صدام في وضح النهار، على مرأى ومسمع من الجميع! صور لنا هؤلاء الحرب القادمة –التي لم تشهد البشرية مثيلاً لها من قبل- حربًا الكترونية تدار بواسطة أجهزة الحاسوب، والتصويب فائق الدقة للصواريخ التي تعرف وجهتها بغريزة تم تلقينها لها من قبل!

رويدًا رويدا بدأت معالم الخديعة تتكشف، وتبين لنا أن أقدامنا تنزلق نحو هاوية لا ندري عمقها، وفي هذا الجو المشحون جاءنا – نحن المثقفين البؤساء- بيان عاجل تلاه علينا الروائي فتحي يوسف، حيث أسرّ إلينا، طالبًا منا همسًا عدم ترديد ما سيبوح به لنا حتى نفهم الحقيقة بلا مزايدات، وتلخص البيان في التهديد الذي أطلقه السفير العراقي للكتاب الذين لن يعلنوا تأييدهم للعراق في أم المعارك (الاسم الحركي الذي أطلقه الزعيم الملهم على الحرب المقبلة)، واستفسر بعضنا بسذاجة عن فحوى التهديد، فأجاب الروائي: الحقيقة، جناب السفير يملك صور الشيكات التي حصل عليها عموم الكتاب أثناء وفادتهم السنوية للقاء الزعيم في مهرجان "المربد" الثقافي العراقي السنوي، الذي كان يعقد لمناصرته في حربه على إيران، وقال إن عليهم الآن أن يردوا الجميل!

النبأ

بعد الواقعة، دفعنا الخواء الذي ملأ أرواحنا إلى أتون الكتابة، وساد غليان مكتوم حاولنا عبثاً تبديده في الحانات، ولم نعد نبرح كراسينا في ممر البستان إلا بصعوبة، ولا نتوقف عن الثرثرة إلا قليلاً، طالت بنا سراديب الجدل، وأحاطت بنا عناكب الجدب، وفي ظهيرة أحد الأيام عاد رفقي من عمله مع اليابانيين، وناولني عددًا لمجلة إنجليزية اسمها "نحن"، وأشار إلى قصة منشورة من تأليفه بعنوان "المهمة المستحيلة".

"كانت مهمة الفأر في القصة مستحيلة بالفعل، فقد فوجئ به بطل القصة ذات صباح، بعد أن انزلقت قدماه في زجاجة صغيرة - من زجاجات الخمر التي تقدم للمسافرين على الطائرات - ملقاة على مكتبه، لفت انتباهه وهو يقوم بحلاقة ذقنه ويتأمل نفسه في المرآة وربما يعاتبها، نباح الكلبة الأرمنت التي تؤنس وحدته عندما رأت الفأر الحبيس، ذهب يستطلع الأمر فرأى الفأر البائس قابعًا في قاع الزجاجة، تطلع إليه فوجده ضئيل الحجم، عيناه جاحظتان ذعرًا وفزعًا، ابتسم صاحبنا في وجه الضيف الذي انجرف في تلذذه بالخمر، فاستقر به المقام محاصرًا في القاع، وكلما حاول التسلق على الجدار الأملس للزجاجة انزلق ثانية!

أكمل ارتداء ثيابه، وتأهبه للذهاب لعمله، حائرًا يبحث عن طريقة

لمساعدة هذا المخلوق البائس الذي باءت كل محاولاته للخروج من الزجاجة بالفشل، وتساءل: يا ترى كيف يمكن لهذا الفأر النجاة من المأزق الذي وضع نفسه فيه؟ وبينما هو في حيرته، فوجئ بالفأر ينطلق من القاع لفوهة الزجاجة - في دفعة بهلوانية كما القذيفة وقد جحظت عيناه رعبًا ويأسًا- هكذا قفز قفزة بطولية لا تتناسب وضآلته، ليستقر به المقام وللأبد، رأسًا من النافذة المقابلة إلى عرض الشارع جثة هامدة!"

قرأ أصدقاء المقهى القصة، وأشعلت فينا جميعًا حماساً مذهلاً، وفجرت من داخلنا نبعًا من الأحزان رأينا فيها أنفسنا، حيث لعب الفأر أدوارنا في الحياة، من إحباط إلى إحباط، ومن فجيعة إلى فجيعة، ومن مأزق لآخر حتى النهاية الحتمية، واستلهم الشاعر وليد منير القصة في مسرحية شعرية من فصلين، وقام الحناوي بعمل كروكي للديكور والملابس، وشرع مخرج الثقافة الجماهيرية رؤوف في السعي لدى مسرح الطليعة محاولاً الحصول على موافقة الرقابة لتقديم النص، واتفقنا مع الممثل الراحل/ عبد السلام محمد الذي تحمس بشدة للقيام بدورالفأر.

كانت نهاية الفأر الدرامية جثة هامدة في عرض الشارع موحية بدراما الموت بحثًا عن الحرية، ونموذجًا للخلاص على نمط الأساطير الإغريقية بالخروج من القمقم - الذي وجد الإنسان المعاصر نفسه محاصرًا فيه- وبدا أن مصير الفأر الحتمي يطال كل الضعفاء والمهمشين إذا هم سعوا لخلاص من عجزهم وضعفهم.

ثم انطفأت سريعًا جذوة الحماس للعرض، وعادت زمرة المقهى تمارس صراع الديوك في حلبات الطاولة والجدل، نسخر من أنفسنا ونطلق القفشات والنوادر في جهات المقهى الأربع، بينما توالت بشائر الجحيم المقبل مع وصول حاملات الطائرات، والغواصات، والبوارج، والجنود، وتولت شبكة سي إن إن إصدار إشارات الحرب من قعقعة للسلاح ودق للطبول، وسخرنا من صور الجنود الأمريكيين بأجسادهم المعتنى بها، وعضلاتهم المفتولة، يطلون علينا من الشاشات وهم يمضغون العلكة، ويدبون على الأرض بأحذية صنعت لمواجهة كل الظروف الميدانية، وفجر مشهد استعراض حشود التحالف التي توافدت على مدى عشرة شهور عاصفة من التهكم من افتتان الجنود بقوتهم وقواتهم، بينما تسرب الخوف بصورة عفوية إلى قلوب الناس، وتأهب الجميع ليوم الحريق العظيم، وأتاني النبأ والمنطقة بأسرها تزداد اشتعالاً بالتنبؤات!

في طريق عودتي من عملي في قلب الصحراء ذات يوم شتوي بارد أواخر أكتوبر 1990، ألحت عليَّ رغبةٌ في العودة للبيت، لأغتسل من تراب الطريق ملتمسًا لقاء دافئًا مع زوجتي يمحو شعورًا بالشجن لم أدر مصدره! دخلت الشقة فوجدتها هادئة ومرتبة بعناية، ما أضفى علي شعورًا بالبهجة، ألقيت نظرة سريعة على اللوحات المعلقة على الجدران، مُقبِلاً في الخفاء الراقصات في لوحة "ديجا"، وملقيًا بالتحية على الطفل الجالس في حلته الحمراء متكئًا على مسند كرسيه الوثير، ولمحت عيناي لوحة القبطان في قمرته المتهالكة، ونظرة عينيه التي تبرق بالرضا والثقة، قابضًا بكلتا يديه على كأس النبيذ الأحمر، وقد امتلأ وجهه

بأخاديد وندوب الزمن الذي أمضاه بين البحار، بينما كانت غرفة الجلوس غارقة في سكون الغروب، سابحة في الزرقة الداكنة لبدايات المساء لا تبددها سوى بقعة الضوء الآتية من الأباجورة، ونوسة ترقد تحتها غافية في استرخاء، ابتسمت وبدت في عينيها لمحة من حيرة تحاول إخفاءها، قبلتني ثم استدارت لتعد لي ما آكله، استوقفتها مأخوذًا بالحيرة التي بدت في عينيها وسألت:

مالك فيه إيه؟ شكلك مخبية عليَّا حاجة. أجابت منسحبة في هدوء: أبدًا فرحانة إنك جيت، أسرعت بأخذ حمام دافئ، والتهمت وجبتي الساخنة محاولاً استشراف الأمر، جلست مسترخيًا مشعلاً سيجارتي ثم بادرتها متسائلاً: خير؟ إيه الحكاية؟ توترك واضح من رعشة خدودك وتردد الكلام فوق شفايفك، محاولة إخفائك القلق لن تفلح، بالله عليك قولي لي فيه إيه؟

ابتسمت وأجابت: ماشي، بس الأول إنت مستعد تسمع النبأ العظيم؟ فقلت: يبقى الحكاية فيها أنباء، بالله عليك إيه إللي ممكن يجرى أكتر من إللي جرى؟ ما فيش بعد إللي جرى مفاجآت، لكنها أصرت: لأ بجد مستعد؟ فأجبت وقد أنهكني الفضول: صدقيني أنا جاهز لأي خبر، ولو انطبقت السما على الأرض مش حتفرق، طولها زي عرضها يا بنت الحلال.

إذن، أيها الفارس الهمام، لقد تحدد موعد سفرك لأمريكا في المنحة التي انتظرتها طويلاً، عليك أن تكون هناك قبل 20 يناير! لم أنطق للحظات، وهالتني نبرة القلق في صوتها محاولة إخفاءها بإدعاء الفرح، أمعنت النظر في عينيها فلم أجد سوى لهفة لمعرفة موقفي من النبأ، وعندها أجبت:

يبقى ده الخبر إللي بتحاولي تخبيه، وأنا بأقول لنفسي مالها فرحانة كده ليه، أصل بصراحة مش فارقة قوي إني جيت بدري

يوم، والبيت على سنجة عشرة، وأنت عاملة زي وردة عايزة تفتح بس خايفة، بانت يا جميل، بلغني النبأ يا شهرزاد، وقبل ما يبوح شهريار بمكنونه قومي بقى اعملي لنا فنجان قهوة عشان نعرف نكلم زي الناس، وإن كان خيرًا فخير، وإن كان شرًا فلتذهب أمريكا وبعثتها للجحيم، قدامنا وقت نفكر براحتنا.

ألقيت بنفسي على الأريكة متأملاً رائحة تشي بذكريات بدأت تحلق حولي كالأطياف، واستحوذت علي رعشة شتاء بدأ بالكاد، وبرودة مجهول ينتظرني تسري في أوصالي وتدغدغ أطرافي المنهكة، وقبل أن أغوص في سفن التذكار دخلت تحمل فنجان القهوة لتستلقي بجواري دون أن ينطق أينا بكلمة، بالكاد لملمت شتات ما تبعثر في رأسي من أفكار محلقة كالنسور، اعتدلت في جلستي قائلاً بقليل من توتر لا يخلو من لهفة:

نبأ عظيم فعلاً، بعد أن كانت سقطت فكرة السفر في بئر النسيان يتحقق الحلم، سبحانك يا رب، ما أخبيش عليك أنا مرتبك ومشوش تمامًا، لكن إنت مش معايا إن دي بشارة أمل، أن أمسك بلحظة بداية أنا في أشد الحاجة إليها، يمكن أقدر أخرج من دوائر الإحباط إللي أنا غرقان فيها، صحيح هناك مبررات للقلق، لإني لو قررت أسافر لازم أستقيل من عملي إللي حقق لنا حد أدنى من الاستقرار، وحأضطر أسافر لوحدي وإحنا يا دوب ما كملناش شهرين جواز، إزاي حنفترق كده فجأة؟ وبيني وبينك مافيش يقين في جدوى البعثة، لكن إنت مش شايفة إن الحكاية تستحق المجازفة؟ بيتهيألي إنه توقيت مثالي للمغامرة، مستقبل المنطقة بحالها في مهب الريح، يمكن تكون الرحلة طوق نجاة من الركود إللي صابنا، أنا زي ما أنت شايفة باشتغل شغلة روتينية مملة

مقابل دخل متواضع، والفرصة شبه معدومة في أي تقدم، وبعدين إنت عارفة أنا صبرت قد إيه على حلمي بالسفر عشان أتعلم بجد، أكيد دي فرصة جايز يكون فيها مستقبلنا إللي بنحلم بيه، مش كده؟ احتمال البعثة تغير حياتنا كلها، لازم نغامر ولا إيه رأيك؟

استمعت إليّ مُطرقة وغلبتها مشاعرها فقالت: ده كان رأيي لما استقبلت فاكس الجامعة من المكتب في واشنطن رغم كل تعليقات الزملاء البايخة! سألت مدهوشًا: تعليقات إيه؟ فأجابت وهي تغالب دموعها: كلهم حذروني من سفرك، وبعضهم تساءل باستهجان: يسافر إزاي ويسيبك وإنت لسّه عروسة ما كملتيش شهرين جواز؟ وأفتى آخرون بأنك أكيد مش حترجع وحتعيش حياتك هناك وتنسى البلد وإللي فيها، وبعضهم نصحني أخبِّي عنك الخبر من أساسه وكأن شيئًا لم يكن عشان تفضل جنبي ويا دار ما دخلك شر!

تعجبت من حماقة التعليقات ونظرت إليها متسائلاً: وإنت كان ردك إيه؟ أجابت وهي تمسح دموعًا تجاهد لإخفائها: قلت إنه مستقبلك إنت، وحلمك إنت إزاي أحرمك منه كده ببساطة؟ مستحيل! وبعدين قلت لهم أنا واثقة في حبيبي ومتأكدة من حبه ليَّ، والحكاية تخصني أنا وهو وما تخصش حد فيكم من أصله.

أسعدتني كلماتها الواثقة، بينما أقلقني خوفها بل رعبها الذي تجلى في دموعها التي فاضت حتى أن جسدها كان ينتفض كأنما ينتحب هو الآخر، ضممتها لصدري وتركتها تفرغ شحنة قلقها، ثم دقت عقارب الساعة لتشق الصمت في لحظة مشحونة بتأمل ما سيحدث، وشعر كلانا بفراغ هائل ورهبة مخيفة، قبلتها ومسحت

على رأسها في حنو، وذبنا في عناق طويل، وأنا أتمتم إشفاقًا علينا من وطأة الهواجس:

اسمعي، الحكاية مش زي ما إنت شايفاها مصيبة وحلت علينا، وأكيد إنها مش نهاية العالم، صحيح فراقنا حيكون صعب في الوقت ده، لكن ما تقدريش تنكري إنها فرصة، وإن ضاعت مش حاترجع تاني، على الأقل تجربة مغرية إن ما فادتش مش حاتضر، وحتى لو رسيت على مجرد الفرجة بس كفاية! حقيقي يا "نوسة" عايز أفهم إيه حكاية أرض الأحلام دي، وجايز نلاقي لنا حلم نحققه فيها، بصراحة الحكاية تستاهل ولاّ إيه؟ أما حكاية زملائك، أنت عرفتي تخرسي لسانهم على حق، إحنا مش اتنين متجوزين وخلاص، إحنا بنحب بعض وإحنا بس إللي نقرر إيه إللي ينفع لنا وإيه إللي ما ينفعش؛ على فكرة الكلام ده مش حيبطل، وكل واحد فيهم حيحاول يشكك في قرارنا مهما كان، وحيحاولوا يتدخلوا أكتر بعد سفري، حسدًا أو إرضاء لشهوة تشفيٍّ في فراقنا، أولتوريطك في شعور كاذب بخيانتي الافتراضية، لكن بجد أنا فخور بثباتك وشجاعتك معاهم.

بدا ميلي للسفر واضحًا، وتأكد لها إن الفراق قادم لا محالة، فتساءلت: لكن أنا حأعمل إيه من غيرك؟ مش جايز الحياة هناك تغريك وتنساني؟ مش جايز واحدة من إياهم توقعك في حبالها؟ حتقاومها إزاي ما إنت في الآخر بشر ولاّ إيه؟ أجبت: هو كان جايز فعلاً قبل ما أحبك، إنما دلوقت صعب، وضحكت ضحكة متوترة بعض الشيء وقلت:

يعني كلامهم برضه أثر فيك والشك بدأ من دلوقت؟ بجد الكلام مش حايفيد، لكن حبي ليك أكيد وما فيهوش شك، أنا اتجوزتك

عشان حبيتك بجد، بس لو واحدة وقعت في غرامي ويا سلام لو من أول نظرة تبقى الحكاية فيها كلام، لكن أحبها وتنسيني حبنا والدنيا اللي أنا جاي منها؟ هو ده اللي مش ممكن، إنت دنيّتي، وهنا في الأوضة دي العالم إللي بحبه، وصعب أساسًا يحصل انسجام بين جنوني وعقلانية الجماعة دول، ولو أغراهم جنوني تبقى الحكاية زي فرجتهم هنا على الآثار، وعلى كل حال أنا أوعدك بحاجة واحدة، سواء وقعت في حبال واحدة شقرا أو سمرا حتفضل روحك حارساني، وتملا عليَّ وحدتي وغربتي.

شرب جمع الأصدقاء رفقي والحناوي وغيرهم نخب بعثتي المرتقبة، وهنأوني بحرارة، وقال معظمهم: جت في وقتها، وانبرى رفقي يؤكد أني مؤهل للحياة على النمط الأمريكي، ثم شرع كل منهم يدلي بدلوه عن ميزات أرض الأحلام، قمة العلوم والتكنولوجيا، وعن يقينهم أني سأجد فرصة هناك لحياة أفضل، وفي ذات الوقت أنقض الخوف من الحرب وترقب نتائجها مطبقًا على الصدور كما الجوارح، فاستغرقنا - هربًا من حديث الحرب- في الحديث عن الرحلة الميمونة، وبين هذا وذاك لم أجد ملاذًا من قلقي الذي استبد بي!

ها أنا ذا جالس على مقعدي الأثير، في مواجهة نافذة لا أرى منها سوى فضاء اللهو وسماء الغواية، وقد آن لي الفطام عنك قاهرتي، فلم أعد بعد قادرًا على صد الشوق يحملني على محفته مريدًا ينشد مزيدًا من الطواف في أفلاك الدهشة، وتكشفت لي الإجابة على سؤال البعد والفراق فقلت لنوسة: شوفي يا ست

الكل، سفري لوحدي مشكلة، وبقاؤك هنا لوحدك مشكلة أكبر، وأكيد حتسألي نفسك ياترى حيرجع ولاّ لأ؟ أنا لقيت الحل، إحنا نوقف حبوب منع الحمل، وإن شاء الله ربنا يرزقنا بمولود تنشغلي بالحمل فيه، من ناحية ترتبي أمورك وتستعدي له، ومن ناحية تانية يبقى فيه سبب تضمني بيه رجوعي لأن مش معقول توصل بيّا النذالة أسيبك وأسيب ابني كمان، إيه رأيك؟ سلَّمت على الفور بأنها فكرة تستحق النظر والاعتبار، وزادت قناعتنا بها مع الأيام، ومنينا أنفسنا بإمكانية أن تأتي للولادة في أمريكا ونحصل على إقامة لرعاية الطفل إللي حيبقى أمريكاني!

رغم اشتعال المنطقة بغليان الانتظار للحرب واشتعال أحاديث المقاهي، إلا أن البعثة كانت أحد الأحلام المؤجلة وقد أوشك على التحقق، ما أصابني برعب من احتمالات الفشل، فقد توالت الأحداث في سلسلة محكمة أطبقت على الناس بإيقاع عبثي لا يهدأ، وصل ذروته في مقتل السادات، وبلغ منتهاه بواقعة الغزو، الحقيقة أننا لم نملك - نحن مواليد خمسينيات القرن العشرين - دليلاً يرشدنا لفهم ما يجري، وسرنا في متاهات البحث عن التوافق حول أية قيمة، وما أن نستمسك بإحداها حتى تفلت منا و تنهار أمام أعيننا، ولم تمنحنا الأحداث فرصة لالتقاط الأنفاس، ومن تمكن منا من اجتياز هذا العقد اللعين انهارت رموزه، وتهدمت أحلامه على صخرة الرهانات الخاسرة، والحماقات الكبرى لحكامنا الملهمين!

الرحلة

تحدد موعد السفر يوم 18 يناير 1991، وفي صبيحة يوم 17 بينما أنا مستلق إلى جوارها، أتانا نبأ بدء حرب تحرير الكويت عبر الراديو، فتداعت ذاكرة الحروب التي بدأت منذ حرب 56 عام مولدي حتى اليوم، لم يتوقف خلالها إزهاق الأرواح والأحلام، وأصبت بارتباك من عَلِقَ ببندول ساعة يتأرجح على حبال الرجاء الواهية، اختلط الذهول بالغضب، والخوف بالترقب، والحسرة بالمرارة وبلغ الحصار مداه، ولم يعد لنا مهرب من قيود بدت أزلية تقيد مصائرنا! يا ربي، كيف أسافر والدنيا تشتعل بحرب لا يعلم مداها إلا الله، ورغم أنني ارتحت لفكرة السفر في هذا التوقيت أو قل أوهمت نفسي بالارتياح تاركًا الآخرين في هذا الأتون ينشغلون به ويتداولون فيه ما شاء لهم، لأشق أنا طريقي إلى بلاد العم سام ممنيًا نفسي أن أعيش حياة – ولو كهدنة– لا أرى فيها وجوهًا عكر صفاءها المجهول، دون سماع آراء مضطربة أعيتها الحيرة، هكذا كنت أحدث الأصدقاء ساخرًا.

قبل سفري بساعات، توافد الأهل والأصدقاء، دعوا لي بالنجاح مؤكدين أنها فرصة العمر، بينما ظلت فردوس على حالها من الإحساس بقسوة الفراق بعد شهور قليلة من الزواج، حاولت أن أكفكف دمعها فإذا بدموعي المكتومة تنهمر بعد مغادرة الجميع،

وقلت لها ورهبة الفراق تسيطر على كلينا إنني لن أخذلها أبدًا.

حانت اللحظة وحضر جلال المنوفي وأبي، وركبنا سيارة جلال الذي أصرّ على توصيلنا، وفي الطريق أوصاني بالتمسك بديني وعدم الانسياق لنمط الحياة الأمريكي، وأن أهتم فقط بتحقيق أحلامي ودراستي، وأمَّن أبي على كلامه فطمأنتهم: بالمناسبة يا جماعة أنا مش رايح الجحيم، ومفيش هناك شياطين محضرين لي الفخ عشان يوقعوني فيه، وأنا لا صغير ولا طايش خلّوا أنتو بالكم بس من فردوس في غيابي، واحتضنتها على باب الجوازات ومسحت دموعها التي لم تجف لساعات: عايزك تكوني قوية، ده أكبر دعم ليّ في غربتي، أنا مسافر عشانك وعشان ابننا، ما تنسيش تدعيلي وأنا حأدعيلك ربنا يحفظك ليّا لحد ما نتلاقى ويتلم شملنا إحنا التلاتة إن شاء الله، ودخلت قاعة السفر ملوحًا لهم حتى غابوا عن بصري وصرت وحيدًا في مواجهة مجهول تغلبني اللهفة للقائه!

لم يسبق لي ركوب الطائرة سوى في رحلة الصبا ضمن بعثة الفريق المصري إلى المعسكر الكشفي العربي بالعراق عام 1971، أما رحلتي لبلاد العم سام فقد امتدت ساعات الطيران فيها 16 ساعة، في ظروف ما أنزل الله بها من سلطان، ورغم جلوسي في مقاعد المدخنين، إلا أنني قضيت جل ساعات الرحلة في غفوة تلو الغفوة هربًا من ملل الوجوه الأكثر برودة من الاحتباس في المقاعد والممر المكيف! بعد دقائق من الجلوس بدأ الإرسال التلفزيوني ببث آيات "سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين" ثم تعليمات السلامة البلهاء، ومن النافذة بدت

أرض المطار باهية بأضوائها المتناثرة، منتظمة كأبيات قصيدة وداع قصيرة لمدينة عتيدة، تلألأت الأضواء كعقدٍ من اللؤلؤ بجيد امرأة لعوب، ما أن تتركها حتى تراودك اللهفة للقاء قريب معها. بدأ الجسم المعدني يئن بحمولته وتعالى أزيز المحركات، بينما المضيفات يتبخترن بأجسادهن الملولة في ثيابهن المحكمة على أجسادهن، وأصباغهن وشعرهن المهوش عمدًا إمعانًا في إظهار الدلال بمفهومه العصري، بينما وجوههن شاحبة لا نضارة فيها، أما المضيفون الرجال فكانوا يتيهون بأجسادهم شديدة التناسق، يطلقون نظراتهم نحو الركاب في صرامة وجدية تشي بصورة مضحكة بمنصبهم الرفيع!

واصل الطائر المعدني ارتفاعه، وتحولت القاهرة إلى بقعة في طريقها إلى الزوال، قرأت صامتًا ما تيسر لي من القرآن حتى غالبني النعاس وما هو بنعاس، لم أكن أفيق منه إلا على صوت المضيفة تقدم لي مشروبًا أو وجبة خفيفة أتناولها لأعود إلى إغفاءتي، وتوالت أمام عينيّ - ما بين النوم واليقظة- وجوه المودعين والأصدقاء من رواد المقهى والعابرين بشوارع وسط البلد، بصخبها في النهار وألقها في المساء، ووجه مليكتي تودعني بالدموع، واستمر الحال مثيراً للضجر على مدى ساعات الرحلة الطويلة حتى أعلن قائد الطائرة عن وصولنا لمطار أورلي بباريس، وأن علينا البقاء في مقاعدنا، وهكذا بقينا محاصرين داخل الطائرة لا نملك إلا التنقل بين مقاعد الدرجة السياحية الفقيرة، وحاولت ممارسة الشغب مع المضيفات والمضيفين لانتزاع الضحك معهم دون نجاح يذكر، وتلاشت الساعات المتبقية من الرحلة بين الغفوة والاستغراق في الخيالات والرؤى حتى هبطنا في مطار جي. إف.

كي. في نيويورك في نهاية نهار الجمعة 19/يناير/1991.

ما أن أُطلق سراحنا من سجن مقاعدنا حتى تكفل رجال أمن المطار برصنا في صفوف تشكل مربعًا ناقص ضلعًا في بهو المطار الفسيح، لإنهاء إجراءات الدخول، كانت إشارات منع التدخين معلقة كالذبائح من السقف، والوجوه متجهمة مرهقة مما زاد من ثقل الانتظار، فقد بدأت الحرب، ورياح عاصفة الصحراء تهب على الموانئ والمطارات حاملة معها دواعي الخوف من أعمال انتقامية محتملة، والرعب من ردود الأفعال على هبة العالم "الحر" ضد الشيطان الرجيم صدام! طال الانتظار لأكثر من ثلاث ساعات وبلغ الأمر مدى يفوق الاحتمال فأوشكت على الانفجار، ولم يلجمني إلا تأمل رجال أمن المطار تعلو وجوههم جدية لا معنى لها، لا ينفكون يدورون حولنا في حالة من التحفز لا لبس فيها، وتملكتني رغبة قوية في الضحك على هيئتهم الكاريكاتورية لكني كتمتها صاغرًا!

أخيرًا، وصلت أمام ضابط الجوازات الذي طلب استمارة المعلومات، التي توزع على الركاب في الطائرة، ناولته إياها دون النظر إليه، نظر فيها فعَلَتْ وجهه علامات الامتعاض ونظر إليّ كأنني مسخ فضائي ثم قال بعصبية ولكنة أمريكية متعجرفة كفيلة بأن تجعل منه ضحية ساعات السفر والانتظار القاتلة: ما هذا؟ أنا لا أستطيع قراءة المكتوب، وناولني استمارة جديدة طالبًا مني إعادة ملأها أو بالأحرى أمرني بذلك فأجبته ببرود: عليك أنت بملئها، فأنا لا أعرف الكتابة بأفضل مما ترى، وكانت الحروف تعاني من حالتي ما بين النوم واليقظة ملولة متأرجحة، وقلت

إمعانًا في التنكيل بضحيتي: لا تقلق سأملي عليك البيانات وحروف هجائها، فارتسمت على وجهه ابتسامة بلهاء غاضبة وإن لم يملك إلا أن يفعل ما قلته صاغرًا، لأنني في النهاية أجنبي من بلد متخلف ربما لا يعرف موقعه على الخريطة، أنهى ملء الاستمارة ووضعها بعصبية في الجواز وناوله لي مشيرًا إليّ باصبعه للتحرك، سرت جهة ممر ليس بالطويل ولا القصير حتى لمحت بطرف عيني سير الحقائب يدور والناس واقفون لتلقف حقائبهم، تلقفت حقيبتي بلهفة المشتاق إلى حبيبة وجررتها خلفي.

رغم برودة الجو والمطر المنهمر إلا أني كنت في أشد الحاجة لتنسم هواء طبيعيًا لا تعكره مكيفات أو ردهات صماء، وتمتعت أيما متعة بتدخين أول سيجارة لي في بلاد العم سام، ثم عدت لصالة السفر لأستقل الطائرة المتجهة إلى واشنطن حيث المكتب الثقافي، بعد تأكيد الحجز في شركة الطيران الداخلي، ووجدتني محشورًا وسط عشرات المسافرين والمودعين من كل جنس ولون ولغة، وتحول صوت الكلمات المتبادلة بلغات ولهجات متباينة إلى حالة أشبه بالسيرك، وتملكني خوف من انقضاض محتمل لأي فيل أو دب يفلت من حُراسِهِ في هذا الحشد العبثي حتى لمحت لوحة البيانات وموعد إقلاع الطائرة، مضيت أتنقل في ردهات المطار حتى وجدت كابينة تليفون وأجريت اتصالاً بصديق سينتظرني في مطار واشنطن، فأكد لي أنه سيكون هناك لحظة وصولي.

بدأت أستعيد عافية المواجهة، وقفت تحت لافتة شركة الطيران التي ستقلني طائرتها أمام شقراء بعينين زرقاوين تعلو وجهها ابتسامة متقنة، استبشرت خيرًا واتجهت لأسألها عن رقم البوابة

المؤدية إلى طائرة واشنطن وأردفت قبل أن تجيبني: يا ترى ستكونين عليها؟ اتسعت إبتسامتها وهي تشير إليّ بالذهاب لشركة طيران دلتا بوابة رقم 46 في نهاية الممر إلى اليسار، وعاودت الإبتسام وهي تنظر في جواز السفر قائلة: أنت مصري؟ فأجبتها: وهل أبدو غير ذلك؟ فقالت: للوهلة الأولى ظننتك مكسيكيًا! عندها أجبت بفخر وثبات: عليكِ بحفظ هذه الملامح فهي لا يمكن أن تكون إلا لمصري، سأسامحك فقط لجمالك. قالت وهي تكتم ضحكتها: أسرع فالطائرة على وشك الإقلاع، لكنني لم ألتفت لنصيحتها حيث وجدت بعض الواقفين في مربع خاص يستمتعون بالتدخين، وشرعت في التدخين وعيني على طرف الأنبوب المؤدي للبوابة حيث الليل يخيم على المكان، وخَلَتْ أرض المطار من أية أضواء غير الممرات المتلألئة.

بعد أن انتظم الركاب في مقاعدهم، انطلقت الطائرة الصغيرة بمقاعدها الضيقة، وقد بلغ بي الإعياء مداه فلم أفق من نومي إلا عندما حطت الطائرة في مطار واشنطن، وفي بهو المطار قابلني السيد / سليم مرحبًا - كان قد تعرف على فردوس في رحلتها لواشنطن وتعرفت إلى زوجته وعاملوها كابنة لهما- ركبنا السيارة وتبادلنا الحديث دون تكلف، سألني عن أخبار فردوس فأجبته أنها بخير وترسل لكما السلام، فبادر: ما هي أخبار الحرب عندكم في مصر؟ لم أكن مهيئًا للحديث عن الحرب من جديد لكنني ذكرت له ما يتردد في مصر، ووصفت له حال الكويتيين والمصريين العائدين هربًا من أهوال الغزو، ثم قلت محاولاً إنهاء الحديث إن الأمر يبدو بعيدًا عن أية تكهنات لأن الحرب لم يمر عليها سوى يومين فقط فأجاب بثقة لم أرَ مبررًا لها:

لا تقلق ستكون تلك الحرب فيتنام جديدة للأمريكيين! وسيسلخ العراقيون فراء رؤوس جنود المارينز بمجرد بدأ الحرب البرية! صدمني كلامه وهو الأستاذ بجامعة جورج واشنطن، ولم يمهلني فرصة لتأمل كلامه حيث أردف: على فكرة، هذا رأي غالبية المصريين والعرب المقيمين هنا، لأن أمريكا منذ حرب فيتنام لم تدخل حربًا وجنودها غير مؤهلين لحروب الصحراء! كنا قد وصلنا الفندق الكائن بجوار المكتب الثقافي، وبعد أن اطمأن على استلامي مفتاح حجرتي ودعني على وعد بالاتصال بي في الصباح.

كان الليل قد قارب على الانتصاف وتكفلت برودة الجو مع ندف الثلج المتساقطة ولمعان الضوء المتناثر ودخان غاز التدفئة المتصاعد من الفتحات التي تعلو البنايات على طول طريق المطار بالاحتفاء بي، أسرعت بالاستحمام، ثم أدرت مفتاح التلفزيون ليؤنس وحدتي في الفندق الذي يملكه لبناني، يقيم فيه المبعوثون المصريون حتى إتمام إجراءات بعثاتهم، ولا يتطلب الأمر سوى إبراز جواز السفر المصري حتى يتسلم المبعوث مفتاح غرفته، ولا يوجد بالفندق مطعمًا ولا حتى صالة استقبال بالمعنى المعروف، فقط بضعة مناضد ومقاعد أثرية في بهو متواضع وزاوية في مواجهة المصعد بها ماكينة للمياه الساخنة وأكياس شاي وقهوة وسكر متروكة بإهمال، حتى التلفزيون لم تكن فيه إلا قنوات الأخبار والإعلانات المملة، لا أفلام ولا منوعات ولا غيره!

أنعشني الحمام الساخن ولم تكن ساعتي البيولوجية قد انضبطت بعد على التوقيت الأمريكي، وشعرت برغبة ملحة في الخروج، وبعد هدنة تناولت فيها قليلاً من الباتونساليه - من مخزون

الأكل الناشف الذي أصرت فردوس على وضعه في الحقيبة- مع تفاحة تُركت مع غيرها في سلة متواضعة على منضدة الغرفة، نزلت الدرج الخشبي- الذي كان يصدر أزيزًا يفضح من يصعد أو يهبط عليه- وتلقفني موظف الاستقبال السوداني مسترخيًا أمام صندوق التلفزيون الكئيب وصاح بي: على فين؟ أجبته متكاسلاً: أبدًا حأروح أشتري سجائر. ضحك متعجبًا وقال بسخرية: أنت فاكر نفسك في مصر؟ مش حتلاقي أي مكان مفتوح دلوقت، والخروج بالليل خطر جدًا. أجبته وأنا على باب الفندق: ما تخافش مش حتأخر!

طبعًا لم يكن في واشنطن العاصمة بمبانيها البيضاء وبيتها الرئاسي الأبيض أية أكشاك سجائر ولا فرشة جرايد تسهر الليل بطوله كما في القاهرة، ففي شتاء يناير يتساقط الثلج أو يكون على وشك السقوط في أية لحظة، ولا يوجد عاقل تسوّل له نفسه مهما بلغ جموحها التسكع على الأرصفة في درجة حرارة تقترب من الصفر، في ظلام تام مكتمل السواد بإستثناء أضواء مصابيح السيارات المارقة بسرعة البرق، وعلى بعد خطوات من بوابة الفندق لمحت لافتة لمطعم هندي، فقلت لا بأس من وجبة ساخنة سيكون لها مفعول السحر في هذا الصقيع، دخلت من باب المطعم فإنطلقت في وجهي روائح البهارات الهندية النفاذة لتنسف الفكرة من أساسها، ومنعًا للحرج أجبت الرجل ذا العمامة الهندية، الذي سألني عمّا أريد:

أبحث عن وجبة ساخنة، فقال: لدينا كذا وكذا بأسماء هندية أوهند أمريكية لم أفهم منها شيئًا فاعتذرت بأدب: لا أظن أن هذا يناسبني! خرجت مسرعًا كمن يهرب من فخ نصب له، وتلفت حولي

متلهفًا لرؤية أية صنف من البشر لكن لا أحد، قلت لنفسي لا بد من عبور نهر الطريق للرصيف المقابل حيث تلوح أضواء اللافتات، استجمعت شجاعتي وعبرت الطريق الذي تنهبه السيارات غير عابئة بمن يعبر، لأنه لا يوجد احتمال واحد في المليون أن يعبر أي مجنون مثلي الشارع، تطلعت إلى اللافتات المضيئة فوق المحال فبدت في أغلبها علب ليل، ثم مكتبة، ومحل لملابس السيدات، ومكتب سياحة كلها مغلقة.

اتسع الشارع وبدت في نهايته ساحة وميدان يتوسطه تمثال لشخص بدا وحيدًا مثلي، وقبل أن أصل للميدان بخطوات رأيت محلاً له واجهة زجاجية تغطيها ستائر من القماش الأبيض المدكك، مثل ستائر واجهات محل جروبي بميدان طلعت حرب، بدت من خلفها مظاهر حركة، كان الباب مفتوحًا يؤدي إلى بار يقف فيه بارمان أسود منشغلاً بمشاهدة مباراة لكرة السلة في التلفزيون المعلق فوق البار، دخلت دون تردد بينما البارمان يمسح الطاولة ويلمع الأكواب متابعًا المباراة، اعتليت كرسي البار العالي في الزاوية المقابلة للباب، وتأملت بإرتياح نظافة المكان بمقاعده المكسوة بالجلد، وعلى الأرفف زجاجات مرصوصة بأناقة في جو بارد يحتاج لتدفئة، خاصة مع شعور الوحدة الذي اجتاحني، ألقى البارمان التحية سريعًا وسألني:

ماذا أقدم لك؟ أجبته بسذاجة: زجاجة بيرة من فضلك، فرد سريعًا: أي نوع منها؟ ألقيت نظرة سريعة على الرفوف فإذا بها تضم ما يزيد على عشرة أصناف من البيرة لا أعرف أيًا منها فابتسمت متداركًا الأمر: حسناً ما رأيك في كأس كونياك نابليون، فاستدار على الفور ليصب لي كأسًا وضعها أمامي مع قليل من

حبات الفول السوداني، شرعت في تناولها دون أن يعيرني إهتمامًا فقد كانت المباراة على أشدها وهيئتي ولكنتي تؤكدان أني غريب أو وافد جديد من التائهين في بلاد العم سام!

أدرت وجهي لمتابعة المباراة متأملاً تعبيرات وجهه المتأثرة بالرميات الصائبة والفاشلة، ثم انشغلت عنه متفحصًا المكان، بارافان خشبي من الأرابيسك يفصل ما بين البار وقاعة الطعام التي بدت أقل إضاءة مع حركة خفيفة للرؤوس تبدو من بين فتحات البارافان، وضحكات خافتة ودخان سجائر مختلط بروائح عطور نسائية فخمة ما يوحي بأرستقراطية المكان، وبدأ مفعول الكونياك يسري في جسدي بالدفء فتحللت من بعض ثيابي المتراكمة وألقيت بها على الكرسي المجاور، صرت أكثر اطمئنانًا وجرأة، أنهيت كأسي الأولى وطلبت الثانية بينما رنات ضحكات النساء تتصاعد لتزيد من سخونة وألفة المكان، وكان هناك رجل يجلس على طاولة تشرف على قاعة الطعام وتسمح أيضًا بمتابعة ما يجري في البار، لم أبال به وحدثت نفسي ردًا على هواجسها: مهما حدث أنا أملك جواز سفري وثمن الكأسين بالبقشيش، كما أنني أتصرف بشكل طبيعي كأي واحد يرتاد بارًا في الواحدة صباحًا - في بلد تغلق أبواب محاله في الثامنة- وأملك حرية لا يملكها النائمون، فالليل صديقي ولن يخذلني.

قام الرجل عن مقعده وتحرك ببطء وثقة حتى صار يفصل بيننا مقعد واحد، بادرني بابتسامة مشجعة مستندًا على طاولة البار وسأل: الأخ عربي؟ قالها بلهجة عربية سلسلة فأجبته: نعم أنا من مصر. فسأل: منذ متى وأنت هنا في أمريكا؟ أجبته: ربما تسع أو

عشر ساعات. علت الدهشة وجهه وسأل كأنه لم يسمع إجابتي: ماذا؟ عشر ساعات وتأتي لتسهر في هذه الساعة هكذا بكل بساطة في قلب واشنطن في واحد من أغلى مطاعمها، أنتم المصريون تتمتعون بجرأة نادرة، وإن لم يفعلها أحد من قبل في ليلته الأولى!

ابتسمت متباهيًا: نحن ابناء ليل وسهر والليل واحد وقوانينه واحدة، لكن أنت من أي بلد؟ فأجاب: أنا مغربي وهذا المطعم ملكي، فقلت له مؤكدًا طبيعتي المغامرة: نحن في القاهرة نكاد لا ننام الليل ولا أجد سببًا لأغير طقوسي التي اعتدتها! ابتسم وسأل : جئت للعمل أم للدراسة أم للسياحة؟ جئت في بعثة تدريبية مدتها عام. عندها قال بأريحية عربية صرفة: إذن اسمح لي أن تكون ضيفي في ليلتك الأولى على وعد بأن نراك ثانية، وأشار للنادل بأن يصب لي كأسًا ثالثة، شكرته بحرارة، وتركني إلى حيث لا أراه فالتهمت كأسي الثالثة آمنًا مطمئنًا، وتخلى البارمان عن صمته وسألني أين أسكن؟ ونصحني بشراء معطف للمطر وأعطاني رقم التليفون في حال أردت حجز طاولة للعشاء!

أخيرًا، زالت آثار الرحلة ومشقة الساعات المملة بين المطارات وآمري الأمن والجوازات، ودعت مايكل البارمان في الواحدة والنصف وعدت للفندق مستبشرًا بالمجهول القادم، وعندما دخلت وجدت موظف الاستقبال يغط في نوم عميق، ولم يزد على رفع حاجبيه للتحية بعينين مثقلتين بالنوم، واستسلمت لنوم عميق أربع ساعات بالتمام والكمال، صحوت بعدها منتعشًا ونزلت بعد حمام سريع لصالة الاستقبال لأتناول قهوتي.

تحدثت مع أمريكية عجوز تعمل بالفندق بروح من الدعابة، بادلتني إياها بود، ثم جلست أتصفح الجرائد الملقاة بإهمال على

طاولة وحيدة في البهو، متأملاً الزملاء المبعوثين، متحدثًا معهم بالقدر القليل الواجب حتى وصل السيد/ سليم. حياني وسأل: هل نمت جيدًا؟ الحمد لله؛ هيا بنا إذن، وانطلق بالسيارة قائلاً: لا بد أن تشتري لك معطفًا للمطر فهو ضروري جدًا هنا، قلت: لا بأس أعتقد أنني أملك ما يكفي من نقود، فرد سليم: لا تشغل بالك بالفلوس، توجهنا لمجمع تجاري دخلناه فنصحني أن أستمتع بمشاهدة البضائع حتى يجد لي معطفًا مناسبًا وما هي إلا دقائق حتى أعلن في إذاعة المجمع عن تخفيض 30% على معاطف المطر، نادى عليّ سليم فرحًا: رزقك في رجليك، وبدأت أقيس المعاطف واخترت ما يناسبني فقال هامسًا: ده تقريباً بنصف تمنه الأصلي!

قاد السيارة إلى ضاحية فيرجينيا، حيث يسكن علية القوم، وتوقف أمام منزل صغير وفتح الباب الخارجي حيث غرفة معيشة بسيطة الديكور، وحضرت زوجته لتحيتي، امرأة جميلة تجاوزت الأربعين بقليل تعلو وجهها ابتسامة محببة وترتدي ثيابًا راقية، رحبت بي معبرة عن سعادتها بقبولي دعوتها لشرب الشاي، ابتسمت بيني وبين نفسي ولأي سبب في الدنيا يمكنني أن أرفض، ثم تركتنا وتوجهت لإعداد الشاي فأخبرني سليم أنها من سلالة الأسرة المالكة في تايلاند وتعمل هنا في سفارة بلادها، وذكر أنه تزوجها منذ عشر سنوات لم يرزقا فيها بأبناء، وأنه يعمل بجامعة جورج واشنطن ويكتب المقالات في الدوريات المتخصصة في الاقتصاد ثم أردف:

الحقيقة لا يوجد لدينا أصدقاء كثيرون لهذا نفرح بأي زائر كما أننا أحببنا زوجتك فردوس ونعدها ابنتنا، فقلت: أشكر لك كرمك، الحقيقة فردوس لم تبالغ عندما ذكرت رقيكم وصدق احتفائكم بها. حضرت الأميرة التايلاندية تحمل صينية فضية عليها فنجانان

من الشاي مع قطع من حلوى منزلية، عمت البهجة المكان وأثنيت على أناقتها وحفاوتها بي، وبدا أنني ضيف عزيز بحق إذ قالت ردًا على امتناني:

قضت فردوس معنا وقتًا قصيرًا لكننا لن ننساها وأنت كما يبدو رجل ودود طيب القلب كما ذكرت لنا، ولو كانت جامعتك هنا في واشنطن لكنت أقمت معنا، لكم يسعدنا وجود صديق مثلك بيننا، ثم شرعت تصف روعة وجمال الطبيعة في بلادها وأعربت عن سعادتها بزيارتها الأخيرة لمصر، ثم استأذنت لتقوم ببعض الأعمال، بعدها أوصلني سليم للفندق مشددًا على دعوتي للعشاء في الغد.

بمجرد أن غادر خرجت دون تبديل ثيابي، تسكعت في الشوارع القريبة مبتهجًا برؤية البشر العاديين في هذا الوقت المبكرعلى موعد إغلاق المحلات والاختفاء تحت أسقف البيوت والحانات، وعند باب البار الذي قضيت به ليلتي الأولى غيرت وجهتي، آثرت مواصلة السير في رحلة استكشاف، كان ضوء الغروب ينبئ بوداع ما وقرب لقاء مجهول ممزوجًا بندف الثلج تسرع هاربة من حصار الظلال وبوادر الظلام المقبل، سرت طويلاً وواصلت الابتعاد عن موقع الفندق بثقة لا مبرر لها، فالطرق واسعة متشابهة تتقاطع في إتجاهات لا أعلم عنها شيئًا، وصلت لميدان واسع تتوسطه حديقة بها مقاعد لا يجلس عليها إلا عجائز متناثرون، وأزواج من الحمام الطليق يزاحم المارة، لا يعبأ أيهم بالآخر، وأشجار البلوط فارعة الطول لا تمنح فرصة لتأمل أغصانها أو أوراقها القريبة من السماء، بينما الفراغ يلتهم الفواصل بين أحواض الزهور والعشب الممتد، وجلست لوهلة على مقعد يسع ثلاثة أشخاص لكن لا أحد، فالشتاء

هنا يدفع بالناس إلى دفء البيوت أو سخونة وضجيج المراقص والمطاعم، عبرت الميدان إلى شارع واشنطن، واستوقفني زنجي يرتدي عمامة صوفية وسترة جلدية - لا يمكنني امتلاك مثلها- يحمل في يده جهاز تسجيل ضخم تنبعث منه موسيقى صاخبة وسألني: هل معك دولار؟ أعطيته إياه مسرعًا بالابتعاد عنه.

عند ناصية شارع واشنطن وجدت أكشاكًا لبيع الملابس يبيعها رجال من أصول متباينة، الأفريقي الهارب من حرب بلاده الأهلية، والأفغاني الهارب من الحرب التي وضعت أوزارها بالكاد، والباكستاني كما بدا من زيه والمصحف الذي في يده، يفترشون الشارع كالباعة الجائلين في شوارع وسط البلد بالقاهرة، ويتزاحم الناس حول بضاعتهم التافهة مثل أسعارها دون أي سعي منهم لجذب الزبائن، فقط ينظرون للمارة بلا مبالاة مربكة ومحيرة! وبعد السير لمسافة قصيرة إضافية دخلت أحد مطاعم الوجبات السريعة طلبت وجبة سريعة وثلاثة علب من البيرة عدت بها إلى الفندق.

في صباح اليوم التالي كان الجميع يتأهب لزيارة المتاحف ومعالم العاصمة، ولم أجد في المتحف الوطني ما يشير من قريب أو بعيد لأمريكا، فهناك قسم كامل للحضارة المصرية القديمة، وآخر للحضارة الصينية، وثالث لتاريخ أيرلندا، ثم قسم للآثار الإسلامية، وبعض مقتنيات من العصور الوسطى من ملابس المحاربين والعملات ومجوهرات الملوك، ثم وثائق أهل البلاد الأصليين!

وفي متحف الفن الحديث وجدت أعمالاً لكبار فناني عصر النهضة، وأعمال معاصرة لفنانين لا أعرف منهم أحدًا، والقليل

من أعمال الفنانين الأمريكيين، خرجت وأكملت السير على الأقدام إلى متحف التاريخ الطبيعي قبالة بحيرة اصطناعية ضخمة حيث تنتصب مسلة فرعونية تشرف على ساحة المتحف والبحيرة، لم يلفت نظري داخل المتحف سوى هيكل عظمي لديناصور وآخر للماموث وكأنهما الدليل الوحيد على أنني في متحف أمريكي! تناولت وجبة سريعة وعدت للفندق وقد انقضى معظم النهار وبعد غفوة قصيرة قمت لأعد نفسي لدعوة العشاء.

حضر سليم وزوجته ليجداني في انتظارهم ببهو الفندق، وقال وهو يقود سيارته الأمريكية الفارهة: ادعي ربنا نلاقي لنا مكان، ذروة الزحام تكون ليلة الأحد، نزلنا من السيارة وسرنا حتى باب المطعم القائم في مبنى مستقل على مساحة لا بأس بها، واضطررنا فعلاً للانتظار حتى وجدوا لنا طاولة قبالة الشارع كما طلب منهم سليم الذي بدا معروفاً لهم، كان للمطعم اليوناني والأكل فيه مذاق خاص، وكان المشهد من الواجهة لطيفاً، بينما زبائن المطعم الجالسون بوقار يتحدثون همسًا، أمسية جميلة التقيت فيها أبناء الطبقة الراقية في عاصمة العالم الجديد، وعلى باب الفندق شكرت سليم وزوجته الودودة ونمت ليلتها نومٌ عميقًا بعد ثلاث ليالٍ من القلق وتوتر التسكع وارتباك الساعة البيولوجية، ثم قضيت اليوم التالي – تصادف أنه عطلة رسمية في ذكرى مولد مارتن لوثر كنج – متسكعًا في وسط المدينة، وفي الليل جلست أعد أوراقي حيث كان علينا إنهاء إجراءات المكتب الثقافي في الصباح وأن نكون في كامل يقظتنا ولياقتنا.

توجهنا مع بداية النهار للمكتب، اجتمع بنا المستشار الثقافي

وألقى كلمات الترحيب مشفوعة بنصائح الالتزام بتمثيل وجه مصرالمشرف، وأوضح أن لكل مجموعة ضابط اتصال يتولى شئونها، وكان من نصيبي سيدة أمريكية نحيفة في منتصف عقدها الثالث، ترتدي أزياء أقرب لملابس بنات ثانوي، وعندما طلبت جوازات سفرنا أعطيتها جوازي حتى تناولني شيكًا بمبلغ التأثيث وراتب شهر كغيري، فإذا بها تصرخ في وجهي: ما هذا؟ أنت لم تدخل أمريكا، أنت مشكلتك كبيرة جدًا! انزعجت وسألتها مستفسرًا:

ماذا تقصدين؟ ألست أمامك هنا في واشنطن؟ فأجابت بجدية وتجهم مخيفين: أنا جادة لا توجد تأشيرة دخول، لن أتمكن من إتمام إجراءاتك قبل الحصول عليها، حاولت التماسك وقلت لها بأقصى قدر من الهدوء: حسنًا ما المطلوب لأحصل عليها؟ استدارت ورمقتني بنظرة تهكم مستفزة وأجابت بسخرية: أبدًا ما عليك سوى الذهاب لإدارة الجوازات والجنسية، قلت محاولاً الحفاظ على هدوئي: ما المشكلة إذن؟ أين السيارة الخاصة بالمكتب؟ فأجابت برعونة أحكمت حولي دائرة الاستفزاز: السيارة تخص السيد المستشار فقط!

نفد صبري من تهكمها وظهور مشكلة لم أحسب لها حسابًا، وقلت بصوت عال بعض الشيء: سيدتي إن كنتِ لا تعرفين هذه السيارة ملك المكتب والمبعوثين لا المستشار ولا غيره، ارتفع صوتي حتى أن إحسان صديقة زوجتي التي تعمل بالمكتب هرعت إليّ تلومني: أرجوك يا عزت ما يصحش الأسلوب ده هنا، فقلت محاولاً خفض صوتي للحد الأدنى: شوفي الحيزبونة ليز دي بتقول إيه؟ يعني إيه سيارة المكتب خاصة بالمستشار الثقافي؟ ردت إحسان: أيوه

كلامها صحيح! فقلت: لا يا ست الكل مش صحيح إلا على سبيل العُرف، لكن حق ربنا إن العربية دي ملك الدولة إللي أنا مبعوث منها، أنا مش متسول، وبعدين أنا ما أعرفش مكان محطة المترو ولا مكتب الجوزات بتاعكم ده يبقى فين، فسحبتني من يدي وقالت هامسة: اسمع، السواق دلوقت في استراحة الغدا، حتلاقيه تحت في البدروم، اسمه إبراهيم اسأل عليه واتصرف معاه بطريقتك، هدأت وقلت: أهو ده الكلام متشكرين وآسفين للإزعاج، فابتسمت وقالت: ربنا يكون في عونك يا فردوس.

سألت موظفة الاستقبال الإيرانية الجالسة- في بهو المكتب بجمالها الأخاذ وابتسامتها الساحرة: لو سمحت أين أجد إبراهيم؟ أشارت لردهة خلف مكتبها تنتهي بسلم وقالت: ستجده في نهاية السلم، وجدته يشرب الشاي مسترخيًا، ألقيت عليه السلام وحكيت له الحكاية فنظر إلي لبرهة متفحصًا وقال: على خيرة الله يا دكتور أنا حأوصلك هناك وأروح أخلص مصلحة للمستشار، وأنا راجع حأعدي عليك لقيتك خلّصت خير وبركة، ولو إني أشك إنك تقدر تخلص المشكلة دي قبل يومين، وإذا ما لقتكش خلّصت حأكون عرّفتك منين تركب المترو عشان ترجع لوحدك، ماشي؟ وافقته طبعًا وقلت له: الله يكرمك يا عم إبراهيم هونت عليّ الهم، إللي اسمها ليز دي عكرت دمي، ضحك من قلبه وقال لي: هو إنت قرعتك جت مع ليز؟ الله يكون في عونك.

انطلق إبراهيم الإسكندراني الأسمر بشاربه الذي يرقد وادعًا فوق شفتيه الغليظتين، بعينيه اللتين تنبئان عن طيبة قلب بلمعة شقاوة ولاد البلد، تبادلنا حديثًا وديًا عن بحري وبنات بحري وتضاحكنا

ونحن ندخن ونسترجع معًا جمال إسكندرية ولياليها، ثم تركني عند بوابة إدارة الجوازات والجنسية مشيرًا لموقع محطة المترو، مؤكدًا على عودته بعد ساعة.

استدرت لأواجه مصيري مع بيروقراطية العم سام، تحركت باتجاه موظفي الإدارة، وجدت أغلبهم من النساء السود يرتدين زيًا موحدًا مكونًا من بلوزة لبني وجونلة كحلي قصيرة ملتصقة بالأرداف، يتمتعن بقدر لا بأس به من ضيق الصدر والأفق معًا، يفرضن سيطرة كاملة على الإدارة التي تعج بكل لون وجنس من البشر، الجالسين على المقاعد القليلة المتاحة أو مفترشين الأرض في حالة من البؤس لا لبس فيها، أغلبهن من النساء، بعضهن متكئات على ظهور المقاعد يرضعن صغارهن، وبعضهن تغط في نوم أهل الكهف في انتظار بشارة لا تأتي، بينما البعض منهن يتأملن ما يجري حولهن في بلاهة من لا يدري ما تخبئه له الأقدار، الشيء الوحيد المميز كان الأرضية اللامعة والسكون المطبق، وطابور طويل للنساء يقابله طابور للرجال يتحركون خلف بعضهم في مربع ناقص ضلعًا، تحده حبال حمراء تقليدية بقواعد نحاسية، وكأن كل شيء على ما يرام!

عنّ لي أن أسأل الموظفة الجالسة على مكتب تراقب ما يدور بزيها الرسمي ووجهها اللامع السواد وشفتيها الملطخة بالأحمر الصارخ وفكها الشبيه بفك الذئاب: سيدتي أين يمكنني أن أجد حلاً لمشكلتي؟ وقبل أن أوضح قاطعتني بحدة دون نظر إليّ مصدرة تعليماتها بالالتزام بالدور وسبابتها تشير إلى الواقفين! توجهت صاغرًا حتى جاء دوري وشرعت أشرح مشكلتي للضابطة السوداء الجالسة خلف الشباك الزجاجي مناولاً إياها أوراقي، نظرت فيها

بتأفف وقالت دون تفكير: عليك بالذهاب لمدير المكتب، وأشارت هي الأخرى بسبابتها إلى ممر شبه مظلم بلهجة آمرة لا تحتمل تعقيبًا ونادت: إللي بعده.

في مدخل الممر لمحت طابورًا قصيرًا وقفت فيه حتى وصلت للشباك يجلس خلفه رجل، استبشرت خيرًا فعلى الأقل هناك رجل في مستعمرة النساء السود هذه وسألته: أين مكتب المدير لو سمحت؟ فأشار لباب أمامه مباشرة، وقفت وحدي مع فتاتين، إحداهن دخلت لتجلس في استراحة تؤدي إلى مكتب المدير، وتقدمت الأخرى خطوة وأنا خلفها، ملامحها لا تخلو من أنوثة شرقية وثقة بالنفس مع تضاريس لا بأس بها أبدًا، بادرتها بحديث عن ملل الانتظار فردت بكلمات مقتضبة وتقليدية، سألتها من أين؟ قالت: من تونس وذكرت أن مدة إقامتها في بلاد العم سام قصيرة، ثم أضافت تعليقات لاذعة عن البيروقراطية الأمريكية الغبية وأولئك الموظفين الرسميين الذين يصرون على إبداء كل أشكال القسوة والصرامة باعتبارهم حماة أمن أمريكا ونظامها الذي جعل منها فردوس العالم!

مر الوقت بسلاسة وجلست على المقعد في مواجهة باب المكتب، فأنا التالي في كشف المقابلة الميمونة مع المدير، متحسباً لأسئلة لا أعرف لها إجابات مقنعة، حتى أنني تخيلت أنه سيطلب وضعي على جهاز كشف الكذب بعد الزج بي في تخشيبة ما، فُتح الباب وخرجت التونسية الحسناء، وقف يودعها ببذلته الأنيقة التي تخلى عن سترتها، وحياني بوجه أبيض ناصع الحمرة وشعر أصفر مصطف على جبهته في رصانة وقال بأدب واضح: هلا تفضلت بالدخول، جلست قبالته فبادر: ماذا يمكنني أن أفعل لك؟ قلت

بهدوء: من حسن الطالع أن تسبقني تلك الجسناء التي لا بد خففت من عناء مقابلات السخفاء أمثالي، تعجب من مدخلي للحوار ولم يعلق سوى بابتسامة رسمية مناسبة وقال: حسنًا كيف يمكنني مساعدتك؟

كان مشهد الرجل الأبيض بوجهه المشرب بالحمرة، ومن خلفه الحديقة الصغيرة الملحقة بمكتبه الأنيق، وضوء النهار المتسرب كفيلاً بأن يزيح عني ثقل الردهات المعتمة، قلت: سيدي ما حدث يبدو غريبًا لكنه حدث بالفعل، وسردت له ما جرى بأقصى قدر من الواقعية والإيجاز منذ لحظة هبوطي بمطار كينيدي حتى مقابلتي الأخت ليز، مبديًا كامل استيائي من تهكمها وتعقيدها للمشكلة، موضحًا أنني في النهاية طالب بعثة حكومية ولا يوجد لدي أي دافع لتجاوز القانون، لكن ما حدث قد حدث كما تقولون، فما رأيك أنت؟

اعتدل الرجل في جلسته وظل يتفحص الأوراق ويقلب صفحات الجواز بحثاً عن شبهة تأشيرة متطلعًا إليّ بكثير من الريبة، تعلو وجهه دهشة أقرب إلى الصدمة ثم نطق أخيرًا:

هذه هي المرة الأولى في حياتي، أنا أعمل بهذه الإدارة منذ عشرة أعوام ولم يصادفني مثل هذا الموقف أبدًا، المفروض أن الإجراءات الأمنية هذه الأيام في ذروتها، ولا أفهم كيف حدث ذلك؟ كيف مررت من البوابات؟ هذا هو المستحيل بعينه! قلت وقد حزمت أمري بعد أن تبين لي استحالة حل المشكلة: لاعليك سيدي، فكما تقولون هناك دائمًا مرة أولى، وعلى أية حال التأشيرة التي أصدرتها سفارة بلادكم بالقاهرة ليست مزورة كما ترى، الحقيقة أن الأمر أسهل مما يبدو لك، وإذا كان مستحيلاً أن تمنحني التأشيرة فلا بأس،

صحيح أنني سأفقد المنحة والبعثة، لكن لن يبقى لي ما أخسره، أليس كذلك؟ هز رأسه بالإيجاب وكأن الأمر انتهى عند هذا الحد!

استجمعت قدرتي على التفاوض للوصول لحل أيًا كان وقلت: حسنًا لا تشغل بالك، لم يعد لدي حل آخر سأخرج من هنا – وتناولت أوراقي وجواز سفري من أمامه– وأذهب لأقرب محامٍ لأطلب منه التقدم بشكوى ضد الحكومة الأمريكية، مدعيًا أنني مقيم هنا منذ عشر سنوات وفقدت جواز سفري وسأطلب منه رفع دعوى لطلب الحصول على الجنسية، أتعرف؟ لن يكلفني الأمر أكثر من ثلاثة أو خمسة آلاف دولار على الأكثر، وحوالي ستة أشهر سأقضيها كيفما اتفق لدى معارفي في أمريكا، وسأعمل في سوق العمل السوداء، أقصاها سنة وأحصل على جنسية سليمة وأعدك ان تكون أول المدعوين في حفل حلف اليمين، نظر إلي مذهولاً ومنزعجًا، وشعر كأنه فأر سقط في مصيدة من صنع بلاده، فقال بعد أن تأملني ليتأكد من جديتي:

من أين عرفت كل هذه التفاصيل؟ فقلت ممعنًا في التحدي: أليس ما قلته سليمًا قانونيًا؟ لم يعلق لكنه أردف: حسنًا يبدو لي أنك شخص صادق سأمنحك تأشيرة دخول بتاريخ اليوم، ويمكنك أن تعتبر نفسك دخلت أمريكا الآن فقط، أما الأيام الثلاثة الماضية فقد كنت فيها ضيفًا على العم سام، ثم أخرج خاتمه الحكومي الموقر ورصع به جواز سفري وسأل: ها قد منحتك تأشيرتك، قل لي من أين لك المعرفة بمثل هذه الأمور؟ أجبته وقد تأكد نجاحي في هز ثقته بنفسه وبنظام بلده: من أفلام هوليود وذكريات العائدين لمصر من بلدكم، وما أقرأه في الصحف! تمنى لي التوفيق وهو ينعي حظه التعس الذي أوقعه في هذه الوردية ليقابلني ويجبر على منحي التأشيرة بعد واقعة تدل على تقصير أمني مخيف،

في واحد من أشهر مطارات الدنيا وأكثرها استقبالاً للوافدين من كافة أرجاء المعمورة، في ظروف استثنائية تفرض أقصى درجات اليقظة الأمنية!

خرجت وفي يدي دليل حي على عجز أمني يمحو أسطورة أمريكا المحصنة ضد أي اختراق، وإن كان في أمر تافه لا يمكن لمن كان على شاكلتي أن يستغله، وعقدت رغمًا عني مقارنة سريعة بين هذه البلاهة الأمنية التي صادفتني وبين ما تعرضه الشاشات من ضربات جوية مهولة، وعبقرية صواريخ كروز في إصابة أهدافها، وصواريخ الباتريوت الشبيهة بخيالات المآتة وهي تطارد صواريخ سكود العراقية في مشهد عبثي، وأعادتني المقارنة للسجالات حول الحرب، ثم لمحت إبراهيم على باب الجوازات يبحث عني، وعندما وقعت عيناه عليّ سألني: خلصت ولاّ إيه؟ فقلت له منتشيًا: طبعاً أمال إنت فاكر إيه؟ هو إحنا شوية في البلد، تأبط ذراعي ضاحكًا وهو يقول: صحيح المصريين دول فراعنة، عارف يا دكتور حل مشكلتك دي ياخد له بالميت تلات أيام، والله براوة عليك يا أبو الدكاترة، تضاحكنا طوال الطريق وأنا أبالغ في استهزائي بالإجراءات والقوانين في أمريكا قائلاً بثقة وبعض من غرور: كل الحكاية تبقى عارف حقك فين وما تتهزش، يقوم الزبون مهما كان يتلبخ، حتى لو كان أمريكاني ابن أمريكان لحد سابع جد كاوبوي يعني، هأهأ.

عندما رأتني ليز واقفاً أمامها قبل نهاية ساعات العمل الرسمية أناولها جواز السفر مختومًا بتأشيرة دخول بتاريخ اليوم صرخت: ماذا؟ كيف حدث هذا؟ وارتبكت بشكل واضح وهي تقول متلعثمة

ماذا تريد الآن؟ جلست متيقنًا أنها تحت تأثير الصدمة وقلت: أريد إنهاء الإجراءات، وأفضّل اللحاق بطائرة تقلني لبوسطن هذا المساء، أسقط في يدها وانكبت في صمت على الأوراق تنهيها واتصلت بالجامعة وشركة الطيران حتى انتهى كل المطلوب في الرابعة عصرًا وقد سلمتني التذكرة والشيك وهي تقول بلهجة صارمة لم يعد لها أي معنى:

سيكون هناك من ينتظرك بالمطار عند وصولك، وبعد أن تستقرعليك الاتصال بالمشرف المسئول عنك / أبو صالح المصري، هذا عنوانه وأرقام تليفوناته. نزلت السلم بعد أن ودعت إحسان، والتقطت أنفاسي بعد كابوس أطبق على صدري، ثم عرجت على فاطمة الإيرانية لأشكرها على كل شيء، خصوصًا ابتسامتها الساحرة التي كانت عونًا لي على تحمل غباء ليز وقلت لها: لو كان الأمر بيدي لبقيت هنا معك يا ملاكي لكن ما باليد حيلة إلى اللقاء.

تاهت خطواتي في ردهات مطار واشنطن بعد أن أوصلني سليم، حاصرني الزحام ببانوراما الوجوه المتنافرة، وأصوات الصياح، لكنني أدرت مؤشر الصوت الداخلي حتى تلاشت الأصوات، ولم يبق سوى صوت نحيب امرأتي ساعة الرحيل، ثم تخافت الصوت تدريجيًا وصارت الوجوه أشباحًا هائمة، وأنا في شبه غيبوبة لم أفق منها إلا على صوت الإذاعة ينادي على ركاب الطائرة المتجهة إلى بوسطن في الرحلة رقم 156، دخلت من البوابة للأنبوب الزجاجي بأرضيته الخشبية التي تنتهي بباب حديد نزلنا منه لأرض المطار مترجلين حيث تقبع طائرة متواضعة الحجم في الظلام الذي أحاط بنا، وخلال دقائق انتظم ركابها الخمسون في

مقاعدهم وربطوا الأحزمة، وزمجرت محركات الطائرة مصحوبة بابتسامة متقنة وزعتها المضيفة الشقراء على الركاب بالتساوي.

استغرقت الرحلة ساعتين لم أتمكن خلالهما أن أغفو أو أقتل الوقت بالحديث مع جاري، الذي كان في حلته المتأنقة ومعطفه الملقى على فخذيه وجريدته التي لم ينقطع عن مطالعتها إلا لتناول العصير وابتلاع حبات السوداني، كمن يتعجل العودة لأهل كوكبه البعيد منتفخ الأوداج طويل القامة والرقبة كرواد البارات في أفلام الويسترن، انشغلت عنه بمتابعة المضيفة تلبي طلبات الركاب التافهة بكل حماس، لا تفارقها ابتسامة تعاني للحفاظ عليها، وزاد من إحساسي بالضيق المسافات المختصرة بين المقاعد، ولم يخفف جسدها البض باهتزازته المثيرة من حنقي على الرفقة الباردة للكاوبوي الجالس إلى جواري كما الصنم!

أخيرًا وصلت الطائرة، توجهت حاملاً حقائبي على السلالم المتحركة إلى صالة الوصول المتواضعة، باحثًا خلف زجاج البهو الخارجي عن أي ملامح مصرية للزميل الذي قيل إنه في انتظاري، مضت دقائق حتى تقدم مني ملقيًا عليّ التحية، تعارفنا سريعًا متجهين إلى ساحة انتظار السيارات بالدور الخامس وانطلقنا، فبادرني: هل تدخن؟ أجبته فرحًا: بالتأكيد، شرعنا ندخن بينما نجتاز البوابة إلى الطريق بعد أن ألقى بعملة معدنية في سلة معدة لتلقي رسوم الانتظار، وتحدث معي متسائلاً إن كنت أنوي إحضار زوجتي، ونصحني بذلك بعد أن ذكرت له أنها حامل، وقال بثقة واضحة:

إذا صادفتكم أية متاعب حنحلها مع بعض، كل المطلوب أن

تتخذ القرار بمجرد استقرار أمورك في الجامعة ثم أردف: عمومًا يمكنك هنا أن تحقق كل ما تحلم به، عليك أن تسلك طرقًا مختصرة وانس كل ما رددوه عليك من محاذير في مصر، أحسست براحة وتفاؤل ورحت أتأمل مدينة بوسطن التي سأقضي فيها فترة البعثة، وجدتها أقرب للمدن القديمة منها إلى مظاهر الحداثة، بإستثناء ضخامة بعض مبانيها وقليل من ناطحات سحاب مررنا بها، وفتشت عن بداية أخرى لتبادل الحديث مع الهواري، فعاجلني ويدأ يشرح ما خبره من تفاصيل الحياة في المدينة وكأنه عاش عمره كله فيها، فهو طبيب أسنان قضى ما يزيد على عام من عمر بعثته لإتمام شهادة الدكتوراه، وسبق له السفر إلى الصين لمدة عام، وذكر أنه حاصل على بكالوريوس معهد السينما إضافة إلى بكالوريوس طب الأسنان، وأن له عيادة بحي الهرم بجوار مسرح سيد درويش يعالج فيها أصدقاءه من الفنانين.

وصلنا لمنزل أحد الزملاء بعد أن سرنا بمحاذاة شاطئ المحيط الأطلنطي قبل الغروب بقليل، حملنا الحقائب معًا ودخلنا من بوابة خشبية تفضي إلى سلم خشبي، وبمجرد دخولنا من باب الشقة أدركت تواضع مساحتها وأثاثها الأكثر تواضعًا، تجاهلت الأمر وقبلت دعوته على فنجان قهوة كنت أتوق إليه، بدأ في إجراء اتصالات محاولاً تدبير مسكنًا يأويني قبل أن يهجم الليل الذي بدأت جحافله تلوح من نافذة الصالة الوحيدة، استقر الأمر بعد مفاوضات قام بها بحماس على شقة أستوديو تملكها أستاذة بالجامعة من أصل إيراني اسمها صوفاي، إستهواني الاسم وتخيلت صاحبته ممشوقة القوام سوداء العينين في الأربعينيات، وقبل أن أسرف في خيالي سرد الهواري التفاصيل ببساطة: صوفاي

أستاذة باثولوجي في الجامعة، تجاوزت الأربعين بقليل ومتزوجة من رجل أعمال إيراني، تعيش هنا في بوسطن، ولها ولدان تعيش معهما بعد انفصالها، ولها علاقات برجال النفوذ والسلطة في المجتمع، وتملك عدة وحدات سكنية تؤجرها لطلاب الجامعة، والأهم أنها صديقة الأستاذ / أبو صالح المصري المشرف على شئون الطلاب الأجانب بالجامعة يعني عمنا كلنا، باختصار كن حريصًا في حديثك معها.

دعاني بعد الاطمئنان على مسألة إقامتي لتناول وجبة سمك سريعة في مطعم على ضفاف الأطلنطي بضاحية ريفير، التهمناها ووصلنا في الموعد، وجدناها تركن سيارتها أمام المنزل، ألقت علينا التحية، دخلنا خلفها من البوابة التي أفضت لممر قصير حتى الاستديو بالدور الأرضي، وهي تشرح الخطوات الواجب إتباعها عند الدخول والخروج، وكيفية فتح وغلق الأبواب، مع توضيح الأهمية القصوى لذلك حرصًا على أمني الشخصي وأمن الجيران، لم أعبأ كثيرًا بالتفاصيل لأني أرفض العيش على حافة الرعب خوفًا من هجوم غالبًا لن يحدث، وتشاغلت عن كلماتها الصارمة بتأملها فوجدتها لا تبتعد كثيرًا عما تخيلته.

أضاءت مدخل الأستوديو فتبينت ضيق المساحة وإن بدت حميمة، أقرب ما تكون لحجرتي في مصر، منضدة صغيرة تصلح لتناول أربعة أفراد طعامهم وهو أكثر من المطلوب بطبيعة الحال، ثم كنبة تفتح لتصبح سريرًا ينام عليه فرد أو فردان متلاصقين، أمامها كرسي فوتيه ومكتب يطل على النافذة الوحيدة بالمكان، تحجبها بالكاد عن الشارع ستارة معدنية، وعلى المكتب أباجورة

لطيفة، وعلى يمين المدخل حوض المطبخ، ومن فوقه رفوف لحفظ أدوات المائدة والأطعمة الجافة، أسفله دولاب لحفظ القمامة وأدوات النظافة، وبجوار الحوض مايكروويف لتسخين الوجبات، وشددت صوفاي على ضرورة الحفاظ على نظافة المكان، ومواعيد إخراج أكياس المخلفات في الأيام المحددة لذلك، ثم استدارت لتضيء ممرًا ضيقًا به دولاب لحفظ الملابس بارتفاع مترين، ومنه إلى حمام وكابينة بها دش للاستحمام، أومأت موافقًا دون تردد على استئجار المكان: هذا ما أحتاجه بالضبط، ودفعت إيجار شهرين نقدًا فأعطتني إيصالاً بالمبلغ بتاريخ 23 يناير 1991، وقبل أن تغادر دعاها الهواري لتشرب فنجانًا من القهوة، فأجابت: شكرًا لكن عليّ إعداد العشاء، وهو يستغرق خمسة وخمسين دقيقة، وقد تأخر الوقت.

قال الهواري متعجبًا: شفت الولية المهووسة دي، ما كانتش قادرة تقول تحضير العشا بياخد ساعة، أما عجايب على البشر دول، بيتعاملوا مع الوقت بحرص مبالغ فيه! أجبته مشفقًا: إن جيت للحق يا عمنا هو الوقت كده فعلاً لازم تحافظ عليه وإلا ياكلك ويأكل عمرك، لكن إحنا ما اتعودناش نستسلم لسلطانه وعشان كده بيضيع مننا العمر أونطة!

أفرغت حقائبي بينما كان الهواري يشرب قهوته، وقمت بتهيئة المكان لإقامتي الأولى في بلاد العم سام، ودعاني لتناول العشاء، رحبت بالدعوة حتى لا أشغل بالي بتجهيز وجبة، انطلق الهواري ينهب الطريق بسرعة جنونية - كإيقاع الحياة في بلد الطرق السريعة والوجبات السريعة – وقد قاربت الساعة على العاشرة

مساء.

دخلنا المطعم، لم يكن هناك سوى ثلاثة رواد، ألقى الهواري التحية بالعربية عليهم وعلى صاحب المطعم الجالس في المدخل، واختار الهواري طاولة ثم اتجه للواقف خلف الثلاجة ليطلب العشاء، حملناه وعدنا للطاولة، حيث انهمكت في التهام أول وجبة ساخنة منذ وصولي؛ شوربة وخضار ورز ولحمة، وأشار صاحبي لرجل يجلس قبالتنا وقال: هذا عبد الله المشّاي من الرواد الدائمين، لن تأتي هنا إلا وتجده في ذات الركن على ذات الطاولة، هو ليبي جاء من سنين طويلة للحصول على دكتوراه لم يحصل عليها طبعًا، ومن يومها وهو يعقد صفقات وهمية مع من يعرفهم أو يتعرف عليهم، ويعيش على إعانة البطالة بعد أن حصل على الجنسية، ولا يمارس عملاً حقيقيًا إلا فيما ندر! تأملت صاحبنا الليبي ودارت برأسي أسئلة عن العمر الضائع، ونموذج المهاجر الذي يفشل ولا يتأقلم مع واقع الحياة، ويكتفي بالبقاء واحدًا من آلاف التائهين في ضلالة الحلم، في مجتمع لا يعترف إلا بالقادرين على حل شفرته!

عدت لحجرتي التي استأجرتها لتوي، وقد أنعشني الهواء البارد الذي لم يعكر صفوه سوى سرعة صاحبي الجنونية الذي علت وجهه علامات ارتياح من قام بواجبه، أعطاني رقم تليفونه لأتصل به إن احتجت شيئًا، فتحت الأبواب وأغلقتها دوني وفقًا لتعليمات الحاجة / صوفاي، ثم ألقيت بجسدي المتعب على الفوتيه لاستراحة قصيرة، توجهت بعدها لأخذ حمام ساخن، استسلمت بعده لنوم عميق، وفي الصباح اتصلت بشركة التليفونات طالبًا الحصول على خط خاص متبعًا تعليمات الهواري؛ الاتصال بالدليل ليحولني

للجهة المطلوبة، أبلغت الموظف بياناتي والعنوان فأبلغني أن عامل التركيبات سيكون عندي غدًا صباحًا قبل العاشرة على أقصى تقدير، إن لم يكن بين الرابعة والخامسة من عصر اليوم، قلت لنفسي: سبحان الله، هكذا ببساطة دون تقديم طلب ولا دمغة ولا بطاقة هوية، كل ما قلته إني هنا للدراسة، ويا للعجب صدقني الرجل، وبالفعل تم التركيب في الصباح، وذكر الفني - دون انتظار للبقشيش- أن الشركة ستتصل بي خلال ساعة للتأكد من سلامة الخط، وللحق كان سليمًا معافى بالغ الرشد والأهلية.

بعد هذه الخطوة العملاقة، خرجت لتنسم الهواء، فكان أول من قابلت سيدة ترتدي سترة واقية من الثلج تجر عربة أطفال، يجلس فيها طفل يرتدي سترته هو الآخر متأملاً في هدوء وسكينة، وإلى جوارهما ابنتها بوجه ملائكي وشعر ذهبي ينساب من تحت غطاء الرأس الأبيض وكأنه هالة من نور، ومن خلفهم يسير كلبهم بخطى مطمئنة، أوحى المشهد بنهار تقليدي في مدينة وادعة، بينما بعض العاطلين – طالما أنهم في الشارع حتى الآن – يتسكعون متناثرين.

يا ترى أين يمكنني تناول الإفطار وشرب فنجان قهوة وقراءة جريدة؟ درت حول البيت حتى وجدت ضالتي، مقهى يتناول فيه الجميع إفطارهم، دخلت وعلقت المعطف على كتف المقعد، وشرعت في تصفح الجريدة، ها أنا أتمتع بإفطاري وقهوتي وسيجارتي وجريدتي، بعدها قمت بجولة في الشوارع المحيطة بالبيت الكائن في 14 شارع "بيتس" بوسطن، ولاية ماساشوستس، مرورًا ببعض حانات المتع الرخيصة، ومسرح صغير، ومحلات

بقالة، وحلاق، ومحل لإصلاح الأحذية، حتى ينتهي عند تقاطع ثلاثة شوارع، شارع ينفتح على آخر شديد الاتساع، ومن ذات الزاوية بانحراف بسيط بناية ضخمة ذات واجهات زجاجية زرقاء اللون قمتها على هيئة ثلاثة مثلثات وهي مقر المكتبة الوطنية، وحول المكتبة محلات لبيع الطعام ومقاه والعديد من المكتبات الخاصة ببيع الكتب وأدوات الكتابة والرسم، اشتريت بلوك نوت واسكتش لزوم الشخبطة، تسكعت قليلاً متأملاً الحسناوات، ثم ذهبت للطرف الآخر.

عدت لنقطة التقاء الشوارع الثلاثة حيث بناية مهيبة لكنيسة من أقدم كنائس أمريكا تبدو كالقلعة، مبنية من حجارة ناصعة البياض، ولها سقف عبارة عن أربعة أركان حجرية كل ركن منها على هيئة منشور مدبب، وعلى الباب الخارجي لافتة تفيد بأنها شيدت عام 1839، ثم عبرت الطريق للرصيف المقابل لألقي نظرة على المبنى من بعيد، فتلألأت الأحجار البيضاء في ضوء النهار كألواح من المرمر، وصارت تلك الكنيسة معلمًا محببًا لقلبي.

غلبني شعور بجوع مفاجئ فدخلت أول مقهى قابلني، حيث كونتر ممتد على طول المكان يقف خلفه النادل، وأمامه أربعة مناضد، فضلت الوقوف شاخصًا ببصري من الباب الذي يطل على موقف لسيارات النقل البري بين الولايات بعلامتها المميزة لحيوان بري محلي، ربما كان ثعلبًا أو ذئبًا أو ابن آوى منطلقًا بسرعة الفهد، وظللت أذكر نفسي بضرورة السؤال عن اسم هذا الحيوان وموطنه الأصلي طوال إقامتي لكني لم أفعل! تناولت وجبة من "الهوت دوج" مع البطاطس المقلية " فرينش

فرايز "، وتوافد الرواد ما بين سائق لسيارة على وشك الإقلاع، أو راكب في انتظار الإعلان عن قيام السيارة من خلال الإذاعة الداخلية، وشعرت - ربما لحساسية قدومي حديثًا للبلد - كأن الناس تفترسني بعيونها، وقلت ربما كان المكان خاصًا بالسائقين وأصدقائهم، فالجميع هنا يحيون بعضهم بعضًا.

دخلت امرأة من الأقزام اعتلت بخفة المقعد العالي، وعلى الفور قدم لها النادل مشروبها المعتاد، وقد وضعت من الأصباغ ما يكشف عن جمال لا تخطئه العين، ورغم قصر قامتها كان جسمها متناسقًا، ترتدي فستانًا ضيقًا يكشف فخذين لا بأس بهما إطلاقًا وإن كانا بنصف الطول المطلوب! ناحية الطاولات رأيت رجلاً أسود مفتول العضلات شاحب الوجه، ذقنه طويلة كشعره، بصحبة فتاة ذات شعر أحمر وجسد مرمري ذكرني بالممثلة "ريتا هيوارث"، تداعبه وتلثم خديه بقبلات شبقة وقدماها تعتليان قدميه في وضع عناق وهو معرض عنها، ثم دخل رجل جلس إلى جوار المرأة القزمة بعد أن حياها بقبلة عابرة، ولم ينظر تجاه مرآة المكان بل رأسًا في اتجاه المنضدة المقابلة له، يحتسي مشروبه في صمت بائس، وقد حفرت الوحدة في وجهه أخاديد مثل عجائز البحارة اليونانيين، ثم شعرت بنظرات تتفحصني من رجلين يقفان أمام الكونتر يتبادلان الحديث وعيونهم مسلطة على العبد الفقير إلى الله، قمت بدفع حسابي وألقيت نظرة أخيرة، نظرة من لم يتأثر بالمشهد برمته.

اتجهت إلى الشارع، حيث كان للثلج المتساقط طزاجة ملأت خياشيم لهفتي وحفزتني لرؤية المزيد، وعند الناصية التالية سرت يسارًا حيث وجدت محلات لبيع الآلات الموسيقية، والملابس

الجلدية، وشركات سياحة وطيران، ومحل أجهزة كهربية دخلته وتحدثت مع البائعين فيه - من المسلمين المهاجرين من باكستان- وخرجت سعيدًا بجهاز التلفزيون والكاسيت اللذين فزت بهما بسعر يناسبني، وعدت للبيت حاملاً أشيائي عازمًا على الاتصال بفردوس في بعد منتصف الليل.

لم يكن الليل طويلاً كعادته، فقد قضيته متأملاً الشارع من خلف الستارة المعدنية، مرسلاً ضوء المصابيح ممزوجًا برائحة الثلج والوحدة، وفي الصباح اتصلت بمكتب أبو صالح المصري وتحدد لي موعد في الثالثة ظهرًا، تناولت قهوتي محاولاً السيطرة على مشاعر الخوف والقلق من المقابلة، فقد أبلغتني إحسان في المكتب الثقافي أنه فلسطيني، وطبيعي سيذيقني ألوانًا من العنت لم ولن أعهد مثله في حياتي، وأضافت لتؤكد المعلومة: هذه عادة "الإخوة" الفلسطينيين مع "إخوانهم" المصريين، خصوصًا بعد توتر حرب الخليج وانقسام العرب لفريقين، فريق يؤيد صدام على خطوته الميمونة ومنهم الفلسطينيون واليمنيون، وفريق يناصر الشرعية الدولية ممثلة في عاصفة الصحراء ومنهم المصريون، شعرت بمرارة مكتومة وقلت: لا بأس أن أتجرع مرارة النزاعات القبلية والأيدلوجية بين الأشقاء العرب التي تنشأ لتتوالد دون مبرر منطقي، ألست أبنًا لتلك القبائل والأيديولوجيات، وفي الصباح تأهبت للخروج مستجمعًا طاقتي على المناورة لتجاوز أية تعقيدات قد يورطني فيها المشرف الفلسطيني!

الحالم رغم أنفه

توجهت من فوري لشاطئ المحيط لأُشهِدُه على حالي، فوجدته على حاله وحشًا أسطوريًا أو شبحًا مهيبًا يتشح بالسواد، وعندما أطبق على ناظريّ ابتعدت عنه تتملكني الرهبة، وقادتني خطواتي بمحاذاة الشاطئ لشوارع يسلم بعضها لبعض حتى غرب المدينة، ومن غربها إلى الوسط عبر جسر خشبي عتيق لعبور المشاة فوق بحيرة صناعية تتوسط الحديقة العامة لمدينة بوسطن.

علامات الصحة والحيوية تبدو جلية على وجوه الناس، يتقافزون في سيرهم، بالكاد تلمحهم، يتآلف خطوهم اللاهث مع إيقاع مجنون يطغى على مظاهر الحياة، حتى أنك ترى الوجوه عابرة بسرعة حد الصدمة: وجوه صفراء لذوي الأصول الآسيوية بشعرهم المنساب على الجباه، ووجوه الزنوج ذوي الأصول الإفريقية ببشرة بنية أو سوداء فاحمة مع أنف أفطس وشفاه غليظة وشعر أكرت أسود اللون، يضفر بمهارة في ضفائر تتزين بها النساء، ووجوه هنود تقترب بشرتهم البنية من السواد بشواربهم المميزة، يرتدي بعضهم زيًا تقليديًا لا تخطئه العين، وربما أطلق بعضهم لحيته إذا كان من طائفة السيخ ولفها في دوائر وحلقات أسفل عمامته، وبالطبع هناك الوجوه الأمريكية الغالبة، أوروبية الأصل من الجنس الأبيض الأنجلو ساكسون البروتستانت، أول من وطئت

أقدامهم العالم الجديد، وحطوا بمراكبهم هنا بميناء بوسطن أو "نيو إنجلاند"، أكثرهم من الإنجليز والإيطاليين بالإضافة إلى الأيرلنديين والبولنديين، يمتزج هذا الخليط المدهش مع الوافدين من أمريكا اللاتينية بملامحهم المميزة من المكسيك والبرازيل وغيرها، ذوي البشرة السمراء والوجوه الناعمة التي لا ينبت فيها الشعر إلا قليلاً، ويطلقون عليهم هنا تدليلاً اسم "أميجو" أي صديق.

يستنفر هذا الخليط فيك شعورًا تلقائيًا بأنك لاجئ وسط لاجئين، مهما حملوا من كروت صفراء أو خضراء أو الجنسية بجلالة قدرها، كل هذه الأصول تختفي عندما تحصل على الجنسية، وتصبح أمريكيًا تحيي العلم وتقسم بالولاء للدستور، وربما حاربت في جيوش على حاملات الطائرات مع جنود البحرية البواسل، لكن أصولك ستظل تطاردك حتى الممات، فأنت تظل قسرًا ملتصقًا بأبناء جلدتك، تشاركهم العادات والاحتفالات والسكنى في أغلب الأحوال، ويجب أن يكون لديك قرون استشعار لأي مظهر من مظاهر الاضطهاد، وعندها عليك أن تشهر كل ما تملك من أسلحة دفاعًا عن حقوقك العرقية، ويتضامن أبناء جلدتك معك بكل السبل، ولا يجمع هذا الخليط العجيب إلا الانتماء أو الادعاء بالانتماء لحلم مراوغ، وتحت لواء هذا الحلم صارت أمريكا قبلة المهاجرين الحالمين بالثروات ورغد الحياة في جنة المحرومين والمضطهدين، فالكل هنا غارق في وحل الحلم حتى أذنيه، تمامًا كما في كلمات أغنية المغني ذائع الصيت "كريس دي برج" عن البار الأمريكي، وهو مداح الحلم الأمريكي الغارق في خيالات المُخدِر.

وقفت أتأمل الوحش الأسطوري الأسود المهيب بينما الكل سائر في دربه لا يعير أحدًا كان اهتمامًا، وبحثت في وجه كل من مروا بي عن أحد يستوقف جارًا أو صديقًا أو زميلاً يحدثه ولو حديثًا عابرًا، أو حبيبة تسبقها عيناها باحثة عن حبيبها فلم أجد، هم في عجلة من أمرهم، ربما كانت على الوجوه ابتسامة مرسومة، وربما أرسلت الشفاه كلمات للتحية في تمتمة سريعة كالطلقات تنسجم مع وقع الخطو المتسارع.

مررت بمطعم يملكه ويديره يوناني في عقده الخامس - لابد أنه استقر هنا من زمن حتى يمتلك مطعمًا كهذا في قلب المدينة بشارع هاريسون- احتفظ الرجل باسمه اليوناني "خريستو" يتوسط واجهة المطعم، وأبقى على ابتسامة صافية يقابل بها الزبائن، يعد الوجبات بنفسه، تعاونه ابنته التي تتلقى الطلبات من الزبائن وتتولى تغليفها، طلبت فنجانًا من القهوة وجلست على إحدى الطاولات بحيث يمكنني متابعة الشارع، تناولت قهوتي وسيجارتين، متأملاً ملامح وجه ابنته المرمري وأنفها الإغريقي المدبب وشعرها الكستنائي منسابًا على كتفين عاريتين، هممت بالخروج فبادرت بتحيتي بذات الابتسامة الصافية، رددت التحية منتشيًا كمن التقى صدفة بصديق قديم لم يره من سنين، وشعرت باحتياجهم لمن يبتسم لهم ويبتسمون له وكأنها لغة الحوار الوحيدة.

توجهت لموعدي في البناية رقم 251 شارع هاريسون عند تقاطعه مع شارع واشنطن، امتطيت المصعد ذا الأبواب النحاسية البراقة حتى الدور العاشر، وتلقفتني ردهات طويلة متعامدة كادت

تبتلعني، طفت أبحث فيها عن لافتة مكتب شئون الطلاب الأجانب، كان مكتبًا أنيقًا به مكتبان متقابلان تجلس عليهما فتاتان؛ إحداهما في العشرينيات ملفوفة القوام بصدر ناهد وسيقان مصبوبة بإتقان، والأخرى على يمين الداخل ذات أصول لاتينية تشي باعتداد واضح بالنفس، ليست بالسمينة ولا النحيفة بل ممتلئة بالقدر المناسب في الأماكن المطلوبة، لم تستغرق نظرتي الأولى سوى ثوان، وحين انتبهت العشرينية لوجودي قالت: هل يمكنني مساعدتك؟ أظن ذلك، إجابة غير نمطية استرعت انتباه الجالسة إلى اليمين فقالت: إذن كيف ذلك؟ بأن تنقذيني من هذه المتاهة وتدليني على مكتب د. أبو صالح المصري، طلبت اسمي فأمليته عليها فانطلقت للداخل وعادت لتقول: إنه في انتظارك.

دخلت بخطى متكاسلة فوجدت الرجل جالسًا في طمأنينة خلف مكتبه، وجهه متماسك الأركان والزوايا كأنه منحوت، نظراته ثاقبة تنطلق بهدوء من خلف نظارته الطبية التي تزيده وقارًا، يرتدي بذلة راقية الذوق، قام من خلف مكتبه الضخم في مساحة الفراغ الكبيرة نسبيًا ومد يديه لمصافحتي مرحبًا: أهلاً وسهلاً حمد الله على السلامة، طمأنتني صيغة الترحيب العفوية وأردف: ها، الهواري قام بالواجب ولا قصّر معاك؟ أجبته: الحقيقة الراجل عمل الواجب وزيادة وأنا مدين له ولك بالطبع لإرساله لاستقبالي في المطار.

انفرجت أساريره وقال: ده أقل واجب نقدمه لولاد بلدنا. وكأني لم أسمع فسألته: حضرتك مصري؟ أجاب ضاحكًا: آمال أنت فاكر إيه؟ ده أنا صعيدي يا محترم يعني مصري بالثلث، إلا مصري دي، سار الحديث بعدها مسارًا وديًا، وسألني: إنت عايز تعمل إيه

بالضبط هنا؟ أجبته واثقًا: عايز أشتغل بإيدي، صحيح أنا دخلت امتحان المعادلة وسقطت، لكن بأحلم أتعلم المهنة على أصولها، فأجابني لما طلبت، وأعد لي برنامجًا تدريبيًا بحيث أُعامل كطالب في البكالوريوس ما يعني أن أمارس المهنة دون معادلات أو تأمين ضد أخطاء المهنة، سجل طلباتي بالبرامج التي رغبت في حضورها وقال: أنا لم أقدم هذا البرنامج لأحد من قبل، بس أنا حاسس إنك ابن بلد وأنا بأحب ولاد البلد، روح اتمتع بوقتك لحد ما أرتب لك كل حاجة مع الجامعة، وسار معي حتى الباب وهو يتأبط ذراعي ثم توقف مشيرًا للبنت العشرينية: دي سكرتيرتي الخاصة وما أحبش حد يشاركني فيها، باين عليك غاوي نسوان زي حالاتي، عندك كل نسوان بوسطن، بس سيب حريمي في حالهم ماشي يا أبو الرجالة. أجبت مبتسمًا: طبعًا يا دكتور، واختفيت من أمامه بسرعة البرق.

مرت أيام قضيتها مستمتعًا بالثلج المتساقط يوميًا، وقضاء الأمسيات بين الحانات التي صادفتها حتى جاءني اتصال لم يخطر لي على بال، من ابن خالتي عادل المهاجر إلى أمريكا من عشر سنوات وابن خالتي معتز الذي جاء في بعثة مثلي، تقريبًا قبلي بشهر، سألت معتز عرفت نمرة تليفوني منين؟ اتصلت بالجامعة وسألت عنك إدوهاني على طول، وأخذ مني عنوان البيت ووعدني بالزيارة قريبًا. صحيح معتز ابن خالتي، لكننا لم نتواصل إلا في المناسبات العائلية أو صدفة في شارع معروف حيث يسكن، ولطالما كانت عائلة أمي نموذجًا لعنصرية واضحة، لا بين دولة ودولة، ولا حكومة ضد أقلية، لكن عنصرية ضد أمي وخالي عبد الله بأصولهم السودانية من خالاتي الأربعة بأصولهن التركية،

ومعتز ابن كبراهن التي تلوي لسانها تيمنًا باللكنة الفرنسية، وكانت سمعة معتز في العائلة أنه يثور على أمه وأبيه ويكيل لهم السباب، وفي مقابلاتنا النادرة كان يَصِمُ العائلة كلها بالتخلف مستدلاً على ذلك بفقرهم! الحقيقة أنني لم أتفق يومًا مع معتز كما لم أختلف، لكني تحفظت دائمًا على مسار حياته، فهو يعمل مهندسًا في شركة فرنسية براتب مرتفع، وسافر للسعودية عدة سنوات، ولديه حساب في البنك وسيارة خاصة، ويرفض الزواج لعدم قدرته على تحمل تكاليف الزواج من فتاة من بنات العائلات!

فوجئت به في نهاية نهار السبت واقفًا على باب الأستوديو، معلنًا أنه اتفق مع عادل ابن خالتنا المقيم أن نذهب إليه في منزله، طردت ذكرياتي عن العائلة وقلت لنفسي: هنا من المنطقي أن نتقابل لا أن نتورط في خلافات الأهل، أعددت له قهوة شربها أثناء ارتدائي ملابسي، ثم ذهبنا لعادل شمال المدينة، قام بعد الترحيب بتقديمنا لصديقين، أحدهما إيراني والثاني مصري، يؤجران غرفتين في منزله إضافة إلى المستأجرين لباقي الغرف الأربعة الملحقة بالمنزل، ممن لحقوا بعادل من جيرانه وأصدقائه إلى أرض الأحلام، ثم قدمنا إلى زوجته الأمريكية ذات الأصل الإيطالي التي حضرت لتحيتنا مع ابنتهم سارة، لم نمكث بالمنزل طويلاً، إذ كنا ليلة السبت وهي ليلة اللهو، وتوجهنا في سيارة عادل إلى أحد ملاهي المدينة الذي كان علينا أن نصل إليه قبل الزحام.

صالة الرقص يتوسطها بار مستدير، وفي الخلفية شاشة تعرض أغاني راقصة، وأعلن عادل: اتصرفوا على حريتكم، اشربوا وارقصوا ما شاء لكم. انخرطت مع الآخرين في الرقص وقلت لنفسي: فرصة

أخرّج عفاريت الرحلة، وكان الرواد في حالة إثارة كما في حلقات الزار، الكل يحاول التخلص من عذابات نفسه بتحرير الجسد من قيوده، يناجي الأشباح الراقصة حوله، اعتلت الحلبة ثلاث فتيات يتراقصن معًا في نشوى واضحة، اقتربت لأراقصهن وأمسكت بيد أبرعهن في الرقص فأكملت رقصها معي وهي تسأل: أتسكن هنا؟ في الحقيقة لم أكن أعرف أين تقع هنا هذه، أجبت: لا أنا في زيارة لقريب لي وأشرت لعادل الذي كان يراقب المشهد، لكني أسكن بوسط المدينة وأتأهب للدراسة بجامعة "تافتس".

-

يجب على المرء في حلبات الرقص - أو الزار المودرن - أن يصرخ كي يسمعه الآخرون حيث تدق الطبول ويسري صداها في الأوردة سريان المخدر، وشعرت أن حوارنا لن يكتمل إلا بالخروج من حلبة الرقص، هدأت الموسيقى وانقلب الصخب إلى رومانسية فاقترحت هي أن نستريح قليلاً، دعوتها لقضاء الليلة بصحبتي أنا وعادل ومعتز فقالت: ربما في وقت لاحق، عمومًا نحن نحضر هنا أسبوعيًا ليلة السبت، قل لي أين تعلمت الرقص؟ فأجبت: قولي لي هل أنتِ إيطالية الأصل؟ فاجابت والدهشة بادية على وجهها: نعم، كيف عرفت ذلك؟ أولاً أجسام الإيطاليات قريبة من أجسام المصريات، كما أن أنفك المستقيم المدبب يوحي بأنك من أحفاد يوليوس قيصر، ضحكت وقالت: حديثك ممتع وأود البقاء لكن علي اللحاق بصديقاتي، وسألتها قبل أن تفر: لكن ماذا تعملين؟ فقالت: أنا أملك أستوديو خاص لتعليم الرقص في الطرف الآخر من المدينة؛ مدربة رقص وأعجبك رقصي هذا شرف كبير، لكن لا تنسي يا حفيدة قيصر نحن المصريون يجري في دمائنا حب الرقص والغناء، ما اسمك؟ جولي، سأسميك إذن جولي قيصر!

وأنت ما اسمك؟ عزت، أربكها الاسم، فقلت: لا بأس إن ناديتني "تيتوس" فقالت: لكنّ هذا اسم يوناني! أجبتها: نعم، فنحن لنا مع اليونانيين صلات قربى، لا بد أن نلتقي ثانية. بالتأكيد، إلى ليلة السبت الأسبوع القادم إذن، ربما تقابلنا يومًا عندي أو قد أزورك في جامعتك، إلى اللقاء.

تعجب عادل ومعتز أن أتركها بعد هذا الحديث الطويل نسبيًا، فقلت: مهلاً يا قوم الأمور لازم تيجي بشكل طبيعي وإلا بقت بايخة ودمها تقيل. قال عادل: إذن دعونا نغير المكان. على فين يا ترى؟ فقال بخبث واضح: دلوقت حتشوفوا!

ذهب بنا إلى صالة أخرى يتم ختم الداخل إليها بعلامة فوسفورية على ظهر يديه، تقدم عروض الإستربتيز، حيث تبدأ العارضات رقصهن بلباس شفاف كما في غرف النوم، ثم تتلوى وتتأوه حتى ينتهي بها الأمر كما ولدتها أمها، بينما المشاهدون تنتابهم حالة نشوى بلهاء وقد أصابتهم أجساد النساء الملتوية بالشبق، وممنوع على أي واحد الاقتراب منهن لأقل من مسافة محددة بسور، وإن كان مسموحًا لهم - بل ويُفضّل- إلقاء العملات للتحية مثل النقوط في الأفراح البلدي لكن على طريقة الخواجة، كله بالأصول يا مستر! والمثير للحيرة حقاً حالة الحرمان البادية في نظرات الحاضرين، ترى من أين أتي كل هذا الكبت في بلد الحرية؟!

بعد هذه السهرة تبين لي أن الغالبية هنا في حالة من الهوس بالرغبات المكبوتة، صحيح هذا يتناقض مع الأفلام التي رأيناها عن فتيات في سن المراهقة يواعدن زملاءهن بعلم الأهل لممارسة الجنس، حتى بتنا على يقين بأن فض البكارة في سنوات المراهقة

أمرًا مرحبًا به لديهم، لكن يبدو أن النساء عندما ينضجن تطاردهن ذكرى علاقاتهن الأولى، وهي ليست جميلة دائمًا، والأمر ذاته ينطبق على الفتيان!

في اليوم التالي ذهبت أنا ومعتز إلى منزل عادل تلبية لدعوة عشاء، كان الطبق الرئيسي فيه اللحم المشوي أو "الباربيكيو" الذي قام بإعداده بنفسه على سطح منزله برغم الصقيع، على عادة التقليد الأمريكي في الحفاوة بالضيوف، ودار بيني وبين زوجته حديث قصير كان كافيًا لتفصح عن شعورها بالعزلة في حياتها مع عادل، وأن هذا ليس ما كانت تحلم به، وتطرق عادل للمسألة في حديثه معنا مبديًا لامبالاة بمشاعرها، وكانت المشكلة بينهم سارة ابنتهم، فالزوجة تصرّ على تربيتها على الديانة الكاثوليكية، وتناول عادل الأمر في حديثه بإعتباره أمرًا واقعًا وغير مؤثر، بينما استحوذ حديثه مع أصدقائه المصريين على جلّ اهتمامه وحماسه!

اصطحبنا عادل بعد العشاء إلى قاعة جديدة لعروض الإستربتيز فتساءلت: أليست هناك وسائل أخرى للمتعة؟ الحقيقة أنني بعد أن امتدت إقامتي أدركت بأن الأمريكيين ذوي الأصول الشرقية إذا أرادوا الترحيب بوافد جديد دعوه لمثل هذه الصالات وكأنها مفخرة أمريكا، ربما بوصفها مزارها التاريخي الذي لا يجب أن يفوت زيارته أي زائر! أوصلنا عادل لوسط المدينة حيث تركني معتز على وعد بزيارتي في اليوم التالي.

لم أستطع النوم إذ كان صوت موسيقى العري الصاخبة لا يزال يطن في أذني، واستلقيت على سريري أتطلع لنشرة الأخبار في التلفزيون بدون صوت، رأيت برنامجًا حواريًا - يتبادل فيه

الجمهور والخبراء وضيوف من عامة الناس الحديث في مشكلة بعينها- وعادة ما يتمتع المذيع ببراعة إدارة الحوار ويكون قادرًا على إقناع المشاهدين بما يقال، وأن يوجه الحوار إلى اتجاه مناسب لنوع الرسالة المطلوب توصيلها، وكانت المذيعة السمراء "أوبرا وينفري" التي تدير البرنامج تحظى بشعبية واسعة، ونجحت بتلقائيتها في جذبي لمتابعة هذه البرامج، باعتبارها مدخلاً لمعرفة المشاكل التي يعانيها المجتمع، يعرض البرنامج - أو قل يفضح - المشكلة في حضور نماذج ممن يعانون منها، للاستفادة من تجاربهم، وبدا أن المسألة فيها قدر كبير من الاستعراض والتباهي بالسعي لمجتمع مثالي افتراضي. لاشك أن الحقيقة ليست مثالية في ذاتها بل نسبية، لكن في مجتمع الشفافية والحرية يتم عرض الحقائق على الملأ، وصار المجتمع أسيرًا لمثاليات افتراضية وأوهام لا تزول عن مجتمع مثالي.

قضيت بقية ليلتي أسجل مذكراتي ومشاهداتي تجنباً للوقوع في فخ التناقض الذي يتنفسونه هنا كالهواء، ثم صحوت ممددًا على السرير لمشاهدة التلفزيون قتلاً لشعور الوحدة، رأيت برنامجًا حواريًا عن العلاقات المحرمة بين الأخ وأخته، والابن وأمه، وزوج الأم مع ابنة زوجته، في وجود نماذج حية من الذين يتعاطون الحب المحرم، حسنًا، لا غرابة في وجود علاقات محرمة في أي مجتمع، إلا أن استعراضها على الشاشة وحضور النماذج المتورطة في هذه العلاقات، يتباهون بحلاوة العلاقة ومدى سعادتهم بالإشباع الجنسي فيها كان تجاوزًا مبالغًا فيه، يبدو أن الحرية هنا بلغت مدى مخجلاً، خصوصًا في علاقات المثليين التي يعترف المجتمع بها، بل ويباركها!

كنا قد صُدِمنا أنا ومعتز قبلها بيومين، عندما دخلنا بارًا فراودتنا فتاتان تكاد ملامح أنوثتهن في الأضواء الخافتة تبدو كاملة، وعندما تبين لنا أنه بار خاص بالشواذ وأن الفتاتين ليستا سوى رجلين مخنثين يتعاطيان الهرمونات الأنثوية ويضعان مساحيق الماكياج، ويحلقان أو ينزعان الشعر الزائد لمحو أي علامات ذكورية خرجت أهرول من المكان ومعتز يضحك ساخرًا مني:

إنت خفت ولاّ إيه؟ دي فرصة نتفرج! أجبته منزعجًا: فرجة إيه يا راجل حرام عليك، هو إحنا جايين نشوف أمريكا ولا نتورط في زبالتها؟ إنت شايف الحكاية مجرد فرجة، بس الحكاية أكثر شيطانية مما تظن، صحيح كل مجتمع قد تنشأ فيه علاقات شاذة بين رجل وآخر، أو امرأة بأخرى في ظروف ما، فكل سلوك بشري له شذوذه، لكن أن يصبح الشذوذ والعلاقات المحرمة مادة للجدل تحتمل الرفض والقبول، ثم تدريجيًا تصبح المسألة عادية لا تستوقف أحدًا، ولا يحق لأحد النفور منها كما يتفق وفطرة البشر.

فاجأني معتز بقوله: أنت حيرتني معاك يا أخي، ده حتى عادل مستغرب منك جدًا! قلت مندهشًا: مستغربين ومحتارين من إيه بالظبط ؟ أجاب: بصراحة بقى العيلة كلها ما لهاش سيرة غير سيرتك، وبيقولوا عليك فلتان وصايع، وفي اليومين تلاتة إللي قضيناهم سوا أنا شايفك شخصية تانية ما لهاش علاقة نهائي بكلامهم، إنسان عاقل وعنده قيمه وأفكاره، ده أنا حاسس إني أنا إللي فلتان، بصراحة أنا مش فارقة معايا حكاية الأخلاق دي، صحيح أنا عمري ما اعتبرت كلام العيلة عنك كلام جد عشان عارف

إن خالاتك والست والدتك متحنطين في أيام المنصورة والزمن إللي ولى، وما كنتش بأصدقهم في كل إللي بيقولوه، لكن برضه إنت محيرني!

اسمع يا معتز، تصدقهم ولا ما تصدقهمش دي مشكلتك، بس ما دمت فتحت الموضوع أنا حأريحك:

أولاً- أنا ما بأحبش أصدر أحكام على حدّ، بس عيلتنا فيها إللي فيها، والتمييز إللي كانت جدتنا الله يرحمها عاملاه بين ولاد عبد الواحد وبنات جودت أغا، اتسبب في إن كل واحدة من خالاتك حتى أمك نفسها كانت بتحاول تكسب رضا أمها عشان تطلع منها بقرشين تعينهم على جنب، ولما ماتت جدتك جريوا يبيعوا عمارتها زي ما يكونوا عمرهم ما شافوا فلوس، تفتكر ليه يا عم معتز؟ أنا أقول لك: عشان كل واحدة فيهم تتمنظر على جوزها باللي طلع لها من ميراث أمها، مش ده إللي حصل؟

ثانيًا- بالنسبة لأمي خلافي معاها أسبابه معروفة، خلافها مع أبويا باستمرار ورفضي إني أقاطعه، وهي تصور دائمًا اتصالي بيه على إنه تحالف معاه عليها، وبالتالي مش عارفة تتعامل معايا كأم بشكل طبيعي، وبعدين هي ورثت عن أمها التمييز ضدي لصالح أختي هدى باعتبارها الغلبانة المنكسرة يتيمة الأب، إللي عايش على وش الدنيا لكنه ميت بالنسبة لها، وأنا وإن لم يغير تمييزها ده من مشاعري تجاه أختي، لكنه ضيع عليّ حقوق حتى ولو كانت هايفة، وطول الوقت حاسس إن ما ليش سند، من ناحية أبويا أحواله على قده وأناني حبتين، ومطمن إن مثالية أمي بحكم تركيبتها إللي هو فاهمها كويس حتلزمها ما تتخلاش عن ولادها، يعني ضامن إن ولاده حيتربوا. ومن ناحية تانية أمي معتبراني

عدوها إللي ما يستحقش منها أي حاجة، ومشكلتها معايا في صراعها ما بين إني ابنها إللي بتحبه بالفطرة، وعدوها إللي طول الوقت أي حاجة يقولها أو يعملها ضروري أبوه مقويه عليها.

ثالثًا بقى يا مولانا أنا إتربيت على إني ما ليش بيت، مش بمعنى الحيطان، لكن بمعنى إني ما ليش ملاذ، يعني لو احتجت حد يساعدني في مشكلة مش حألاقي، ولو فيه حد أكيد مش حيكون من أهلي، وده سبب لي شرخ ما لوش علاج، رغم إن ليّا أصدقاء كتير دايماً شايلِّني إلا إنه صعب عليّ أنسى إني وحيد في الدنيا، والأهم إن عقلي - بحكم إللي شفته في مشوار الصعلكة إللي ما انكرش إني غاويها- دايمًا في حالة توتر، وعندي يقين إن حكاية العدل والرحمة في الدنيا دي أوهام، وصراحتي دايمًا مصدر تهديد حتى لأقرب الناس ليا، وعشان كده بيطلعوا فيا القطط الفاطسة!

لم يقاطعني معتز وأنا أفسر له خلفيات سيرتي التي يلوكها الأهل، وربما شعر بشيء من الخجل من ترديد كلام العائلة الكريمة، فحاول تبرئة نفسه هو وعادل قائلاً: إحنا برضه معذورين، منين حنعرف كل ده، وإن كنا بحكم تجاربنا مع أمهاتنا متأكدين إنهم - بما فيهم والدتك- غاويين تحكم وسيطرة، وكل واحد فينا تمرد على أمه بطريقته، يمكن إنت ظروفك كانت أكثر قسوة لإنك عنيد، يمكن ده إللي زود حدة المشاكل والكلام الفارغ إللي بيتقال عنك!
اجبته لأنهي الحديث الذي لم يأت لا في مكانه ولا زمانه المناسب: يا سيدي، ولا يهمك، أهو كله كلام.

بعد أيام اتصل مكتب أبوصالح المصري ليبلغني بموعد أول دورة في اليوم التالي، في مبنى رقم 11 في مركز "نيو إنجلاند

ميديكال سنتر" التابع لجامعة تافتس، وأنه يجب عليّ أن أكون هناك في تمام الثامنة صباحًا، تحديدًا في مشرحة الكلية للبدء في دورة للتشريح الجراحي. وصلت قبل الموعد بـ20 دقيقة، وبينما كنت أنتظر في الردهة الخالية، ألقى عليّ أحد الطلاب التحية، وكان شابًا مفتول العضلات ذا وسامة أمريكية واضحة عمره حوالي 22 سنة، انتظرنا سويًا وكان يرتدي زي العمليات متأهبًا للانطلاق، حضر الأستاذ في موعده بالدقيقة وقدم نفسه قائلاً:

أنا مازن رئيس قسم التشريح، لم يسألنا عن أسمائنا إنما أردف: مدة الدورة شهر ويمكنكم الحضور للمشرحة في أي وقت تشاءون، ثم كشف الغطاء عن الجثة الممددة على طاولة معدنية قائلاً: هذه هي الجثة التي ستتعاملون معها، عليكم اختيار الأجزاء التي سيشرِّحها كل منكم، أجاب زميلي فارع الطول بوجهه الذي يتفجر بالحيوية والثقة بالنفس: سأقوم بتشريح منطقة الرأس والرقبة فأنا أنوي التخصص في جراحة المخ والأعصاب، فقال السيد/ مازن: حسنًا وماذا عنك أنت؟ أنا تخصصي عظام سأقوم بتشريح الأطراف.

الحقيقة أنني لم أختر هذه الدورة كبداية، لكنها جاءت بداية منطقية مع الأموات، مثل بدايتي بعد انتهاء سنة الامتياز حيث كلفت بالعمل في مكتب صحة بولاق أول في منطقة الترجمان خلف شارع الصحافة، وكانت مهمتي في المكتب الإشراف على حملات التطعيم ضد شلل الأطفال والدفتيريا والتيفود، ومجالسة طبيب أول المكتب د/ عامر بلال الذي كان يستشهد في كل أحاديثه بالقرآن والأحاديث، والمهمة الأخرى تسنين ساقطي القيد لاستخراج شهادة ميلاد ومن ثم بطاقة شخصية، سواء للفتيات

للزواج في سن صغير، عادة لعجوز من دول الخليج، أو للعجائز لصرف معاش الزوج المتوفي، أما المهمة الثقيلة والأصعب بالمكتب الكئيب بطبعه كان د/عامر يكلفني بها في أغلب الأحوال وهي: "إجراء الكشف الطبي الظاهري على جثة المتوفي فلان – ممن يموتون وحيدين ويكتشف الجيران جثثهم بعد تعفنها – وتحديد السبب المبدئي للوفاة وبيان ما بها من إصابات، وإذا ما كانت هناك شبهة جنائية." تلك كانت صيغة خطاب التكليف من وكيل النيابة لطبيب الصحة للكشف على هؤلاء الموتى لاستخراج تصاريح الدفن لهم.

لكن أين موتى مكتب صحة بولاق من موتى جامعة تافتس ببوسطن؟ طبعًا موتى عشش الترجمان وحواري بولاق أبو العلا، الذين كانوا عادة يسكنون في أحواش أسفل بيوت متهالكة مظلمة، يموتون وحيدين لا يكشف موتهم إلا رائحة العفونة، أما هنا فالموتى – بعد وضعهم في الفورمالين والأكياس البلاستيكية السوداء التي تغلق عليهم بسوستة– يحفظون في الثلاجات في صناديق معدنية لامعة من الرصاص، ويتم إخراج الجثث لتوضع على طاولات في مساحة واسعة ناصعة البياض، لها حوائط وأرضيات من السيراميك مع إضاءة قوية للغاية. أفقت من شطح المقارنة بين الموتى هنا وهناك على صوت أستاذنا العراقي الأصل قائلاً: إذن سنلتقي بعد أسبوع لنرى ماذا فعل كل منكما، ومن ثم بدأت أتلمس طريقي في اللحم والأعصاب، وبعد ساعة تقريبًا خرج الزميل الأمريكي لتناول الغداء، وتركني مع الأموات في صناديقهم المعدنية.

يبدو أننا في كل مكان نخفي الموت حتى لا نراه ولا يرانا،

ربما كي لا يفتضح سره الذي لا قبل لنا بمواجهته! ورغم الإضاءة ورحابة المكان وبريقه، ملأت رائحة الموت المكان، ولم أستطع البقاء طويلاً فخرجت مسرعًا كالهارب، وما أن رأيت الناس حتى اطمأن قلبي، فها أنا حي وسط الأحياء، والثلج يحاصر الطريق ببياضه الناصع، وبرودته الأهون من برودة الموت، أسرعت الخطى عائدًا للبيت بعد أن أكلت شريحة من اللحم الساخن في مقهى قريب هازئًا من هواجس الصباح، ومع انتهاء زجاجة البيرة اكتمل المشهد حين انتبهت لرواد المقهى يحملقون في الوافد الغريب، ربما اكتشفوا مدى وحدتي، كادت نظراتهم تخترق روحي وتمزق جسدي، وهو ما تكرر معي حيث يحاول الجالسون استكشاف هويتك بملامحك الإفريقية وملابسك المضحكة، خصوصًا مع ندرة تبادل الحديث مع أحد، فقط قليل من ابتسامات أوزعها كسرًا للعزلة، وبدت لي اللحظة التي قدمت فيها أوراقي لأبو صالح المصري منذ حوالي عشرة أيام لحظة حاسمة، كان عليّ أن أوقع فيها صكًا بالإذعان فوقعت:

" أقر أنا الموقع أدناه أني أتيت إلى هنا بمحض إرادتي وكامل قواي العقلية، فقد أسرني الحلم، مثقلاً بكل رموز ودلالات الشرق وعذابات عمر قضيته أفتش فيه عن ذاتي، وبقدر ما امتلكت زمام أمري أفلتت سيطرتي على سطوة الحلم، حلم فك شِفرة العالم على الجانب الآخر من المحيط، وأقر أنني مسئول مسئولية كاملة عن النتائج، وأترك لكم – أنتم أهل العلم والحضارة- حرية اختيار الدواء لأي داء قد يصيبني، وأن تقرروا مصيري إن أنا تهت في عالمكم، وأن تقيسوا مدة بقائي بينكم دون النظر لآلامي وأحلامي".
المقر بما فيه "الحالم رغم أنفه".

حرصت في بداية عملي على التركيز في التدرب على أسرار المهنة التي استعصت عليّ في عملي الحكومي البائس بالتأمين، ولا مبالاة الجميع بمن يتعلم ومن لا يتعلم، وإذا كان حلم التعلّم وهم في مناخ مستشفيات التأمين في مصر، فليس لدي حجة هنا، الظروف مهيأة للتعلم والاستفادة، لذلك صرت أوزع وقتي بين عملي في المشرحة، وارتياد المكتبة للمطالعة، واستعارة المراجع التي لم يتوفر لي اقتناؤها في مصر، وفي العطلات الأسبوعية كنت أتابع استكشافي للعالم الجديد مرتادًا المقاهي والحانات، متسكعاً في الطرقات، متابعًا مشاهد الحياة اليومية اللاهثة، والمشاهد الراكدة في محطات الأنفاق للشحاذين، والعازفين الجائلين، وفرق الغناء التي تحتل الميادين في استراحة الغداء، في وسط المدينة، وفي أطرافها بالقرب من التجمعات التجارية والملاهي والمسارح وقاعات العرض السينمائي.

على بعد أمتار قليلة من باب مكتبة الجامعة في شارع واشنطن، حيث كنت أتناول وجبات الغداء، مشهد جماعة "هاري راما" حليقي الرؤوس بزيهم القرمزي، وهو عبارة عن عباءات تغطي الجسم أسفل الرقبة عدا الكتف أقرب إلى ملابس الإحرام، يلبسها أهل التبت من كهنة الديانة التي يتزعمها روحيًا "الدلاي لاما"، يسيرون وسط الأسواق والشوارع الرئيسية بوسط المدينة، يرددون الترانيم بلغة لا يفهمها أحد بينما يقرعون طبولاً أو يدقون على آلات شبيهة بآلة الإكسليفون والمثلث المعدني ذي المطرقة، وفي ذروة الزحام يختلط هذا المشهد بمشاهد تجمعات السود في حلقات من أفراد يدخنون الماريجوانا وفي أيديهم أكياس بنية

اللون يحتفظون فيها بزجاجات الخمر، وهناك محلات الصينيين بما تعرضه من الخضراوات وأعشاب البحر ومعلبات لا تدري ما تحويه، في الحي الصيني الذي يقع خلف مطعم خريستو، حيث يسود الجنس الأصفر والرايات التي تحمل علامة التنين في شوارع ضيقة مليئة بالمخلفات، يتلاصق فيها المارة من كل صنف مع جماعات الصينيين بأجسامهم الصغيرة وملامحهم الحادة.

التقينا بالأستاذ/ مازن بعد مرور أسبوع على بدء الدورة، وكنا أنا و"جون" قد قطعنا شوطًا لا بأس به من العمل، ودار بينه وبين كل واحد منا حديث شيق عن أسرار الجسد، هو يسأل ونحن نجيبه فيضيف تفاصيلاً أكثر دقة، وأعطى تعليماته ناصحًا إيانا بدقة التعامل مع الجسد حرصًا على انسجام النغم، شارحًا أن الجسد الإنساني بمثابة مقطوعة موسيقية من عزف الخالق، وعلينا اكتشاف عظمة الألحان مع الحفاظ على التناغم، وأن نعزف بحرص شديد حتى لا نصيب الآلة الموسيقية "الجسد" بعطب يفسد حلاوة اللحن، وأضاف: المهم يا أصدقائي امتلاك مهارة العزف، ومن لديه أي سؤال يمكنه الاتصال بي، وأوضح لي جون أن هذا يعني أنه معجب بعملنا وهو شرف كبير، فالأستاذ مازن قمة من قمم التشريح في أمريكا كلها.

قابلت أبو صالح المصري مترجلاً في شارع هاريسون، فسأل عن أحوالي، أخبرته بالدورة وسعادتي بعملي مع د. مازن فعلق: مازن من أفضل أساتذة التشريح على مستوى الولاية إن لم يكن في أمريكا كلها، مشكلة مازن في معاناته من عنصرية مكتومة ضده منذ الغزو العراقي للكويت، فقد نبذه زملاؤه في صمت،

ووصل الأمر إلى حد تطاول أحد تلامذته عليه - كاد أن يضربه لولا تدخل رجال الأمن- عندما احتدم النقاش بينهما حول دوافع حرب عاصفة الصحراء، واعتبر الطالب الأمريكي وغيره من الأساتذة والطلاب ما حدث سقطة من مازن في أول اختبار ولاء له، لأن الرجل رفض أن يشارك في حملة أطلقوها باسم " نحن نساند قواتنا " كتأييد شعبي للعمل العسكري الأمريكي في قيادة قوات التحالف، واعتبر الحرب خرقًا لقواعد سيادة الدول على أراضيها، وضرورة حل النزاعات سلميًا. جلسنا لتناول الغداء في مطعم دعاني إليه، كراسيه مرصوصة على الرصيف بعد أن نزل المطر بعنف لدقائق ثم سطعت الشمس لتخلق جوًا منعشًا فقلت: الجو هنا عجيب يا دكتور، شوف إزاي مطرت وبعدها الجو راق وبعد شوية ترجع الرطوبة، فعلق: هنا بيقولوا نكتة عن إللي يدي ميعاد لصاحبه بعد ساعة فيقول له: الجو عامل إيه النهارده؟ يرد عليه إن الجو رائع ومشمس، عندها يقول الآخر: حسنًا لكن لا بأس من شمسية، يمكنك أن ترتدي ملابس خفيفة، وعمومًا خلي بالطو المطر جاهز في العربية. الحقيقة الجو هنا متقلب بشكل دائم، بوسطن جوها شبه ناسها فهم متقلبون، فأنت إن حققت نجاحًا مهنيًا تملأ صورك الصحف، وتطاردك كاميرات التلفزيون، وتنهال عليك عروض العمل، أما لو أخطأت خطأ بسيط، أو لو أجبرتك ظروفك ومشاعرك الإنسانية على موقف معين ضد ما هو سائد انهالوا عليك بالسباب، وفي أضعف الأحوال يتركونك في صمت تعاني عزلة قاتلة، ده بقى اللي حصل مع عمك مازن، هو عارف طبيعة المجتمع هنا، وفضّل يحتفظ بتاريخه العلمي المشرّف واستمر في عمله، منطويًا على ذاته بعيدًا عن غضب الغاضبين، بالضرورة هو متفهم حماقة ما فعله صدام، ومهما كان حجم التواطؤ إللي اتورط فيه الأمريكان

ضد العراق مش حيلاقي إللي ينصفه، لأن الناس هنا بسطاء لا يعرفون سوى الحقائق كما تعرضها وسائل الإعلام، وأي مواجهة مع الناس والميديا إللي واكلة دماغهم حيكون هو الخسران فيها.

سألته: يا ترى يا دكتور؟ قاطعني: سيبك من حكاية دكتور دي، هنا مفيش أهمية للألقاب قول لي يا أبو صالح بس، وما تشغلش بالك بحكاية مازن، كلنا مطالبين بتحمل مشاعر الكراهية المضمرة ضدنا لإننا مهما ادعينا محسوبين على العرب، والعرب بالنسبة للأمريكان مصدر تهديد لمصالحهم، وإذا كان الروس انهاروا، والشيوعية سقطت، لا بد يلاقي الأمريكان عدو جديد ويبدو أن الوظيفة دي لايقة على صدام وأمثاله، إللي ما استوعبوش إن روسيا العظمى خلاص زمانها ولّى، بصراحة الحكام العرب أخطاؤهم قاتلة، المهم ركز إنت في دراستك وخليني أشوفك باستمرار ماشي؟ أومأت له وشكرته على عزومة الغدا والصحبة.

أنهيت يومي في المشرحة وخرجت أبحث عن إجابات لأسئلة لا حصر لها، لكنني آثرت الهروب من الأسئلة والإجابات حتى أحافظ على سلامة عقلي! وبعد عطلة نهاية الأسبوع عقدت العزم على مقابلة الأستاذ مازن بأي طريقة، قابلته صدفة خارجًا من مكتبة الكلية، اقتحمته دون أن أترك له فرصة للمراوغة: د/ مازن هل تسمح لي بقليل من وقتك هناك تفاصيل لا أفهمها بخصوص العقدة العصبية للذراع! أجابني بتلقائية: لابأس، يمكنك المرور عليّ في مكتبي من4 إلى 5 مساءً في أي يوم ما عدا الجمعة والسبت والأحد، نجحت الخطة لأن أي أستاذ لا يملك رفض مساعدة طلابه مهما ازدحم جدوله، ومهما كان ميالاً للعزلة، وفي اليوم التالي توجهت

لمكتبه بالدور الرابع وطلبت من السكرتيرة مقابلته، وبعد دقائق أشارت إلي بالدخول.

المكتب عبارة عن غابة من الكتب وأوراق البحث، مرصعة بنماذج بلاستيكية لأجزاء من الجسم البشري عليها علامات ملونة، بالإضافة لأوانٍ زجاجية بها أجزاء آدمية محفوظة في الفورمالين، ثم صورة له بملابس رياضية في شبابه مبتسمًا للعدسة، وبراويز يصعب حصرها للشهادات معلقة على الجدران، ودولاب مليء بنماذج تراثية من العراق، وخريطة مجسمة للهلال الخصيب، وميداليات وشهادات متروكة بلا تنسيق لكنها تكفي مع غيرها من علامات النبوغ لمعرفة قدر الرجل الذي كان منكبًا على بحوثه ينهي كتابة شيء ما، نظر من فوق نظارته الطبية مشيرًا إليّ بالجلوس، جلست صامتًا أتأمل ما حولي، بينما ضوء النهار يجاهد ليصل إلى مكتبه المحاط بأشيائه وأحزانه الصامتة، بدت من تحت عينيه هالات سود لشخص يكابد حتى يتمكن من النوم، لا توجد فخامة في ثيابه ولا عظمة في تعامله مع الأشياء والبشر، أغلق ملفاته وشبك يديه منتبهًا إليّ وسألني دون أن ينظر إلى عيني مباشرة:

حسنًا، ما هي التفاصيل التي حيرتك سيدي؟ قلت له: هل تسمح لي أولاً أن أقدم نفسي؟ أنصت بلا مبالاة واضحة وقال تفضل، أنا من القاهرة، ولي علاقة بالكتابة إضافة إلى كوني طبيبًا، يعني ساعات أكتب شعرًا أو قصصًا، وكنت عضوًا بفريق الكشافة بالمدرسة في ثانوي، وسافرت سنة 71 إلى معسكر كشفي عربي بالعراق، قعدت 4 أيام في بغداد وعشرة أيام في غابة الحدباء بالموصل، ومن ساعتها وقعت في هوى العراق، وأنا من عشاق بدر شاكر السياب ونازك الملائكة وأبو الشعر العربي المتنبي، وعندي

رغبة قوية أتعرف بحضرتك أكتر وأملي نبقى أصدقاء.

تركت الكلام يؤتي أثره عليه، فبدا وكأنه يتمعن فيما قلت ثم قال: إذن لا يوجد تفاصيل تحتاج لتوضيحها في العقدة العصبية، قالها مبتسمًا فتشجعت أكثر: لا، كانت هذه مجرد حجة حتى أتبادل معك الحديث، فأردف: طبعًا يمكننا أن نكون أصدقاء، لكن أنا وقتي مشغول وغرقان في البحوث والمحاضرات، وإنت النهارده معايا في الدورة وبعد أسبوع ولاّ أتنين حتكون في مكان تاني، ومحتاج مذاكرة ومتابعة، يعني الفرصة ضيقة ولاّ إنت ناوي تستمر في أمريكا؟ السؤال ده لسه بدري على إجابته، وإن كان الأمر وارد لو الظروف ساعدتني، الظروف بشكل عام ليست في صالح العرب، لكن مش دي العقبة إنما العقبة فيَّ وفي حساباتي. سأل، إزاي يعني؟

أصل أنا لما سعيت آجي هنا كانت أكتر حاجة تهمني، بالإضافة طبعًا إلى التعلم والتدريب، إني أفهم سّر الحضارة هنا في أمريكا، وإن كان رأيي إنها مجرد مدنية حديثة مش حضارة، أدرك مازن أن مشكلتي في عقدتنا من مواجهة الغرب فقاطعني: أشكرك أولاً على محبتك للعراق وشعراء العراق، وأنا كمان بأحب مصر والمصريين، لكن الوقت غير مناسب لمثل هذا الحديث، ربما نواصل كلامنا في وقت ومكان آخر. لم يفاجئني كلامه فعاجلته: طبعًا طبعًا، واعذرني على اقتحامي لك لرغبتي في التعرف عليك، أولاً لاحترامي وتقديري لمكانتك العلمية ولمكانة العراق وأهله، والأهم أني بحاجة للحديث مع من يفهمني، فهل تسمح بقبول دعوتي لك على العشاء في أي يوم تختاره؟ طبعًا، وكيف أرفض دعوة صادقة من مصري محب للعراق، اترك رقم تليفونك وسأتصل بك

قبل عطلة نهاية الأسبوع لتحديد الموعد والمكان، إلى اللقاء إذن.
خرجت سعيدًا بإنجازي، فمهما كانت عزلة الرجل أو أسبابها فهو بحاجة للكلام، ولا يجوز أن يظلِ الصمت داءنا في أوطاننا وفي الأوطان الأخرى كذلك!

اتصل مازن مساء يوم من أيام الأربعاء ليزفّ إلي بشرى موعدنا المرتقب، بدأ حديثه بالسؤال التقليدي: كيف حالك؟ الحمد الله كيف حالك أنت أستاذنا؟ الحمد لله، رغم إني لم أتعود قبول أية دعوات من طلابي، لكنِ عندما فكرت، وجدت إنه ضروري نتكلم مع بعض، ما رأيك نتقابل السبت الساعة 12 الضهر، ونخليها دعوة غداء بدلاً من العشاء؟ حسنًا وأين نلتقي؟ عارف ميدان هارفارد؟ ده مكاني المفضل، ما رأيك إذن لو تقابلنا في "بونا بيتي" جوار سلم المترو؟ حسنًا، إلى اللقاء يوم السبت.
ذهبت قبل الموعد وجلست في بونا بيتي بعد أن أحضرت كوبًا من القهوة، كان النهار صافيًا، وتابعت الخارجين والداخلين لمحطة المترو؛ هذه فتاة تسعى بلهفة لصديق، وأخرى تبحث بشغف بين الوجوه عن وجه حبيبها وما أن تراه يتعانقان ويسيران وقد تشابكت يديهما، وهذا شحاذ أعمى يقف وأمامه قطعة من القماش مادًا يده وممسكًا باليد الأخرى عصاه، وعليك بإلقاء عملة معدنية فوق القماش إن رغبت في المساعدة، وهذه شلة من الطلاب يخرجون من المحطة وهم يتسابقون بحيوية لاستقبال نهار السبت، بعد دقائق حضرت فرقة "الجيبسي" التي اعتدت رؤيتها في وسط المدينة، وقامت بتجهيز عدتها من الجيتار الإسباني والطبول والجلاجل، وفتاة الفرقة ببشرتها النحاسية وعيونها السوداء الآسرة، وجسدها الملفوف بعناية ربانية في البنطلون الجينز والبلوزة الشفافة بلون

السماء تتأهب للغناء، وبدأ العزف.

حضر مازن بوجهه الذي نُحتت فيه الملامح كما في التماثيل البابلية، بقامته المشدودة التي تنبئ عن تاريخه الرياضي، وإن غلبت على ملامحه آثار زمن طويل في المنفى بمسحة من حزن جليل في العينين السوداوين، مرتديًا جاكيت سبور أنيق وقميص زهري اللون وبنطلون جينز، توجهت إليه مرحبًا، جلس أمامي وقال: يا ترى إيه إللي بيعجبك في المكان هنا؟ أجبت: أولاً لأنه مدخل المدينة الجامعية في هارفارد، الاسم رنان ويشد أي حد، ثانيًا المكان أقرب إلى الطابع الأوروبي منه إلى الطابع الأمريكي المبالغ في فخامته، باختصار البساطة سر حبي للمكان ده أو أي مكان غيره.

معاك حق، هنا فيه بساطة نحن أحوج ما نكون إليها، خصوصًا في مجتمع يسعى للتفوق لدرجة الجنون، لكن قل لي لمَ أردت مقابلتي بصدق؟ الأول قبل ما نكلم عن الأسباب قل لي تحب نتغدا فين؟ النهارده أجازة ولازم نحجز قبل ما يبدأ الزحام، فرد مبتهجًا: جميل أن تكون مرتب التفكير، تعالى نروح مطعم "هاف مون،" هو قريب من هنا، فقلت: أكيد سبق وألقيت محاضرات هنا في هارفارد وحضرت فيها مؤتمرات، إيه رأيك تاخدني في جولة فيها بعد ما نحجز الغدا؟ ابتسم ابتسامة رائقة وقال: مفيش مانع.

في مطعم هاف مون حياه المسئول عن الحجز باسمه وقال: لنا وقت طويل لم نرك سيدي، ابتسم له ورد: شكرًا لك، هل يمكن حجز طاولة بجوار المدفأة لأثنين؟ طبعًا تحت أمرك طرابيزة 12، هل تسمح لي بتوصيلك هناك؟ فقال له: لا، فقط احجزها

وسنعود بعد ساعة من الآن. خرجنا وهو يملأ عينيه من ضوء النهار الساطع، وعاد بي حتى الميدان شمالاً لمسافة 500 متر وهو يشرح: الجامعة هنا لا تقبل إلا أبناء علية القوم من المتفوقين الحاصلين على شهادات تخرج من مدارس مرموقة، ده غير برامج المنح الدراسية وهي برامج لها شروط قاسية لا يجتازها إلا صفوة المتعلمين، اقتربنا من البوابة فقال: كان المفروض ندخل بالعربية المسافات جوه طويلة لكن أنا ما عملتش حسابي على الزيارة دي، حأفرجك على بعض المباني القريبة وبعدين نقعد شوية في حديقة الإدارة.

كانت المباني صغيرة نسبيًا مبنية على مساحات فسيحة وذات طراز كلاسيكي، أشار إلى المبنى المقابل للبوابة، هذا مبنى الإدارة، وهو ليس مجرد مبنى فخم لكنه يمثل برصانة معماره رمزًا لأقوى المؤسسات الأكاديمية في العالم، ويترك في النفس انطباعًا أقوى من مبنى الكونجرس في واشنطن، بل ومن مبنى البنتاجون ذاته، هنا يتم إعداد العقول وتدريبها كي تقود العالم بأسره! أكملنا الجولة وهو يشرح أسماء المباني ونوع الدراسة بكل منها مكتفيًا بالإشارة إلى أمكنة إقامة الطلاب والأساتذة، وهو ما يطلقون عليه "كامبس" وأنا أتأمل في صمت ثم استدار إليّ قائلاً: يبدو إن المكان ما عجبكش زي ما كنت متوقع، عمومًا آن أوان الغدا هيا بنا.

جلسنا وطلب كل منا طعامه فبادرت: أستاذنا ذكرت لك مدى محبتي للعراق وأهله، فهل لي أن أسألك عن تنبؤاتك حول مستقبل العراق بعد ما جرى؟ وأود أن أوضح أن لي هواجسي ومخاوفي حول مستقبل مصر والمنطقة ما يفرض الاهتمام بمستقبل العراق، فتاريخنا ملئ بالنكبات، وبغض النظر عن هجرتك والجنسية

الأمريكية يظل العراق بلدك، حيث البدايات والذكريات والأحلام التي تحلم بها لأهلك، أليس كذلك؟ وأؤكد لك أن أسئلتي تلك بدافع المحبة، أرجو ألا أكون متجاوزًا لحدودي.

تغيرت ملامحه بعض الشيء، اختفت فرحة اللقاء في جو صحو ومكان يحبه، وبدت عليه آثار من أجبر على عزلة يعاني منها، لكنه استجمع شتات نفسه وهو يقضم قطعة من الخبز الجاف، ربما عوضًا عن الجزّ على أسنانه، وأجاب بنبرة هادئة: أبدًا المسألة ما فيهاش تجاوز ولا حاجة، الهم العربي واحد، وشعوبنا تعاني من زمن ولا تزال، لكن العراق عزيزي مشاكله قديمة، على الأقل منذ بداية الثمانينيات مرّ بظروف خاصة لا أراها أقل هولاً من غزو المغول، وهناك أسباب لوضع العراق الخاص، فهو بلد قوي بمصادره الطبيعية وكوادره البشرية، فهو شعب محب للحياة ولديه كوادر من العلماء والخبراء في كل المجالات، ولديه نهران يفيضان بالخير الوفير إضافة لنهر البترول، فماذا فعل به صدام؟ أنهكه في حروب لا طائل من ورائها، وحلم أن يكون قوة إقليمية كبرى تحدوه أوهام الزعامة، عمومًا لا يهم ما دار بخلده أو ماذا كانت أهدافه، ما يهم هو ما جناه شعب العراق من مآسٍ ودمار، أنا وغيري لم نهاجر طوعًا لأننا حلمنا بالأرض الموعودة، إنما تركت بلدي لأني لم أقوَ على المساهمة في جرائم الحاكم، كما لم أقوَ على مواجهة طغيانه، ورغم ما تحقق لي من إنجاز كأستاذ مهم في جامعة مرموقة لم أجد لهذا حلاوة، فلم أجنِ منه سوى المرارة التي اكتملت بالحرب الأخيرة، بكل ما جلبته من عار وما قدمته من أسباب العداء لنا، وسواءً كان الأمريكيون على خطأ أو على صواب فنحن بالتأكيد مذنبون! لقد برعنا على طول تاريخنا في تقديم ذرائع التنكيل بشعوبنا، وأظن أنك كطبيب مصري مثقف تدرك

حجم الكارثة، أما كارثتي أنا فهي أني مطالب بابتلاع مرارتي ومواصلة دوري كأستاذ وكأن شيئًا لم يكن، هل هناك سخرية وعبث أكثر من هذا، إن حالتي تستحق الدراسة، ربما أمكنك أن تصور حالتنا شعريًا، بالمناسبة هل يمكن أن تسمعني بعضًا من شعرك؟

كنا قد تناولنا طعامنا وغادرنا المطعم، سرنا مسافة طويلة حول المباني دون توقف، وقاربنا على الوصول لمحطة المترو، اعتذرت لأني لا أحفظ ما أكتبه، ووعدته أن أفعل في أول فرصة، وربما كان الأنسب أن أودعك بعض أشعاري لتقرأها، ثم قلت مودعًا: أرجو أن تكون أمضيت وقتًا طيبًا، وعذرًا إن أثقلت عليك بحديث يجتر الشجون، لكنها حالنا دائمًا، بمجرد أن نلتقي تغزونا الهموم مهما حاولنا تجنبها فقاطعني: لا تعتذر عن شيء، كنت بحاجة لهذا الحديث، كنت أرغب في حديث بلا قيود مع من يحس بي لأنه مني وأنا منه، شئنا أم أبينا فالهم واحد يا صاحبي، أراك قريبًا على خير.

انتهت دورة التشريح، لكن لم تنته علاقتي بمازن وتشريحنا – كلما أتيحت لنا دقائق من اللقاء في أروقة الكلية أو المكتبة- لأحوالنا في الغربة هنا، وفي الغربة الأعظم في بلداننا، صرنا نتقابل كلما احتاج أحدنا لحديث من القلب، خصوصًا بعد أن قرأ بعضًا من شعري وعلق عليه ونحن نجلس في الحديقة العامة وقت الغداء بعد لقاء عابر في المكتبة: قل لي من أين كل هذا الشعور بالحزن وهذه النزعة الصوفية؟ أنت تتمتع بشخصية اجتماعية تكتسب صداقة الآخرين بسهولة، وتحول نصف حديثك على الأقل لهزل، أيكون هذا نوعًا من التحايل النفسي؟ أجبته: وماذا يملك أمثالنا في

هذه الحياة سوى التحايل؟ ماذا يمكننا أن نفعل في مواجهة تاريخ ظالم، وآفة العيش في ظل حكام مستبدين، ما الذي نستطيعه في مواجهة العبث سوى العبث؟ علينا وإن اختلفت الوسائل أن نمارس الحيل والأحاييل لكي نعيش، أليس كذلك؟

قبل بدء دورة الجراحة في مستشفى "سانت إليزابث" الجامعي قابلت أبو صالح، كان في حالة مزاجية عالية لا تخطئها العين فبادرت: يظهر إن يومك كان مية مية، أو قضيت ليلة حلوة إمبارح. أجاب ضاحكًا: ليلة إيه يا أبو ليلة، ده أنت واد صايع صحيح، أمال أنا بحبك ليه، بص كده، وأشار من نافذة مكتبه إلى سيارة فارهة بلون الثلج وسألني ماذا ترى؟ أجبت ببلاهة، عربية "لنكولن" آخر أبهة. أنظر للوحة الأمامية لها ما المكتوب عليها؟ وكان مكتوبًا عليها "المصري" بحروف إنجليزية واضحة، وأضاف: شفت بقى أنا مشهور قد إيه، هذه اللوحة يعرفها كل رجال المرور بالمدينة! قلت مؤكدًا على شهرته: طبعًا يا أستاذنا ده أنت نار على علم وصيتك واصل في كل الولاية، فقال: عارف كل ده مش بيفرحني! كنت عميد كلية العلوم في جامعة "سيلم" في ضواحي بوسطن لعشرة أعوام، ونشرت أبحاثًا لا أعرف عددها في أشهر المجلات، وكنت عضوًا بمجلس أمناء جامعة "تافتس" ثلاث سنوات، لكن للأسف طوال هذا العمر إللي قضيته في البحث والعلم - وهو ما أمّن لي مركزاً أدبيًا وماليًا لا بأس به - لم اكتشف الحقيقة المُرة، ولم أدرك سر اللعبة إلا متأخرًا جدًا، هنا تفوقك في عملك شيء جدير بالاحترام من الكل، لكن ده مش كفاية، الحقيقة إنه سراب ما لم تتوجه برصيد محترم في البنك، ده بس إللي ممكن يضمن لك حياة كريمة خصوصًا بعد ما تطلع معاش!

بعد صمت لم يطل استطرد: عشان كده أنا فتحت مكتب شئون الطلاب الأجانب ده، أنا أستأجر هذا المكتب من الجامعة، أعمل على توفير منح دراسية ودورات تدريبية للطلاب العرب بمن فيهم المصريين طبعًا، وبآخد نسبة على كل طالب، خصوصًا الموفدين من دول الخليج، قاطعته ضاحكًا: يعني يا باشا الحساب بالراس، كل راس تاخد عليه دولارات والحسابة بتحسب، ضحك بلا مرح وقال: استفدت في عملي هذا من صلاتي الأكاديمية الواسعة على مدى سنوات البحث والأستاذية، طبعًا إللي بييجي بيستفيد وبلده بتستفيد، كتير من تلامذتي دلوقت أصبحوا في مناصب محترمة في بلادهم، وجنيت ثمار جهدي وشقايا طوال السنين، لكن مش عارف ليه حاسس إن ده مش كفاية!

الحمد لله يا دكتور إنت قايم بالدور المطلوب منك وزيادة، أقله بتساعد أمثالي عشان يبقوا بني آدمين، ده في حد ذاته يخليك تفتخر بدورك مش تستهون بيه، وبعدين ده الجو جميل النهارده والشمس فكرتني بالشمس في خريف مصر حنينة ورايقة، تعالى تعالى نتمشى شوية.

خرجنا من البناية في شارع هاريسون وكان الهواء باردًا منعشًا بلا ثلوج، سرنا معًا نتطلع إلى المارة، نسخر من مشاهد الطريق بمناسبة ومن غير مناسبة، ثم استوقفتنا سيدة شابة تجر عربة أطفال، ألقت علينا التحية وقبلته فقدمها لي: ابنتي ياسمين، وسألها على فين؟ قالت له: باتمشى وحأعمل شوية شوبنج، أشوفك في البيت على العشا، تركتنا وواصلنا السير ونحن نتابع الحسان ونختلف حول حلاوة هذه ودلال تلك، وعندما عدنا للمستشفى ودعني قائلاً: ابقى تعالى زورني كل ما تلاقي وقت، يمكن مرة

نروح سينما أو حفلة موسيقى مع بعض، على فكرة دورة الجراحة بتاعتك مع جراح مشهور من أصل إيطالي، ابقى خد العنوان من المكتب بالتليفون، مع السلامة.

درت حول شارع واشنطن أتأمل الواجهات حتى وصلت للمساحة المخصصة للمشاة، تناولت قهوتي في الكوب البلاستيك الممل، وحضر فريق الجيبسي ليعد آلاته متخذًا موقعًا متميزًا من الميدان، دقائق وبدأ العزف بإيقاعه اللاتيني المتقد بالحيوية، ما استدعى للذاكرة حيوية رقصة الفلامنكو، ورقصت مغنية الفرقة بشموخ، وانطلقت تصدح بالغناء في نشوة واضحة، أحاط بها المستمعون في دائرة زادت من حيوية المشهد، وأمعنت الفتاة في اختيار أغنيات تشي بالبوح والمناجاة ما ألهب حماس المستمعين، بعدها عدت للبيت مخترقًا الحديقة العامة، هاربًا قدر الجهد من تداعيات الأفكار التي احتشدت في عقلي بعد حديث أبو صالح، مستمتعًا بقفزات السناجب فوق الأشجار، مع الحركة الرتيبة للعابرين التي لم تحجب روعة بشائر الغروب، وتلألأت مياه البحيرة بما تبقى من أشعة الشمس المتوارية على استحياء.

وجدت معتز أمام البيت في انتظاري على غير موعد، دخلنا الشقة فبادرني: أنا بأفكر في الانتقال إلى هنا - كان قد التحق بجامعة في شمال بوسطن - أريد الالتحاق بجامعة "نورث إيسترن" فهي متميزة في علوم الاتصالات والكومبيوتر، وأرسلت طلبًا بذلك إلى المكتب في واشنطن ما رأيك؟ قلت بلا اهتمام: إنت أدرى، لكن عمومًا ما سمعته عن جامعة نورث إيسترن إنها جامعة عريقة، زرتها كام مرة لصلاة الجمعة، مبانيها توحي بعراقة حقيقية، هل

أعد لك وجبة سريعة؟ شكرني واسترحنا قليلاً ثم خرجنا.

درنا حول ميدان المكتبة العامة، ننتقل من رصيف لآخر، والأرصفة على حالها ناعمة ونظيفة وقد اغتسلت بماء المطر، خالية إلا من قلة من العابرين، وبدأنا السهرة بالجلوس في بار سبق ودخلته وحدي، وعندما جلسنا رأى الآنسة الأمريكية باهرة الجمال التي تقدم المشروبات (البار تِندر) تحييني وتبتسم لي وهي تقدم لنا كؤوس البيرة، وتغمغم قائلة استمتعا بوقتكم، سأل بسذاجة إنت عارفها؟

أجبته مبتسمًا: التحية هنا يا مولانا مش معناها إن فيه سابق معرفة، مجرد أداء واجب، عشان تحسسك إن المكان مكانك، وبكده يزيد عدد زباينها لأن نجاحها يقاس أصلاً بعدد زباينها الدائمين، الموضوع شغل في شغل يا صاحبي، لم يقتنع ابن مدارس الفرير بكلامي، وحاول استمالتها بالكلام فكانت ترد بلباقة والابتسامة لا تفارق وجهها الذي ينضح بالذكاء، وعندما يئس من استجابتها لتودده الركيك قال: هيا بنا، خرجنا وسألني: إنت محيرني بجد، كل خبرة الحياة دي وعقلك إللي ما بيفوتش لا كبيرة ولا صغيرة، كل ده وما حققتش نجاح يذكر!

أجبته ساخرًا: نجاح إيه يا أبو نجاح، ومين إللي يقيس إذا كنت حققت نجاح ولاّ لأ؟ مين إللي يحدد مواصفاته؟ أنا ولا أنت ولا همَّا؟ أجاب بجدية: أنا قصدي يعني على الأقل عشان تسكّت نسوان العيلة إللي بيجيبوا في سيرتك وعاملينك سِلّايتهم! ابتسمت في شيء من المرارة: سبق وشرحت لك جذور المسألة بتاعة العيلة، وإن كان على النجاح يكفيني إني ما فقدتش وعيي بما

يدور حولي، والأهم إني عمري ما عملت حاجة غصب عني، كفاية عليَّ إني بآخد قراراتي بنفسي، بعد كده جه النجاح إللي بتقول عليه أهلاً وسهلاً، ولو ما جاش طظ فيه، ما دمت لم أتخلَ يومًا عن قناعاتي، الحياة بالنسبة لي مش أكتر من إنك تكون نفسك، وتكون مستعد تدفع تمن ده. ذهبنا للعشاء في مطعم مغربي، حيث كانت وجوه الرجال والنساء مليئة بالحيوية، فاستمتعنا بتناول الطعام في جو يخلو من الأدوات والوجوه البلاستيك، وحاولت تخفيف حدة الحوار بسؤالي: إذا وافقوا لك على النقل لجامعة نورث إيسترن ناوي تسكن في وسط البلد ولاّ فين؟ قال بما يتفق وطبيعته: لازمْ احسبها الأول، يعني لو سكنت في الضواحي حأسكن بكام والمواصلات حتكلفني كام؟ وأكمل تفاصيل فهلوته وأنا لاهٍ عنه في خيالاتي، ثم قال وهو يودعني: متى نلتقي؟ قلت له: سيبها للظروف.

بعدها اتصل الهواري ليخبرني أنني مدعو مع مجموعة من الزملاء لحفل وداع زميل أنهى مدته هنا والحفلة حتكون في بيت أبو صالح، وقال بلهجة آمرة: سأمر عليك السبت في الثالثة لنذهب معًا، وعندما تجاوزنا وسط المدينة إلى الطريق السريع بادر بتوضيح أن أستاذنا أبو صالح يعد من أغنياء بوسطن، ويسكن في ضاحية لا يسكنها إلا الأثرياء وهو العربي الوحيد فيها! وبالفعل بدأت ملامح ما قاله تتضح عندما دخلنا الطريقُ الفرعي، لم يكن هناك بيوت إنما قصور بحدائق غناء، ما فرض شعورًا بالبهاء والرفاهية حاصرنا من كل الاتجاهات، ثم أوقف سيارته أمام باب البيت وقال: هيا بنا.

سرنا على الأقدام وسط حديقة ساحرة على امتداد الرصيف

لبيت أشبه بالقلعة، وعلى الباب الرئيسي وجدنا أبو صالح في انتظارنا مرحبًا مرتديًا ثياب أهل هونولولو، قميص مشجر وبنطلون من الكتان الأبيض، وإلى جواره زوجته المصرية شديدة الجمال والأناقة في عباءة عربية، تقدمنا الرجل إلى بهو المنزل حيث وجدنا جمعًا من الزملاء والزميلات مع ابنتيه وابنه الصغير آخر العنقود، قام بعمل تعارف سريع للمجموعة، ثم تركنا أمام شاشة تلفزيون أقرب لشاشة السينما، حضرت خادمة مكسيكية لتقديم أطعمة ومشروبات خفيفة، ودار الرجل بيننا يوزع تحيته وترحيبه بالجميع مع زيادة في الحفاوة بزميل سعودي قام بتصويرنا بكاميرا فيديو سوني، أثارت نقاشًا حول سعرها وإمكانياتها، استطرد في الحديث عن ماركات كاميرات الفيديو ثم ماركات السيارات ليكزس ولينكولن، والكل يتأمل ما يرتديه الآخرون ويتفحص بعضهم بعضًا، مضى الحديث دون أي بادرة ود، واستسلمت مبديًا اهتمامًا زائفًا بما يقال فلم يكن هناك مهرب من تلك الورطة الجوفاء! قبل الغروب بقليل قام الهواري بتوصيلي، وتركني على وعد مني بحضور عزومة بعد صلاة الجمعة على أكلة سمك في بيت زميل لنا.

يومها وجدته في انتظاري على باب محطة مترو "كوينسي" ولحقنا بالزملاء، ويلسون طبيب الأسنان، وعبد الحميد أستاذ مساعد الباطنة من جامعة أسيوط، وصاحب المنزل - الذي أجرينا منه اتصالات تأجير الأستوديو يوم وصولي- عبد الله أبو السعود وثلاثة غيرهم. تعارفنا أثناء وضع صواني السمك المقلي والمشوي والصيادية، وعلى الفور تخاطف الجميع قطع السمك والسلطة البلدي المتاحة بكميات تفوق الطاقة، وكأن النهم الجماعي إعلان

لمصريتنا وتأكيد على تواصلنا وتقاربنا الذي لا وجود له في الواقع!
شربنا الشاي، ودارت أحاديث أغلبها حول ضعف الراتب الشهري وضرورة البحث عن عمل إضافي لزيادة الدخل، فتساءلت:

هوّ إحنا نقدر نشتغل؟ فتطوع محمود – جراح الأوعية الدموية- شارحًا: ياعمنا الأمريكان ما يهمهمش غير المكسب، وأمثالنا في السوق فرخة بكشك، عندنا إقامة رسمية وبنشتغل بنص أجر أي أمريكاني، طبعًا هيّ وظائف هايفة لا يقبل بها حتى فقراء الزنوج؛ موظف حراسة أو عامل في محطات البنزين إللي هيّ أكتر من أكشاك السجاير في مصر، ثم دار حديث أخير موجز عن المخاوف من الأوضاع في مصر والمنطقة العربية بعد عاصفة الصحراء، سيطرت فيه على أغلب الحاضرين أوهام حدوث هبة عراقية، أو صحوة من عينة أم المعارك وما شابه من ترهات صرت لا أقوى على سماعها، لم أعلق وانضميت لزمرة المعارضين الصامتين، ويلسون والهواري.

في طريق العودة حكى لي الهواري حكاية ويلسون وقبيلته من الأقباط المصريين المهاجرين من زمن طويل لأرض الأحلام، وقال إنه على وشك الحصول على ترخيص المزاولة بعد أن اجتاز امتحان المعادلة وإنه أمريكي الهوى والسلوك بطبعه، قاطعته قائلاً: سيبك من ويلسون وحكايته، هو صحيح الواحد ممكن يلاقي له شغلة جنب الدراسة؟ بصراحة أنا مصاريفي هنا وفي مصر مستحيل أغطيها بفلوس البعثة لوحدها، فقال ببساطته المعهودة: حألاقي لك شغلة ما تحملش هم.

ذهبنا معًا لمجمع تجاري أراد أن يشتري منه بعض احتياجاته،

وهناك قابلنا صديقًا له من مصر كان من أصحاب البازارات في خان الخليلي، ترك كل شيء هناك وأتى للأرض الموعودة وحصل على الجنسية مؤخرًا! قدمه الهواري لي قائلاً: أبو الدهب من خان الخليلي، ضحكت قائلاً: يعني مش بس شغال في الدهب وكمان أبوه! دعانا أبو الدهب لحفل في بيته مساء بمناسبة حصوله على الجنسية بعد سنوات الانتظار العجاف، فذهبنا للحفل في منزل بعمارة فخمة على الشاطئ، هناك وجدنا حشدًا من المصريين الذين لم يحصلوا بعد على الجنسية ولا الجرين كارد، مجموعة من العالقين في فراغ أمريكا اللذيذ، حيًا أبوالدهب الجميع وانبرى يلقي على الحاضرين محاضرة لم يطلبها أو يتوقعها أحد منا:

عارفين إزاي الواحد يبقى أمريكاني؟ تفضل طول عمرك تجري ورا الدولار، وأول ما تتحصل عليه تحافظ عليه لأطول وقت ممكن، تصرف الضروري وبس، وتتعلم إزاي تتحايل عشان ما تدفعش وما تكشفش لحد إنت معاك قد إيه، أي غلطة ممكن تقضي على فرصتك للأبد!

تعرفوا؟ بعد ما حلفنا اليمين بالولاء لأمريكا، همس لي أحد الضباط الواقفين في الحفلة: هنيئًا لك، انضم للحثالة، كان بيقولها بلهجة واحد بيفتخر إنه فاهم الحكاية صح، لأن الأمريكاني ما بيفكرش غير في نفسه، أناني لأبعد حدّ!

لم يعلق أينا على كلامه، اللهم إلا بعض المداعبات مجاملة للراجل إللي فتح بيته وصرف على الأكل والشرب، طبعًا لم أقدر لا أنا ولا الهواري أن نأكل، كانت الحفلة نوعًا من الاستعراض على الغلابة إللي كل مُناهم يكونوا مكانه، بدليل إن الحفلة ما فيهاش ولا واحد أمريكاني، ولا واحدة صاحبته مثلاً بتحتفل معاه!

عدت للبيت وتمددت أمام التلفزيون لمتابعة الضجة الإعلامية وحوار الخبراء والمحللين حول موضة انهماج البنوك، ما يقتضي طرد موظفين بالكوم حفاظًا على أموال المودعين، كي تصبح المؤسسات المالية قادرة على المنافسة، خاصة وأن البنوك الصغيرة منتشرة مثل محلات البقالة في مصر، كانوا يتحدثون عن بنك بوسطن، وهو من أعرق البنوك الأمريكية، وعرض سيتي بنك لشرائه، أصابني هلع على أموالي - كان حسابي الجاري في بنك بوسطن - وقلت لنفسي بعد أن انفجرت في الضحك على سذاجة تفكيري وكأني من أصحاب الثروات: حساب إيه يا أبو حساب، ده أنت مُعدَم، طالب بعثة بدرجة شحات لا تملك إلا الستر، وأرباح حسابك في سنة ما يكفيش تمن وجبة عشا في مطعم محترم، أما أنت أهبل بصحيح، مالك إنت ومال البنوك، إنت فين من الحكاية؟ يدمجوا البنوك ولا يبيعوها بالتقسيط حتى، ما أنت طول عمرك بتتفرج على الفلوس وعمرك ما عمَّر في جيبك قرش!

غيرت القناة، فوجدت إعلانًا عن كيفية الحفاظ على الوزن المثالي، مع نصائح مملة عن الأكل الصحي وتحذير من السعرات الحرارية الزائدة وعلاقتها بأمراض السمنة، وقناة أخرى تعرض مباراة في كرة القدم الأمريكية التي تشبه حلبات المصارعين في الإمبراطورية الرومانية القديمة!

أغلقت التلفزيون ورحت أطالع الصحف اليومية حتى غفوت مغمضًا عيني على مشاهد الجنون والعنف اليومي، فرغم أن أمريكا أرض الأحلام، تظل في ذات الوقت أرض العنف بامتياز، عنف مجاني يسـرى كالنار في الهشيم:

سائق سيارة نقل يقتحم أحد المطاعم أثناء استراحة الغداء، عدد الضحايا 26 من الأبرياء! حادثة إغتصاب كل 27 ثانية في أمريكا! حادثة قتل كل 7 دقائق! 13 مليون أمريكي من أصل 250 مليون نسمة بلا مأوى، يعيشون في الأنفاق والأكشاك الصفيح ومستودعات الخردة! البنوك تنذر أصحاب البيوت الذين تعثروا في تسديد الأقساط بالطرد! البنوك تنفذ تهديدها!

حادث غامض، مقتل 12 رجلاً من رجال العصابات الآسيوية في مجمع سكني بوسط بوسطن بأسلوب وحشي، الدوافع حسب التقارير المبدئية خلاف حول صفقة مخدرات!

البرامج الحوارية تحذر على لسان ضيوفها من خطورة العزلة والوحدة على الأفراد، التي قد تؤدي بهم إلى الإنحراف الجنسي، وتدعو الفتيات والشبان في أمريكا للتخلص من "مخاوف" إقامة علاقات طبيعية! -

هذا هو الحال، الرأسمالية تحتاج لوقود دائم من الفقراء والمنبوذين والآلاف ممن يعاقرون الوحدة والعزلة والإقصاء، أولئك الذين يعيشون دون شريك أو رفيق اللهم إلا الكلاب والقطط، التي ينفق الأمريكيون على غذائها ما يزيد على 17 مليار دولار سنويًا!

كارلوس

كان عليّ أن أركب مترو الأنفاق حتى نهايته، ثم السير صعودًا أعلى تل مرصوف حتى تتكشف القصور على جانبي الطريق المؤدي إلى مستشفى "سانت إليزابث"، مارًا بحديقة عامة محاطة بسياج، يتدرب فيها الأطفال على لعبة البيسبول مع آبائهم، كان المطر يتساقط بغزارة، ولم تستطع المظلة صينية الصنع أن تصد قطرات المطر المتسارعة، وحولتها الريح إلى ما يشبه المنخل لا نفع فيها، اقتربت من المبنى محاطًا بالزهور من كل جانب، وسألت الممرضة التي بدت لي في فراغ الردهة مهرولة: أين أجد البروفيسور سيرجيو؟ دلتني على مكانه بإشارة صارمة من سبابتها، هناك في استراحة الأطباء يتأهب لدخول غرفة العمليات، عرّفته بنفسي فأشار إليّ أن أسرع بارتداء زي العمليات، ارتديت الزي سريعًا ولحقت به لاهثًا لأجده بدأ بشق بطن المريض وهو يشرح أنه سيستأصل جزءً من الأمعاء - أصيب المريض بمرض "كولونز ديزيز" وهو مرض يصيب ساكني المدن الصناعية في أمريكا واليابان وأوروبا الغربية - وشرع في خطواته الجراحية بسرعة ومهارة بينما مساعدوه يتابعون، وأنا أراقب، ثم انتقل إلى غرفة عمليات أخرى ومريض آخر كان عليه أن يستئصل مرارته بالمنظار، أرهقته الخطوات المعقدة لإجراء الجراحة بالمنظار دون الوصول إلى هدفه، فأزاح المنظار جانباً وشرع في إجراء

جراحة استئصال تقليدية!

قضيت يومي الأول أركض لاهثًا وراء سيرجيو، جراح الجهاز الهضمي الشهير، وقبل أن نغادر سألته: متى أحضر غدًا؟ أجاب: عليك الحضور في السابعة للمرور على المرضى مع النواب والطلبة وسأقابلك هناك، قبل حضور سيرجيو كلفني أحد النواب بإحضار نتائج تحاليل أحد المرضى، أسرعت لمحطة التمريض - الكونتر الذي تقف خلفه الممرضات وملفات المرضى- وسألت إحداهن، كيف أحصل على نتائج تحاليل مريض؟ فردت: عندك في الكومبيوتر.

لم أكن أعرف حضرته ولا سبق لي مقابلة سيادته، فأشارت إليه: ها هو أمامك أدخل على قائمة المعمل ثم ضع الرقم الكودي للمريض، توجهت ببطء للسيد كومبيوتر أتحسس طريقي إليه بقليل من الريبة وكثير من الرهبة، وعندما بادرت بالضغط على أزراره متبعًا تعليماتها ظهرت النتائج على الفور، وكأنها تسخر من مخاوفي ورعبي! رغم النجاح في التعامل مع الجهاز السحري كنت أتصبب عرقًا كلما أقتضى الأمر ممارسة طقوس الدخول الصارمة إلى حرم الكومبيوتر المقدس!

كان عليّ مرافقة النواب مع البروفيسور بجسمه الرياضي الرشيق وعينيه الثاقبتين، يقف بباب غرفة المريض فيلقي أحدنا بيانًا بتاريخه المرضي والأعراض ونتيجة الكشف الطبي والفحوص، بعدها يدخل سنيور سيرجيو مداعبًا المريض، مبتسمًا في وجهه مطمئنًا إياه أن كل شيء سيكون على ما يرام. الحق يقال، لم يره مريض إلا وانفرجت أساريره حتى ليخيل إليك أنه قديس يمنحهم البركات!

انتقلت بعد دورة الجراحة إلى قسم جراحة عظام الأطفال تحت اشراف مايكل جولدبرج - رئيس أقسام العظام- في مبنى "نيو إنجلاند ميديكال سنتر" وهو مبنى حديث ملحق بمبنى الجامعة القديم، موصول به بأنبوب يمر فوق شارع واشنطن حيث تقع البوابة الرئيسية لدخول عشرات العاملين الصاعدين من محطة المترو، وكنت قد انتقلت بعد ترك أستوديو صوفاي في وسط البلد للإقامة في حي "مولدن" الذي يبعد عن الجامعة 6 محطات مترو، في شقة يؤجرها "كارلوس" الطالب بجامعة نورث إيسترن، من كولومبيا، إحدى جمهوريات الموز المشهورة بزراعة وتجارة المخدرات، نحيف القوام بنظارة طبية تجعل منه أشبه بمخرج سينمائي أو مصور صحفي منه إلى طالب جامعة، وكان مسيحيًا كاثوليكيًا متدينًا شديد الأدب قليل الكلام، عرفني بالزميل الذي يسكن الغرفة الثالثة بالشقة، ليبي اسمه محمد الفقيه يدرس للحصول على الدكتوراه في العلوم السياسية من جامعة بوسطن، له خمس سنوات هنا، لا يستعجل شيئًا ويرى أنه من الأفضل ألا تنتهي الدكتوراه حتى لا يغادر أمريكا! أملى عليّ كارلوس بكل أدب ودقة تعليمات النظافة، وقواعد استخدام المطبخ، وطقوس استخدام الحمام وغسيل الملابس، وموعد تسديد الإيجار، وتمنى لي إقامة طيبة، ثم انزوى في غرفته .

دخلت في اليوم الأول من دورة جراحة عظام الأطفال، قاعة المحاضرات لحضور حلقة النقاش اليومي حول الحالات، بحضور جولدبرج شخصيًا دون تدخل منه، ويجلس من لا يجد مكانًا أو تأخر مثلي على حواف الطاولات في الأركان، وعند عرض لوحات

الأشعة الخاصة بحالة ما، يتبارى الجميع في التشخيص ووصف الأعراض مع ذكر المرجع الذي يستند إليه، لا أدري لِمَ لم أكن مقبلاً على لعبة التباهي بالمعلومات هذه، وفشلت في الاهتمام الواجب بها، ربما لأنها كانت في الأغلب تدور حول الأمراض النادرة، ولم أحتمل ملامح البؤس تعلو وجوه الأطفال المصابين، ونظرات الهلع والرعب من الآباء، وشعورهم بالخزي من جهلهم بأسباب الأمراض الوراثية، وشعورهم بالذنب لإنجابهم طفلاً غير سوي! حيث يأتي دور الخبراء العارفين بالأسرار كي يدلوا بتصريحاتهم القاطعة عن وسائل العلاج، ويحددوا المضاعفات واحتمالات الوفاة! وهي أمور تبلغ من الدقة - التي تغلف وجه الخبير بالجدة مع مسحة من التعاطف- ما يجعلك تتجنب الخوض في اللعبة التي يكون فيها الجميع غالبًا من المرضى وآبائهم والأطباء من الخاسرين!

انتهت الدورة، والربيع على الأبواب، فتبدلت ألوان الأشجار وتفتحت الزهور بألوان زاهية تعلن عن نفسها في بهاء، وصارت أشجار الشوارع والنباتات التي تنمو على حواف الطرق جزءًا من كرنفال حقيقي يدعو للبهجة، يزيده الناس روعة بالصخب والتزاحم في الشوارع، التي يهجرونها في الشتاء، ومع حلول فصل البهجة اقتربت من محمد وكارلوس، وكان كارلوس أكثر قربًا لي، ربما لطبيعته المحبة للحياة والناس رغم تحفظه الكاثوليكي التقليدي، وحكى لي في ذات نهار مشمس من نهارات السبت وهو يتابع مباراة لكرة السلة بين فريقي "ذي بيردس" الذي يتعصب له، وفريق "ذي بولز" من نيويورك، قصة حبه التي تؤرقه:

هي فتاة أمريكية تدرس معي في نورث إيسترن، لا تبالي كثيرًا بمشاعري، علاقتنا قائمة على المكالمات والتواعد في العطلات

لممارسة قليلاً من المتعة، لكنها تتجنب التورط العاطفي معي ربما لكوني مسيحيًا ملتزمًا، ولعلمها قوة ارتباطي عاطفيًا بأسرتي في كولومبيا، وأضاف:

أبي يعمل صيدلانيًا وأمي تعمل في المحاماة، نحن من الطبقة الوسطى في بلادنا، قامت أسرتي بتربيتنا نحن الثلاثة أنا وأخي الطبيب وأختي الصحفية تربية كلاسيكية على القيم الكاثوليكية، أعيتني الحيل في استمالتها لي حتى أنني أفكر في تركها، قاطعته:

هكذا ببساطة؟ ألا تقوم التعاليم الكاثوليكية على المحبة؟ هل الحب أمر يسهل التخلي عنه؟ تستسلم بهذه السهولة لمجرد اختلاف في التقاليد؟ أعذرني على تدخلي لكني أتصور أن عليك أن تحارب من أجل الفوز بقلبها للنهاية، بالحب فقط يا صديقي يمكننا تحمل قسوة الحياة، وعلينا الحرص عليه بقدر حرصنا على الحياة ذاتها، تشبث كارلوس بما قلته كأني أحد وعاظ كنيسته، وبدا كمن تلقف طوق النجاة بعد أن أوشك على الغرق وأردف متسائلاً: هل هذا رأيك فعلاً؟ أنا متردد ومحتار! ثم فاجأني: ما رأيك أن نلتقي نحن الثلاثة أنا وهي وأنت، ربما أمكنك أن ترى فيها شيئًا لا أراه يساعدني على الفوز بقلبها، أنا على موعد معها لتناول الغداء، سنذهب معًا غدًا في منتصف النهار.

ذهبت مع كارلوس، وأنا أخطط للانسحاب بعد الغداء لأترك لهما مساحة يتبادلون فيها ما يشاؤون، جلست قبالة كارلوس على المائدة وهي إلى جواره، فتاة ترتدي ملابس لا تكشف وإن لم تخف الكثير من جمالها، ذات شعر كستنائي مهوش، ترتدي قليلاً من الإكسسوارات والحلي الغريبة، تعارفنا أنا وكاثي التي نطقت اسمي بصعوبة وهي تبادر: حدثني كارلوس عن صداقتكم، وقال

إنك تحلل الأمور جيدًا، وتحقق نوعًا من التوازن مع زميلكم الثالث عصبي المزاج، هل فات كارلوس شيئًا مهمًا عنك؟ فقلت: ببساطة يا كاثي أنا من أرض الحكمة حيث أول أسطورة حب بين إيزيس وأوزوريس، وأول دستور عرفه البشر يحقق انسجامًا مع الكون، المسألة ليست في مهارة التحليل، المهم أن نفهم جذورها، في الفهم تكمن الحلول، وعلينا القبول بما تتطلبه الحلول من تنازلات، عمومًا أنت في العشرينيات وبالضرورة ما يعنيك الآن هو أقصى قدر من الاستمتاع بالحياة دون بحث عن تحليل أو تفسير، وأن تحققي أحلامًا عريضة تخططين لها، أليس كذلك؟ تدخل كارلوس الذي كان يتأمل الحوار في صمت: بالمناسبة ما هو حلمك؟

نظرت إلينا كمن يستنجد لإنقاذه من الغرق، وتمتمت وهي مرتبكة: لم أسأل نفسي هذا السؤال من قبل، ثم نظرت إليّ وهي تقول له: يبدو أن صديقك المصري أوحى لك بجرأة هذا السؤال، أحمر وجه كارلوس كعادته في أي مواجهة، وأعتذر لها فابتسمت ابتسامة المنتصر قائلة:

ما بالك يا كارلو؟ لقد احترت معك، أنت تهتم لأمري وهذا يسعدني، وأقضي معك أوقاتًا سعيدة وأرتاح للكلام معك، مضى على علاقتنا عامان ولم تسألني سؤالاً مهمًا كهذا إلا اليوم، إن سؤالك يفرحني وإن كنت أفضل الإجابة عليه في وقت آخر، وأظن أن حلمي أبسط كثيرًا مما يمكن أن تتخيلا.

سرنا قليلاً حول المطعم ونحن نتضاحك كأننا أصدقاء قدامى، وقبل أن أتركهم سألتها: كاثي من أين أتى أجدادك، أقصد ما هي أصولك؟ أجابت كمن يدفع عن نفسه تهمة: أنا أمريكية من الجيل الرابع – وهي إجابة تقليدية لمن يرفض أن ينسب لأية أصول سوى أمريكا– لكنها تابعت: حسنًا، قالوا لي أنهم جاءوا من بلجيكا، لكني

لا أعرف الكثير عن تلك الجذور، وهي لاتهمني على أية حال.

وعند عودته للبيت دخل غرفتي فرحًا: أتعرف؟ لقد ساعدني وجودك معنا اليوم على التأكد من حقيقة مشاعرها، لقد اعترفت لي بأنها تهتم لأمري وتتمنى أن أذهب لأقيم معها، وإن كان عليّ أن أقابل أهلها أولاً، هنأته وقلت: رائع، لا تتردد يا رجل، الحياة لا تكرر عطاياها إلا نادرًا.

اعتدت في المساء بعد إعداد وجبة عشاء ساخنة - فاشلة في أغلب الأحوال - أن أزدردها في حجرتي وأنا أشاهد التلفزيون، محاولاً الدخول في النوم حتى أتمكن من القيام في السادسة صباحاً، واعتاد محمد الليبي أن يطرق باب غرفتي ويدخل ملقيًا عليّ التحية، ثم يشرع في الحديث حول ما يريد، ولأنه يدرس العلوم السياسية فهو بالضرورة محللاً عظيمًا، وكنت أبتلع على مضض شعوره بالقيمة المبالغ فيه، وأهمية آرائه التي يتنازل ويطلعني عليها من مساء لآخر - أغلبها ينصب على مفاهيم القومية العربية- دون أن يذكر بلده إلا بشكل عابر!

محمد الفقيه يعرف تقريبًا كل شيء عن مصر والمصريين - أو هكذا يظن- وعن الشام والشاميين، وعن أهل المغرب وقبائل الجزائر، أما ليبيا فتبدو كساقط قيد من دفاتره، وكنت معتادًا على هذا السلوك من العرب المقهورين بأشكال شتى، فهم دائمًا أصحاب رأي في شئون البلاد العربية الأخرى! دعاني لمقابلة زملاءه الليبيين في منزل أحدهم حيث يتناولون الطعام ويستمعون لأم كلثوم، وقال ليغويني: ربما دخنا بعض السجائر المحشوة بالحشيش حتى يكتمل المزاج، شكرته ووعدته بأن أزورهم عندما تسنح الظروف!

لم أتبين من كلام محمد وآرائه إن كان مع نظام العقيد أو ضده، ويبدو لي أنه هو نفسه لا يعرف، وكان دائم الانتقاد للعادات القبلية والانغلاق على القبيلة، وكان يرى في مساندة العقيد لحركات التحرر في العالم امتدادًا لدور عبد الناصر الأممي .. بينما العالم في الواقع قد طوى صفحة النضال المسلح من عينة منظمة "بادر ماينهوف" في ألمانيا أو"الجيش الأحمر" في إيطاليا، تلك الحركات التي لم تعد تذكر إلا بوصفها نوعًا من التراث الإنساني! وربما كانت أكثر آرائه إثارة للسخرية يقينه بأن ليبيا لا ينقصها شيء كي تصبح قوة عظمى- أليست بلادنا كلها كذلك- وأكد محمد وجهة نظره المتفائلة بقوة ليبيا العظمى متسائلاً: لكني لا أدري لماذا لا نتقدم؟!

لم أتورط في الإجابة، ربما لم يخطر بباله أن الدارسين من أمثاله وأمثال المشاي، قرينه وابن بلده الذي يجلس من سنين لعقد صفقات لا وجود لها في المطعم الذي ذهبت إليه مع الهواري، وأقرانه الذين دعوني للعشاء على أنغام الست، كل هؤلاء ممن يفترض أن يكونوا وقودًا لتلك النهضة تحولوا إلى رماد أو حطام بشر، ولم يعد أي منهم لبلده كي يقطع مع أهل بلده ولو خطوة واحدة في طريق التقدم!

بدأت في شهر أبريل - بمساعدة الهواري- العمل في محطة بنزين بحي "ماتابان" وهو حي غالبية سكانه من الزنوج إضافة إلى الأمريكيين خصوصًا ذوي الأصول الأسيوية، الذين استوطنوا هذه الضاحية منذ أجيال، ولم يألفوا الإقامة في غيرها رغم ثرائهم، وفي ذلك الوقت كان كارلوس يتأهب للإقامة مع كاثي، وبقيت لي أيام قليلة قبل انتهاء إقامتي لديه في مولدن، وكانت قطع الأثاث

المتهالك خاصتي - منحني إياها عادل ابن خالتي باعتبارها كراكيب لم يعد في حاجة إليها- تتألف من: سرير سفري، وطاولة أتناول عليها طعامي وأستخدمها كمكتب أذاكر عليه، وصندوق التلفزيون الكرتون الذي أضعه عليه بعد أن ملأته بالكتب، وكرسي خشبي أضع عليه الأباجورة وجهاز الكاسيت والطفاية إلى جوار السرير، ودولاب معدني اشتريته بناء على نصيحة عادل له جراب مشمع يغلق بسوستة، ألقي فيه بملابسي.

كانت كراكيبي همًا ثقيلاً، كيف أنقلها من "مولدن" إلى "ريفير" حيث إقامتي الجديدة؟ وبدت عليّ الحيرة وقت استلام الوردية في محطة البنزين من جيمي - الذراع اليمنى لصاحب المحطة والذي يعمل في ورديات النهار فقط - فسألني: ماذا بك؟ أجبته: لا شيء، فقط أفكر في كيفية انتقالي إلى ريفير، بالمناسبة أتعرف أحدًا لديه سيارة نصف نقل ينقل لي أشيائي، تفتكر ياخد كام في المسافة من مولدن لريفير؟ ابتسم وقال: حتنقل إيه بالضبط؟ وصفت له مجموعتي النادرة من الكراكيب التي لم أر داع لشراء غيرها، أطرق للحظة ثم سألني: متى تريد نقل أغراضك؟ أمامي يومان لا غير، فأجاب: إذن غدًا في الخامسة سأمر عليك أمام محطة مترو مولدن، على أن تكون هناك مع أغراضك، سأنقلك بسيارتي، فشكرته كثيرًا وودعني قائلاً: لا بأس.

أغلقت طاولة السفرة، التي تتحول بعد غلقها إلى كتلة ثقيلة من الخشب، والسرير المعدني والكرسي، ونقلتهم في مصعد العمارة إلى البوابة ومنها إلى الرصيف، ثم عبر الممر - الذي تقع به نقطة البوليس ومكتب البريد وحوض الزهور الدائري الذي تتوسطه

شجرة وحيدة- وتركت كل شيء على الرصيف المقابل للمحطة قائلاً لنفسي: لن يمد أمريكي يده على هذه الكراكيب- فعند انتقال أحدهم يترك ما يستغنى عنه بجوار صناديق القمامة وتظل في مكانها حتى يسيل لعاب أحد الصعاليك على قطعة ما فيأخذها إلى محل إقامته في الأنفاق أومستودعات الخردة- وعدت مسرعاً إلى البيت وحملت حقيبة الملابس، وكرتونة الدولاب بعد فكه وبها الأباجورة وباقي أشيائي حتى وصلت للرصيف، الحمد لله وجدت كل شيء في مكانه كما تركته.

شرعت في تدخين سيجارة انتظارًا لوصول جيمي، ولم يكن هناك أحد في الشارع حيث لم يكن موعد عودة الناس من أعمالهم قد حان بعد، وكلما مرت ثلاث أو خمس دقائق دخل راكب أو أثنان محطة المترو، وخرج مثلهم ليغيبوا سريعًا في ضباب الطرق!

فجأة واجهني زنجي ببالطو لا يقل عمر استخدامه عن عشر سنوات وسألني: معك سيجارة؟ رميت سيجارتي من يدي وقلت له متحديًا: لا ليس معي سجائر، فقال وقد عقد حاجبيه غاضبًا: أنت تكذب، علبة السجاير في جيبك، هل ترغب في شجار؟ كان صوته مضطربًا ورائحة الخمر تفوح من فمه، لمت نفسي وبدأت الهواجس تغزو عقلي، عليّ إنهاء الموقف بثبات وإلا وقع عنف لا قبل لي به، انطلق الأدرينالين من مكمنه وتدفقت الدماء في عروقي تحفزًا، وصرت متأهبًا لمعركة ربما كان وقودها تلك الكراكيب البائسة ... مرت ثوانٍ وهو يتأملني ويتفحص في وجهي الاحتمالات، وأنا لا يطرف لي جفن جامدًا في مكاني وكأنه غير موجود أصلاً، ابتعد لخطوات قليلة وهو يلعنني بكل ما أعرف ولا أعرف من ألفاظ السباب، عندها ظهرت سيارة جيمي قادمة من

الطرف الآخر للشارع، لوحت له ليقف في أقرب نقطة، ونظرت بطرف عيني إلى الزنجي لأجده قد اختفى إلى حيث لا أدري، ربما أدرك مع ظهور جيمي أنه سيخسر المعركة لا محالة.

نقلت أغراضي بمساعدة جيمي ووضعتها في الصندوق الخلفي لسيارته وانطلقنا، وعندما حكيت له ما حدث تعجب من رفضي اعطاء المتشرد سيجارة وشرح لي خطورة المسألة، وأن موقفًا كهذا قد ينتهي بطعنة سكين يطعنني بها ويفر! أمنت على كلامه بلا مبالاة، وعندما وصلنا تأمل الشارع الذي أشرت له بالدخول فيه وسألني: كيف اخترت هذا المكان؟ أجبته: لم أختر شيئًا، كل الحكاية أن زميلاً مقيمًا هنا سافر وأعلن صاحب الشقة أن لديه غرفة خالية، وكان عليّ أن أترك الإقامة في مولدن، مجرد صدفة، أجاب ونحن نحمل معًا الكراكيب أعلى الدرج: أنت هنا في حماية المافيا يا بطل!

فتح لنا عبد الله الباب ورحب بنا، وبعد أن نقلنا كل شيء داخل الحجرة الموعودة أعد لنا القهوة، شربها جيمي وهو يشرح أن الحي آمن تمامًا لأن غالبية سكانه من أصول إيطالية، ولا يجرؤ أحد كان على مجرد الاقتراب، فأي مغامرة هنا تعني مواجهة مباشرة مع رجال المافيا الذين يحمون أبناء عشيرتهم المنتشرين في الحي، عرضت على جيمي البقاء لتناول العشاء، فأجاب شكرًا لك، فقلت: بل أنا الذي أشكرك، وفي طريقه للباب رفض أي مقابل لمساعدته قائلاً: يمكنك الاعتماد عليَّ في أي وقت.

كان عبد الله أبو السعود يسكن الطابق العلوي من منزل تقليدي، يسكن أصحابه الدور الأرضي مع البدروم، والشقة عبارة

عن غرفتين وصالة بها حوض المطبخ وأدواته إضافة إلى طاولة لتناول الطعام، وعدّد لي عبد الله مزايا الشقة وأهمها قربها من محطة المترو والأوتوبيس، ثم شرح كيفية الذهاب للمغسلة وموقع السوبر ماركت وميعاد دفع الإيجار وفواتير التليفون والمياه والكهرباء، وحدد دور كل منا للحفاظ على نظافة الشقة، ثم أشار للنافذة التي تطل على فناء المنزل الخاص بالمالك وزوجته قائلاً: علينا ألا نسبب لهما أي إزعاج! أجبته: لا تقلق، أنا موافق على كل شيء، وبالنسبة للجيران نحن نحفظ لهم حقوقهم، أم تظنني نسيت تقاليدنا لمجرد إقامتي هنا كام شهر!

كنت قد التقيت - قبل انتقالي إلى ريفير- بعبد الله ابن حي المنيل في لقاء توسط فيه الهواري، وابتسم مرحبًا بانتقالي للإقامة معه ما أن يغادر صديقنا عبد الحميد المبعوث من جامعة أسيوط، وأردف: إن شاء الله ترتاح في إقامتك معي، فأنا أخرج يوميًا في الصباح الباكر ولا أعود قبل الثامنة مساء، رديت المجاملة له بقولي: حسنًا أتمنى ألا أكون أنا شريكًا مزعجًا، ليست لي طلبات سوى أن تتحمل تدخيني في غرفتي أو في الصالة في غيابك، فرد ببساطة: لا بأس، فقط حاول فتح النوافذ للتهوية عند خروجك، وتزامن انتقالي للسكنى مع عبد الله مع انتهاء دورة عظام الأطفال التي أفادتني في اعتياد جو المستشفى، وتعرفت أثناءها على "جون" كبير الأطباء، وهو ضخم الجثة دمث الخلق قليل الكلام، ربما لانشغاله الدائم باستكمال أوراق تقييم الأطباء قبل توقيعها من رئيس القسم، سواء كانوا متدربين أو طلبة بالكلية أو نوابًا بالقسم، إضافة للزملاء الأجانب مثلي والمتدربين في المهن المساعدة مثل التمريض وفنيي الأشعة والمعامل ومساعدي الإسعاف.

حي ماتابان

في ماتابان، حيث إحدى محطات البنزين التابعة لشركة شل والميني ماركت الملحق بها، وفَّر لي الهواري عملاً بدأته في وردية الليل أيام الجمعة والسبت من كل أسبوع، وصادفتني بعض المتاعب، خصوصًا مع نوعية الزبائن المميزة لليالي عطلة الأسبوع، كنت أتلقى نقود الزبائن من الشباك الحديدي، حيث يتم إغلاق الباب من الداخل مع موعد بدء الوردية، ويبلغ الزحام ذروته عادة بين العاشرة مساءً والواحدة صباحًا، وعليّ عندما يخف ضغط الزبائن أن أقوم بمسح الأرضية، وإعادة ترتيب ثلاجة المشروبات وتعويض ما بيع من زجاجات على الرفوف، ثم قرب الفجر يحضر موزع الجرائد، فأفتح له الباب وأستلم منه الطلبية وأوقع له على الكمية، وأعود لترتيب رفوف السجائر والحلوى وأكياس الشيبسي وإعداد ماكينة القهوة، ثم أراجع حصيلة الليلة من كروت الكشط، التي يكشطها الزبون ونعطي له قيمة ما قد يجده - إذا فاز- مكتوبًا على الكارت بعد كشطه، وهي جوائز تتراوح بين خمسة ومائتي دولار، وحصيلة ماكينة الميجاباكس التي يكسب فيها أسبوعيًا واحد على مستوى الولاية مليون دولار، ويقوم الزبائن الطامعين في الفوز بالجائزة الكبرى بعمل تخمين للرقم الفائز، وهو عبارة عن ثلاثة مجموعات من

الأرقام الزوجية والفردية بتسلسل عشوائي، وتعلن النتيجة في الراديو في العاشرة مساء كل سبت.

تعلمت في ماتابان لكنة الأمريكيين السود، ولكنة ذوي الأصول الآسيوية الذين يستوطنون الحي منذ عقود طويلة، وكان من بين زبائن المحطة الدائمين، مادلين ذات الستة عشرة ربيعًا التي اعتادت الحضور ليلة السبت، قبل سهرتها مع أصدقائها أو في طريق عودتها، لتشتري مشروبات خفيفة أو علبة بيرة، وتقف لتتحدث معي عن رضا - أحد العاملين بالمحطة الذي حصل على الجنسية بحكم الزواج من أمريكية تكبره بـ 25 عامًا - الذي لم يُكِن لها ذات المشاعر التي تُكِنها له المراهقة مادلين، وكان يتهرب منها ما زاد لهيب غرامها به، كما تعرفت في المحطة على السيدة جاكلين، التي تحضر كل ليلة قبل موعد الإغلاق في العاشرة، تبدأ بكروت الكشط، ثم ماكينة الميجاباكس، منفقة ما لا يقل عن مائة دولار يوميًا! وهي أستاذة بجامعة نورث إيسترن، وتقوم بتصميم البرامج للشركات، في الخمسين من عمرها، لا هي بالجميلة ولا بالدميمة، تتمتع بابتسامة رائقة وقدرة على تبادل الحديث مع الناس بلا مقدمات، تدخن بشراهة، وتبدو بلا وليف!

كان رضا شابًا طويلاً نحيفًا تنطق ملامحه بالرجولة، وتكرر مرور زوجته "ستيفاني" عليه أثناء العمل لغيرتها عليه، خصوصًا أنها لم ولن تنجب منه، وهو لم يبلغ الثلاثين بعد، ومنطقي أن يتورط يومًا ما مع فتاة شابة تعيد له توازنًا لا يتحقق في حياته

معها، وكان البنهاوي والد رضا يعمل بالمصانع الحربية في حلوان، ومع انفتاح السبعينيات وإصلاحات الثمانينيات والقضاء على قلاع الصناعة التي بنيت في الستينيات، جاء إلى أمريكا ليجد فرصة أفضل له ولأبنائه، واستقر في بوسطن حيث عَمِل في ورشة لإصلاح السيارات صار شريكًا فيها، بينما عَمِل أبناؤه الثلاثة رضا وإيهاب وياسر في محطة البنزين لحين إيجاد عملاً أفضل، يراود كل منهم حلم جمع ما يكفيه ليبدأ مشروعه الخاص.

رضا هو الأصغر في عائلة البنهاوي والأكثر شقاوة ووسامة، يتميزبالتفرقة بين اللهو والصرامة في العمل، ورغم محاولات مادلين المستميتة ليعاشرها، ظل يصدها بحزم أحيانًا وبلطف أحيانًا أخرى، فهو يعرف عقوبة معاشرة فتاة قاصر، ويدرك مثل باقي أفراد عائلته أهمية الحفاظ على سجله الجنائي نظيفًا لا تشوبه شائبة، وكان رضا أكثر العاملين براعة في كسب وِد الجميع، لتمتعه بلباقة ومهارة في استقبال الزبائن بحفاوة لا تبارى.

أما إيهاب فكان متزوجًا من أمريكية تكبره بـ 18 عامًا فقط، وهي مطلقة ربت ابنتها حتى ألحقتها بالجامعة، ويقيم معها في بيتها الملاصق للمحطة، وتأكلها الغيرة عليه هي الأخرى، وكلما رأت فتاة تحدثه يبهت وجهها وتنقبض أساريرها، ويمكن القول أنها من عينة النسوة مكسورات الجناح، أما هو فيتمتع بهدوء أقرب إلى البرود، ويطالبها بتولي شئون البيت كما تمليه عليه ثقافته كمصري، ودائمًا يسهر بدونها مع أصدقائه ولا يخرج

معها إلا نادرًا، ربما لأن فارق السن الواضح يضعه من حيث لا يدري في خانة المبتزين! أما ياسر فلم يتزوج ويبدو دائمًا عازفًا عن النساء ومغرقًا في التأمل والحلم بالثروة.

ذات يوم حضرت "شيللا" زوجة إيهاب لتسألني عنه، بأسلوب أقرب لأسلوب المخبرين السريين، وهي تمسح بعينيها منطقة المحطة: هل خرج مع أحدهم؟ أجبتها: نعم مع صديقة طلبت منه توصيلها، لم ترد وخرجت ثم عادت بعد ساعتين لتذرع المكان جيئة وذهابًا والقلق يكاد يقتلها، وقرب نهاية الوردية كنت تلقيت منها أربعة اتصالات، وسألت عنه في أمكنة تواجده دون جدوى، ولم يبق لها إلا أن تبلغ البوليس أنه مفقود! فاجأتني عند خروجي على باب المحطة بسيارتها: إلى أين تذهب؟ قلت: للبيت، فتحت باب السيارة وقالت: اركب حأوصلك، حاولت الرفض: لا شكرًا المسافة بعيدة وممكن إيهاب يقلق عليك، فقالت بحزم: لا بأس، قل لي أين تسكن؟ فقلت لها يائسًا: في ريفير، حسنًا سأقوم بتوصيلك لأني لو بقيت وحدي بالبيت سأجن، انطلقت بسيارتها على الطريق السريع وأنا أتحسب لهذه الورطة، فأنا لا أريد أن أخوض في مشاكلها مع زوجها، بصراحة لا أعرف ما يقال أو لا يقال! وبالفعل بدأت تشكو من إيهاب وأخويه، فهم يتزاورون يوميًا ويشترون مشترياتهم بشكل جماعي، ويقضون أجازاتهم بانتظام مع العائلة ما يصيبها بالملل ويشعرها بأنها دخيلة عليهم لا بأس من غيابها ولا ضرورة لوجودها!

واصلت شكواها وهي تبكي وتصرخ ثم تنظر إليّ في مرآة

السيارة وتتساءل بلهفة: ما رأيك؟ كيف أسترد إيهاب الذي أحبني وأحببته؟ إهماله لي يمزقني، وخوفي أن أفقده يصيبني بالجنون. ثم أوقفت السيارة فجأة على جانب الطريق وأمسكت بيدي وهي تسأل مستعطفة إياي أن أجيبها على ما لا أملك له إجابة: ألست امرأة لها مشاعر واحتياجات؟ لِمَّ يهجرني في رأيك؟ نعم لا زلنا نعيش تحت سقف واحد لكننا لا نتواصل، ما العمل؟ قلت بهدوء:

أنا لا أملك إجابات، وإن كنت أظن أنه علينا دائمًا أن نحدد خياراتنا، هذا ما أعرفه جيدًا، واضح من لهفتك عليه أنك تحبينه وتتوقعين أن يبادلك نفس الشعور، هذا طبيعي، لكن يبدو أن ما تفتقدينه بالفعل هو الشعور بالأمان، ربما كان فارق السن مشكلة، لكن بحكم ما رأيته بعيني يوم عيد ميلادك أقول لك أن كل شيء يبدو طبيعيًا، هذا هو إيهاب، فهو لا يقصد إهمالك لكنه لا يشعر بالأمان إلا وسط أهله وأصدقائه، أكيد يشعر معك بالراحة، لكن يبدو لي أنه لم يحسم خياراته بعد!

هدأت قليلاً وقالت وهي تعاود السير في إتجاه ريفير: ليته يعرف كم أحبه وكم أحتاج إليه؟ قلت لتغيير مجرى الحديث: أتعرفين؟ هذه الشوارع الخلفية التي اخترت السير فيها أراها لأول مرة، يبدو غريبًا أن تكون حالتها بائسة لهذه الدرجة في مدينة مهمة مثل بوسطن، أليس كذلك؟ فقالت: بلدنا محتاج لعملية إحياء لشبابه، هناك نقص واضح في ميزانيات البلديات، عندها قلت: أتعلمين؟ ربما كنت أنت أيضًا في حاجة لإعادة الحيوية وتجديد دم حبك لإيهاب بدلاً من الاستغراق في أفكار

فقده، كنا قد وصلنا لمدخل حي ريفير فسألتني، أين البيت؟ فقلت: شكرًا سأنزل هنا لتسلم ملابسي من المغسلة، وحمدت الله أن الحوار انتهى دون تورط، فإيهاب في نهاية الأمر رجل شرقي، وأنا في غنى عن شبهات سوء الظن بيني وبينه.

بعد فترة من العمل في ماتابان، بخليط البشر متعدد الأجناس فيه، والاعتياد على الشوارع الخلفية الخطرة، والليل وما يجري فيه، أصبحت قادرًا على التواصل مع شباب الحي من المراهقين والمراهقات والعمال الذين يترددون على المحطة، ومنهم من هم أشبه بعصابات الشوارع بلكنتهم وملابسهم العبثية، وتزاحمهم على ماكينة القمار التي تجني أرباحًا طائلة من الحالمين بالثروة، فالحلم الأمريكي الأصيل هو أن تصبح صاحب عمل، وأن ينمو حسابك في البنك أيًا كان المصدر، ويندر أن يمر زبون لشراء علبة سجائر أو لتموين سيارته دون شراء كارت أو أكثر من كروت الكشط، أملاً في أن يعوض كلفة ما اشتراه من كشطة ورق، لأن الفوز بأي مبلغ فأل حسن.

كان أحد الزبائن المترددين بانتظام رجلاً يأتي دائمًا بثياب مهندمة، حليق الذقن، ثاقب النظرات، يتكلم بإيجاز، بالكاد يشير إلى ما يريد وهو يتفحص وجوه الآخرين باستعلاء، لفت نظري لاختلاف هيئته عن باقي الزبائن، لم أعرف من هو؟ حتى جاء ذات يوم والمكان شبه خالٍ من الزبائن، فإذا به مطأطئ الرأس، ذقنه لم تقربها شفرة موس من أيام، يتلاهى عن نظراتي المتسائلة بالنظر لأشياء ليس من عادته شراؤها ولا يبدو أنه

يراها أصلاً، بدا كالهائمين في الشوارع والأنفاق، ولم يعد واثقًا من نفسه كما كان!

بادرته: كيف حالك سيدي؟ لم يرد وطلب بعض كروت الكشط، لم يفز منها بأي شيء فنظر نحوي بأسى وقال: أتدري، نحن حقاً بؤساء، فالبنك الذي عملت به عشر سنوات بإخلاص فصلني بعد اندماجه مع بنك آخر، نحن نتحول إلى عاطلين دون مقاومة تذكر، ونستسلم لنسائنا اللاتي يخدعننا، هذا ليس عدلاً ألا ترى ذلك؟

أجبته متحيرًا فيما يجب قوله: هون عليك سيدي، أجاب بصوت أكثر انكسارًا: كيف تقول ذلك؟ بدا أنني تورطت في حديث لا ناقة لي فيه ولا جمل فقلت: مهما كان الأمر فعلينا أن نصمد، الحياة لا تقبل بالضعفاء، أليس كذلك؟ النساء هن النساء، لاسلطان لنا عليهن، فالدفة بأيديهن طوال الوقت رغم ادعائنا بغير ذلك! قال بتهكم: تتحدث كخبير، أتعرف أنها تطلب الطلاق لتلحق بعشيقها في كاليفورنيا، بعد أن ظللت لعشرة أعوام أعمل بلا توقف لتلبية طلباتها، معتقدًا أن هذا يكفي للتعبير عن حبي لها، ألم يكن هذا دليلاً على إخلاصي؟ ألا يكفي ان أكرس حياتي وعملي لها؟!

بدا أن الحوار يسير في الاتجاه الخطأ، ولم يسعفني ولا زبون واحد بالتملص من محاكمته لذاته التي صرت طرفًا فيها، وعليّ الإنصات والإدلاء برأيي دون إدانته من قريب أو بعيد، أنا لا أعرف الرجل ولا أعرف اسمه حتى، ولم يسبق أن تحدثنا معًا، اللهم إلا تحية عابرة أرد عليها بعبارة أرددها على كل زبون: تعالى

إلينا مرة ثانية! ثم أين ذهبت أناقته؟ أين تعاليه الواضح على الحثالة من الزبائن؟ أترى خانته زوجته فجأة؟ أم أنها تخونه من زمن؟ حاولت إنهاء الحديث: المشكلة ليست في الإخلاص فهذا لا يؤرقهن أصلاً، المشكلة في ما لا ننتبه إليه، وهي أمور تقيس بها كل منهن حرارة العلاقة، وعادة نكون غافلين عنها، ثم بدأ المكان يزدحم فاستأذن وحياني شاكرًا حسن استماعي له!

عند عودتي للبيت فتحت التلفزيون، ورأيت واعظًا في برنامج ديني يرتدي أغلى الثياب، في كامل لياقته البدنية والنفسية، وقد وضع ماكياجًا ولمسات جعلت هيئته كنجوم السينما، يلقي وعظه في حشد من الرجال والنساء، يتجلى في وجوههم وثيابهم أنهم صفوة الصفوة، باختصار الباشا الواعظ والباشوات والهوانم الحضور ليست فيهم غلطة، هم جميعًا في أبهى صورة يمكن لهوليود رسمها.

ظل الواعظ الساحر يتمايل ويتبختر أمام جمهوره أو أبنائه كما كان يخاطبهم من فوق خشبة مسرح ولا برودواي في عزها، يرفع من صوته ثم يخفضه مع وقفات تليق بأداء شيكسبيري متقن، أو بالأحرى أداء ممثل محترف في مسرحية عبثية لبيكيت، يميل يمينًا في صمت مدروس، ثم يلتفت يسارًا نصف دورة مقتربًا من إحداهن ليتابع حديثه، فتحبس أنفاسها بينما هو شاخص أمام عينيها التي اغرورقت بالدموع، وبعد هذا الكريشندو المتقن يتراجع إلى قلب خشبة المسرح برشاقة منهيًا حديثه المؤثر، ويتخافت صوته بينما يتكوم على نفسه في لحظة تطهر أكثر إتقانًا، فتشهق السيدة ويتبعها كل من في

القاعة بالتنهدات والشهقات وبريق الدمع في العيون، فقد لمس الواعظ القديس وترًا حساسًا ما في قلوب الحضور وأرواحهم المعذبة!

كان يشرح أهمية أن تمتثل المرأة لرغبات زوجها وشهواته، حتى لا يتورط مع غيرها بحثًا عن الإشباع، ويتحقق لها الإشباع فلا تشتهي غيره، هذه هي حكمة الرب يا أبناء، أن يصل الزوجان في رباطهما المقدس لقمة الوئام والاكتمال، القمة وليس أقل منها. استمر الواعظ المفوه في حديثه، وبعد فاصل إعلاني أُعلن فيه أن مشاهدي الواعظ يتجاوزون العشرين مليونًا صباح كل أحد، واصل: لماذا تأتي امرأة جميلة للكنيسة؟ لأنها تحتاج لذلك، لأنها ضالة كشاة ضلت قطيعها أنا راعيها، وعليّ أن أرشدها وأعيدها إلى أقرانها في القطيع في وئام وانسجام! هذا ما نحتاجه حقًا، ألا يفر أحد منا للمجهول، وأن نطمئن للخطوة القادمة وأنها تفضي بنا إلى السكينة، ثم أشار لإحداهن وكانت أجملهن كما أوضحت حركة سريعة من الكاميرا بعدًا وقربًا منها، وكانت أكثرهن طربًا بألحانه والفوكاليس الصوتي البارع وسألها منهيًا برنامجه الدرامي على سؤال مفتوح على الإثارة واليقين معًا: ألا تريدين السكينة سيدتي؟!

طيّر الواعظ الساحر النوم من عيني، وردّني قسرًا إلى شكوى زبون المحطة من خيانة زوجته، وما قالته شيللا عن قلقها من فقد إيهاب، وبدا أن هؤلاء يحتاجون لمثل هذا الواعظ، ولكن ماذا عن مأزقي أنا؟ مرت الشهور، ولم تأت محاولاتي للوئام

مع مجتمع الرفاهية بنتيجة تذكر، هذا الخليط من المشردين البؤساء من جانب، والسائرين كالمنومين مغناطيسيًا على درب النجاح في تنافس وصراع من جانب آخر، لا يرضي أحد بما لديه، ولا سبيل لنجاته من وحدته وافتقاده لمعنى الحياة، الكل لا يجد طعمًا للعبة!

في حديث لي مع أستاذ الجراحة روبرتو في سانت إليزابيث، وردًا على سؤالي عن أهمية استئصال المرارة بالمنظار رغم صعوبتها ومضاعفاتها التي تماثل مضاعفات الجراحة التقليدية أجاب: صحيح عملية المنظار أصعب وتتطلب فترات تدريب طويلة، وربما كان لها نفس المضاعفات، لكننا هنا في أمريكا نميل لها، أولاً لأنها تقلل مدة الإقامة ما يعني توفير أموالاً طائلة، ثانيًا لأن الندبات التي تخلفها صغيرة ومن الناحية التجميلية لا تقارن بآثار الجراحة التقليدية، وفترة النقاهة أقل وهو ما يعني فائدة المريض والمؤسسة التي يعمل بها وشركة التأمين التي تتحمل كلفة العلاج، ربما كان الأمر عندكم في مصر مختلفًا، لكننا في سباق دائم مع الزمن ولا بد لنا من مواكبة التطور والسعي لرفاهية الإنسان وزيادة قدرته على الإنتاج، هذه هي المسألة.

تبدو لي المسألة الصراع من أجل الثراء لا أكثر، الحلم الذي يطحن الجميع في رحاه بينما الإحصاءات تقول: 1% من العائلات الأمريكية يملكون 70% من ثروة البلاد! وها هو الواعظ الساحر يستطيع - بقدر لابأس به من المبالغة ومهارة التمثيل - أن يستحوذ على مشاهدة أكثر من 20 مليون فرد،

مؤثرًا فيهم حتى البكاء والصراخ والإغماء ولا أجدعها كودية في أتخن زار، وهو يُدين الجحيم الذي صنعناه بجشعنا وأنانيتنا التي تبعدنا أميالاً عن جنة الرحمة والتعاطف الإنساني!

بالطبع لا يهم هذا الواعظ العبقري ولا أي من مريديه، عدد ما أسقط على العراق من قذائف كروز وقنابل الطائرات المقاتلة، أو عدد الأطفال والنساء الذين قتلتهم النيران الأمريكية بأيدي جنود لا يعرفون شيئًا عن البلد الذي ذهبوا إليه، سوى أنه أحد بلاد البترول الذي استولى على بلد بترولي آخر أكثر وداعة، وهم يقتلون بدم بارد وفاء لحق بلادهم في القصاص من الطاغية!

وطبعًا لا يفطن الكثيرون ممن خانتهن زوجاتهم أو خانوهن في غفلة من الجميع، قدر الخيانة في قتل الأطفال في فلسطين وتكسير عظامهم لأنهم يلقون بالحجارة على المدرعات، قصاصًا من الضحية لا الجلاد! .

لا شك إنه من صميم الإنسانية والرحمة أن نعطف على الكلاب، وأن نعنى بقططنا المنزلية، أما الملايين التي تموت في إفريقيا بفعل الصراعات القبلية التي تدار لصالح شركات النفط أو النحاس أو اليورانيوم فلا بأس بها، لأنه قدر هذه الشعوب المتخلفة!

جافاني النوم، ولم تهدأ طاحونة الأفكار إلا بعد اتصالي بفردوس واطمئناني عليها، بعدها ارتديت ثيابي وتأهبت للخروج بحثًا عن نسمة هواء تطفئ نار حيرتي، وكان أبو السعود قد قام ويتناول فطوره في الصالة، وسألني عن سر

قلقي وعدم استطاعتي النوم رغم إجهاد العمل في وردية الليل، أجبته: لعلني لم أخلق للراحة، وشرحت له بعض ما دار في برنامج الواعظ الساحر والأفكار التي توالت على رأسي.

انبرى الشاب المصري قمحي اللون وقد بدت عليه علامات الثقة بالنفس: أمريكا يا عزيزي هي أمريكا، قمة العلم والتكنولوجيا، ومنتهى آمال البشر في الحرية، وفي يوم ما سيجد علماؤها الإجابة على كل الأسئلة، والحلول لكل المشاكل، فالمجتمع في حالة حراك دائم، تحت مظلة واسعة من العلم والبحث والنقاش الحر، عمومًا ربما أمكننا استكمال الكلام في وقت آخر، لكني الآن في طريقي لزيارة مدينة "سيلم" شمال بوسطن، فهي تكون في أبهى صورها في الربيع؛ سألته: ومن ستصحب في رحلتك؟ أجابني وهو يغلق الباب: لا أحد.

قلت لنفسي وأنا أقف أنتظر المترو للذهاب إلى ميدان هارفارد: ها هو أبو السعود بعد ثلاث سنوات إقامة لا يجد من يصحبه، فما الذي أشكو منه بالضبط؟ ورأيت قبل خروجي صاحبة البيت من نافذة الصالة تجلس وحدها في الفناء شاخصة ببصرها في اتجاه السماء، حسنًا، يبدو أن الكل يعاني الوحدة، ولا يحق لي أن آسى لحالي، كنت أدخن محاولاً الحفاظ على ما تبقى من يقظتي، عيناي مجهدتان من السهر ينفذ إليهما ضوء النهار الذي تسلل للمحطة، بينما شتات من أشخاص عزل مجردين من أي صحبة يتوافدون على المحطة!

كانت عربة المترو شبه خاوية مثل روحي في تلك اللحظة من

صباح بدا معقدًا، ولا أدري ما الذي دفعني للنزول إلى وسط المدينة، حيث شمس النهار تتمدد على جوانب الطريق، وعرجت جهة الكنيسة البيضاء الحجرية ذات القمم المدببة قرب بيتي القديم، كأني أطمئن عليها أو ربما لأستمد منها قدرة على الصمود في وجه الوحدة، وقد عاد معظم الناس لبيوتهم بعد سهرة الأحد وتركوا الشوارع شبه خالية.

عبرت إلى الرصيف المقابل حيث محل الأدوات الموسيقية ممنيًا نفسي بضرورة حضور حفل موسيقى في أقرب فرصة، فالموسيقى غذاء الروح كما كانت تقول أمي، وقادتني قدماي للحديقة العامة فلم يكن بها إلا القليل من البشر، والكثير من الأشجار وبعض سناجب تتقافز حرة في غياب المتطفلين، نظر أحدهم إليّ كأنه يلقي بالتحية قبل أن يتسلق جذع شجرة إلى حيث لا أراه، كانت الحديقة أفضل مكان أتخلص فيه من شقائي بالسير على البساط الأخضر المُشرع على السماء ما كان يشعرني بآدميتي وسط زحمة الأبنية الشاهقة بوسط المدينة بواجهاتها السوداء والزرقاء!

اجتزت البوابة الحديدية للحديقة متخذًا طريقي باتجاه شارع نيوبيري؛ أرقى شوارع وسط المدينة، حيث المحلات تعرض بضاعتها التي تخطف الأبصار، والمقاهي التي تفرش كراسيها المصنوعة من البامبو والقش، والطاولات المغطاة بأغطية زاهية، وسكانه من أبناء الأرستقراطية التي لا لبس فيها، فهنا يقطن رموز المهنيين من الطبقة العليا، محامون وأطباء وصحفيون وفنانون.

كافيه باريس

قبل أن تطأ قدماي الطريق خارج الحديقة، استوقفتني لافتة مكتوب عليها، 'مقهى باريس' توجهت إليه مدفوعًا بمنظر ستائره البيضاء التقليدية على واجهته الزجاجية المطلة على سور الحديقة الحديدي، في زاوية تتقاطع عندها ثلاث طرق تنتهي بالكنيسة الحجرية البيضاء بقممها المدببة، ومن ذات الزاوية أمام مبنى جريدة 'بوسطن جلوب' تمكنت من رؤية أقدم كنائس بوسطن، البعض يقول إنها أقدم كنائس أمريكا كلها، بواجهة من الطوب الأحمر، تحدها خطوط نحاسية برسوم هندسية منضبطة، ونوافذ من الزجاج المعشق، وأبواب خشبية مشغولة بالحديد المضفر بالنحاس، مع برج طويل نسبيًا ذي أربعة أضلاع له قمة مغطاة بطبقة سميكة من الفضة، ومن البقعة ذاتها ظهر ميدان المكتبة العامة بزاوية ميل عمودية على الشارع في تقاطعه مع شارع هاريسون الواسع.

دخلت المقهى ممنيًا نفسي بفنجان إكسبريسو يعيدني إلي مذاق التسكع في شوارع وسط البلد بالقاهرة، جلست بالقرب من الواجهة الزجاجية مستمتعًا بضوء الغروب المتخافت، ثم التفتّ للمقعد المقابل خاويًا مثل المقهى في هذه الساعة الملتبسة من

نهار يتلاشى وإقبال حذر لليلٍ بارد، فقط عابرون يدخلون لشراء القهوة ويخرجون على الفور، وإذا بسيدة في الثلاثينيات تدخل المقهى يسبقها عبق أنوثة طاغية واطلالة ساحرة تنبعث من عينيها الزرقاوين، غمرتني اطلالتها بحالة من الإلهام، أحضرت قهوتها وتوجهت بلا تردد للمقعد الخالي في مواجهتي تتطلع من النافذة، لم أخفِ نظراتي المتأملة لشعرها الكستنائي الذي ينسدل بحدة ووقار حارسًا رقبتها المرمرية عند انسحابها بنعومة جهة الكتفين العاريتين، نزولاً إلى حافة صدرها الذي يرقد وادعًا دون مشدات، ثم ندت عنها التفاتة قصيرة جهة ضوء متسرب يسبح في عتمة محببة تغلف المكان.

أحجمت عن المبادرة بالحديث وقلت لنفسي: إن كان هناك أمل في حديث فلتبدأه هي، عدت أتأمل الأشجار الرابضة قبالتي بألوان أزهارها الحمراء والصفراء والبنفسجية في كرنفال مبهر، ما أضفى عليّ مظهر المتشاغل عن وجودها الطاغي، ثم أضاءت إشارة المرور باللون الأخضر وانطلقت السيارات حتى تلاشت في البعد، عندما طلبت مني إشعال سيجارتها، فقمت بذلك مركزًا نظري بعفوية على شق الرمان، بينما شعرها القصير الناعم يميل قليلاً وغمرتني رائحة عطرها، استجمعت شجاعتي قائلاً: أحيانًا ما يكون إشعال سيجارة ملاذًا لنا من دوامة السرعة الجنونية لإيقاع الحياة، ندخنها مع فنجان قهوة نذيب فيه همومنا ونتأمل! أومأت دون حماس، فقلت: أتعرفين دلالة إشعال رجل لسيجارة امرأة في بلادنا؟ إنها بادرة بدعوة منها له وقبول منه بالدعوة، أظنك لا تعبأين لمثل هذه الأمور، أتسمحين لي بسؤال؟ أجابت ببعض من برود وقليل من فضول: تفضل، ماذا لو تحررنا من مخاوفنا

وتواصلنا دون هواجس مسبقة؟ فقط لو أمكننا ذلك؟

لم تعلق، وبدا أنها لا توافق على كلامي الذي انطلق دون دواع منطقية، فشخصت ببصري جهة الشارع هربًا من سخف ما قلت، وهي تنفث دخان سيجارتها المشتعلة بارتياح وتلذذ! دام الصمت ثوان وأنا ألوم نفسي: كان حريًّا بي ألا أطلق العنان لأفكاري ونحن بالكاد تقابلنا، لكنها بادرت وكأنها كانت تفكر فيما يجب أن تقول: فقط علينا اختيار من يشاركنا لحظات التأمل هذه. أردفتُ: المشاركة هنا ادّعاء، التأمل حالة ذاتية تعني التوحد بالأشياء سعيًا إلى لحظة أكثر رحابة، فكيف لنا أن نمارس فعلاً ذاتيًا ونشارك أحدًا فيه؟ المشاركة فعل تورط مع الغير، أليس كذلك؟

أجابت: لا أظن الأمر يستدعي كل هذه الفلسفة! لم استسلم لردها: ليست الفلسفة إلا حالة تأمل، وعلى أية حال أعتذر عن إزعاجي لك، اسمحي لي أريد أن أمشي قليلاً حول البحيرة، على الأقل لن تشكو البحيرة الملل من فلسفتي! وكأنها كانت تعد نفسها لذلك: هل تمانع إن سرت معك فأمامي نصف ساعة حتى يحين موعدي مع صديقي؟ قلت بعفوية: لا بأس، أهلاً بك، كدت أرقص فرحًا فهذا دليل أن كلامي لم يكن مملاً لدرجة تدعوها للهرب، خصوصًا مع بدايتي المرتبكة معها! سرنا قليلاً ونحن بعدُ لم نتعارف فعليًا فقلت:

أنا من مصر في بعثة علمية هنا وأنت؟ قالت: أنا أمريكية من أصول فرنسية من ولاية بنسلفانيا. ابتسمت، ها قد اكتملت الصورة الباريسية، مقهى باريس وفنجان قهوة فرنسي وفتاة من أصول فرنسية كم أنا محظوظ! لم تستسغ كلامي، فما قيمة أي شيء فرنسي في أمريكا حتى ولو كان في بوسطن أعرق مدنها، لعلها ظنت أنني بنيت توقعات لا ترضى عنها فقالت بنبرة حادة: أتعرف

أنا أعجب لأمركم، فأنتم أهل الشرق تثيرون حيرتي!

تُرى ماذا أقول ردًا على حيرتها، تلك الأمريكية الفرنسية الأصل اكتشفت ما يحيرها سواء كان مكرنا أو تخلفنا لا أدري، ولا تتمالك نفسها أمام حوار عابر لدقائق مع أحد الهائمين في تيه حضارتهم البهية، وأضافت دون انتظار أي تعليق: لماذا أنتم هكذا؟ سألتها وقد استنفرت قرون استشعاري بخطر سوء الفهم: هكذا ماذا؟! ماذا تقصدين؟ أجابت:

أنتم تستغرقون في تفكير وتأمل لا علاقة له بالواقع، وترسمون صورًا من وحي خيالكم تظنونها الواقع ماثلاً أمامكم، وتتعاملون مع العالم من خلال تصوراتكم الوهمية! الحقيقة أن خيالكم لا علاقة له بالحياة التي نعيشها، نحن سيدي على مشارف القرن الواحد والعشرين ولا زلتم تنكرون أن العلم هو مفتاح التقدم، هذا زمن العلم سيدي، نتاج العقل الخالص والرؤية الناقدة للأشياء، صدقني لن تستطيعوا أن تجدوا طريقًا للتقدم وأنتم غارقون في التأملات والخيال، عالقون في مجد قديم تبكونه، هذا الماضي يطاردكم ويعوق فهمكم للواقع، لهذا لا تقبلونه ولا تستوعبونه، لقد لاحظت أن معظم القادمين من بلادكم هنا يحصلون على أعلى الدرجات العلمية ويتفوقون، بل أن منكم الكثيرين من أصحاب الخبرات والمهارات النادرة؛ ومع ذلك!

وجدتني صامتًا لا أعلق فسألتني: ماذا ألم تفهم ما أعنيه؟ قلت لها مبديًا الاهتمام: أبدًا أنا أحاول البحث عن إجابة لسؤالك. فاجأتني قائلة: لا عليك فأنا أعرف الإجابة، عندها توقفت عن السير ونظرت إلى عينيها تلمعان بأفكار تدور على شريط ذهنها البارد ترددها بحماس من يعرف ويثق فيما يعرفه، وسألتها: حقًا وما

هي الإجابة إذن؟

قالت: أنتم تنتمون لثقافات عاطفية، دينية في أغلبها، تتحكم العاطفة لا العقل في أفكاركم ومواقفكم، بل إن إنجازاتكم الحضارية ذاتها بنيت استنادًا لمشاعر طاغية، أنتم ولا شك أهل أدب وفنون لكنكم لستم أهل علم أوتقنية!

بلغ حنقي مداه من كل هذه الثقة: بالله عليك ماذا تعرفين أنتِ عنا؟ من أين لك هذه المعرفة الواثقة وهذا اليقين بأن مشاعرنا هي شغلنا الشاغل، هذا كلام مرسل يحتاج لدليل، أليس كذلك؟ الحقيقة كما أراها أن ثقافتنا ثقافة إنسانية في الأساس وهو ما لا نداريه ولا أجد مبررًا يجعلنا نفعل، فهي حضارة قامت على التفاعل أخذًا وعطاء مع ثقافات العالم بأسره بلا غزو لبلاد غيرنا، دونما دماء وحروب سوى للدفاعٍ عن أنفسنا أو تأمينٍ حدودنا.

لسنا سيدتي ساكني كهوف كما تظنين، نحن هنا في أمريكا وفي كل مكان في العالم نساهم في سعي البشرية لحياة أفضل، وإن كنا بالضرورة أصحاب مواقع مختلفة في اللعبة، ولدينا منظور مختلف في رؤية العالم، نعم، كنا زمن الفراعنة نعطي أكثر مما نأخذ، لكننا لم نتوقف يومًا عن العمل بقانون الأخذ والعطاء، ولم نتوقف عن الإنشغال بالهم الإنساني، والسعى للتحرر من ميراث طويل من الإستعمار والسلطات المستبدة، صحيح لم نتحرر بعد بالقدر الكافي للإنطلاق، لكننا لم نتوقف عن السعي لانتزاع إرادتنا وحريتنا لنحظى بالرخاء والعدل، مثلما حدث مع مشروع محمد علي، وكان عليكم إجهاضه، ألم يتكفل الغرب بالإجهاز على رجل أوروبا المريض في إسطنبول وجني مستعمراته لاستنزافها لصالحه؟ بعدها ماذا حدث؟

دارت حروب عالمية في صراع النفوذ والسيطرة بين دولكم مخلفة ملايين الضحايا، ثم دارت الحرب الباردة بين المعسكرين الرأسمالي والاشتراكي، على أراضينا في الشرق الأوسط وآسيا وأفريقيا، في بلاد سبق أهلها عالمكم في صنع الحضارة الإنسانية، ودفعت شعوبها ثمن ذلك الصراع خصمًا من قدرتهم على التقدم، أليس كذلك؟ وها أنتم انتهيتم من حربكم الأخيرة في عاصفة الصحراء لإنقاذ الكويت، أو بالأحرى للبقاء على مقربة من حقول النفط وبؤرة الصراع بين الشرق والغرب في أورشليم، أليس كذلك؟ نعم سيدتي يعيبنا الكثير، وأمامنا الكثير علينا القيام به، لكنكم تعانون فقدان ذاكرة يستعصي على العلاج، فأنتم صناع الواقع المأساوي في العالم الذي علينا أن نواجهه جميعًا، لهذا أنصحك أن لا تشغلي بالك بنا، فلا وقت لديكم تهدرونه في محاولات لا طائل من ورائها للفهم، صدقيني الأمر لا يستحق، ثم إن الليل اقترب، ولابد أن موعد صديقك قد حان.

أصابتها كلماتي بجهامة وقليل من تأثر، وعاجلتني: ليس هناك صديق ولا موعد من أصله. تعجبت وبدأت أشعر بالملل من مراوغتها وسألتها: لِمَ ادعيت ذلك إذن؟ أسرعت تجيب: لا يهم إن كنت كذبت عليك أو صدقت، فأنت كما أرى - بينما تنظر لدبلة الزواج بيدي- متزوج! فعاجلتها: بل وأحب زوجتي كثيرًا، لكن ما علاقة ذلك بأي شيء؟ فسألت بسذاجة فجة: إذا كنت تحبها فعلاً، فلم تحاول خلق علاقة معي؟ فقلت وقد بلغ الضجر مداه:

هذا غير صحيح سيدتي، لقد جمعتنا الصدفة في المقهى مع فنجان قهوة عابر، وستفرقنا محطات المترو، أنا حتى لم أطلب رقم تليفونك ولن أطلبه، ولا أعرف اسمك، من أنت؟ جانيت مثلاً؟ لا بد

أن هناك مائة جانيت على الأقل في هذا البلد، وليست هناك فرصة ولو واحد في المليون أن أراك ثانية! أيها الفرنسية - الأمريكية الجميلة، ألم تلاحظي أني لم ألمح بمحاولة توطيد صلتنا العابرة، صحيح جذبني جمالك في البداية، وكنت في حاجة لصحبة، لكن لا يبدو أن أحدنا كان الرفيق المثالي للآخر، فأنت تكذبين عليّ بلا داعٍ، وتهاجمينني لمجرد أني من بقعة في العالم يثير أهلها حيرتك، ولا بد أن لديك الكثير من الشكوك حول نواياي، حسنًا، ببساطة أنا لا أنوي شيئًا!

قالت متلعثمة بعض الشيء: ما كل هذه الحساسية؟ فقاطعتها: بل قولي لي أنتِ لم تنتابكم كل هذه الحساسية كلما قابلتم غريبًا مثلي؟ أين الحرية؟ أين أسطورة التعايش مع الآخر وأنتم تحملون كل هذه المخاوف والشكوك؟ أين البوتقة التي تذوّب الثقافات وتخلق عالمًا حرًا في ظل هذا الرعب من الآخر؟ أطرقت كمن يحاول أن يجد مخرجًا مما تورط فيه، فواصلت: ألا تدركون قدر العزلة التي تتعبدون في محرابها، ألا تدركون أنها عدوكم الحقيقي، ما معنى ما حققتم من نجاحٍ ورفاهية إن لم يشارككم فيه الآخرون؟ لو فهمت لارتاح قلبي، عندها تبدت لها لحظة الانتصار التي كانت تتوق إليها: أرأيت؟ ها أنت تنشد راحة القلب!

المتاهة

واظبت على مدى إقامتي شهرين في وسط المدينة، على الاتصال بالهواري وزميله حسن عبد الشافي ابن حي مصر الجديدة، الذي وفد للمدينة بعدي بأسبوعين، وعرفت وقتها طريق المسجد في معهد "إم آي تي"، معهد ماساشوستس للتكنولوجيا، أهم معاهد التكنولوجيا في العالم، حيث يلتقي المسلمون لصلاة الجمعة وغيرها من الأنشطة الاجتماعية. كان عليّ أن أسير لمسافة طويلة في شارع ممتد خلف المنزل - وسط بيوت تقليدية تشبه في الجزء الفقير من مدينة بوسطن- ثم عبور الطريق السريع للجهة الأخرى بمحاذاة نهر تشارلز، وهي مخاطرة قد تودي بحياة من يقدم عليها، وعند وصولي لشاطئ النهرالمقابل أعبر الجسر ثم أنحرف يمينًا، حيث المعهد بمبناه الفخم من الرخام المطعم بالحجر، ثم البهو الذي يشرف على أعمدة رخامية عالية على امتداد المبنى الذي يشغل هكتارات لا أعرف عددها.

في المرة الأولى ذهبت بصحبة الهواري وحسن، ودخلنا من باب خلفي يفضي إلى فناء صغير به أحواض زرع وصنبور مياه مثبت في حائط من الرخام، صعودًا إلى الدور الثاني حيث قاعة النشاط الديني، يلقي فيها الحاخام موعظته يوم السبت، ويوم الأحد لوعظ القسيس، ويوم الجمعة يلقي أحد الطلبة المسلمين خطبة الجمعة

وتقام الصلاة، ولأن الخطبة تلقى علىَ أمريكيين من عرب وعجم فلا بد أن تلقى بالإنجليزية، مع تلاوة الآيات القرآنية بالعربية، بينما الجميع يستمع منصتًا، إلا أن هناك شكوكًا في قدرتهم على فهم ما يقال إلا بصورة إجمالية، فمهما اجتهد الخطيب في تبسيط خطبته، لا تسعى الغالبية لإستيعابها قدر حرصها على إكمال الطقس!

بعد الصلاة يتفرق الجمع كل لحاله، ولا توجد فرصة لحديث بين الإخوة إلا بشكل عابر، لأن الجمعة يوم عمل رسمي، ولفت نظري أولئك الرجال المقيمين - كما يبدو من لوحات سياراتهم وحداثة موديلاتها- الذين تتجاوز أعمارهم الأربعين يطلقون لحاهم وقد خطها المشيب، ويتحلق حولهم الناس بعد الصلاة، يهمسون إليهم بأمور أو يتقدمون لهم بطلبات أو يعرضون عليهم مشكلات طلبًا للمساعدة في حلها! ترددت على قاعة المسجد عدة مرات، لم يتغير فيها من المشهد إلا تلك المنشورات التي كانت تترك على طاولة خلفية - حيث توضع الأحذية- وبجوارها صناديق للتبرعات، كل صندوق عليه شعار الجمعية الإسلامية التي تتولى جمعها وإنفاقها، مع إشارة للجهة التي ستهب لها التبرعات، البوسنة والهرسك، أوأفغانستان، أوفلسطين أوغيرها من مناطق النزاع والحروب في البلدان الإسلامية، بما تخلفه من مخيمات لاجئين وأرامل ويتامى!

عندما انتقلت لريفير، كان مكان الصلاة الأسبوعي في قاعة النشاط الديني بجامعة نورث إيسترن، أذهب لها بالمترو، وكان عدد المصلين أكبر بكثير، مع إقبال ملحوظ على منح الهبات في

صناديق التبرغات، وكان اهتمام الطلبة والطالبات الأمريكيين بمتابعة المصلين واضحًا، بإعتبارهم جماعات تحضر احتفالاً دينيًا لا يعرفون عنه الكثير، وفي الطريق من محطة المترو للقاعة كانت هناك عربة من العربات المتنقلة التي تبيع التفاح والحلوى والبيبسي المثلج، نتبادل أنا وصاحبها التحية العابرة كلما تلاقت عيوننا.

ذات يوم كان الجو حارًا وطلبت منه علبة بيبسي، فبادرني الرجل: هل تدرس هنا أم تأتي للصلاة فقط ؟ لا، أنا أحضر للصلاة فقط، فقال بتودد: حسنًا، أرجو أن تكون صلاتكم سبيلاً للتآلف مع المجتمع لا العداء له!

أحيت كلماته ميراثًا من سوء الفهم المتبادل وسوء الظن المسبق فسألته: وما الذي يدعوك للإعتقاد بأننا نعاديكم؟ أجاب متأهبًا لحوار لم أمانع فيه: أنتم تعيشون في عزلة، حتى طلبة وطالبات الجامعة من المسلمين لم أعهد بينهم وبين أقرانهم الأمريكيين ألفة، ولا مع أصحاب الديانات الأخرى ذوي الأصول الآسيوية من معتنقي البوذية مثلاً! فسألته: وما السبب في رأيك؟ أجاب في حيرة واضحة: لا أدري على وجه اليقين، ربما كانت طبيعة دينكم التي تمنع الإختلاط بين الرجال والنساء كما سمعت، هو ما يزيد مساحة الشك والخوف منكم، نحن لا نعرف عن الإسلام الكثير، لكن ما يبدو لنا أنه دين يدعو للعزلة!

سألت: هل أنت مسيحي إذن؟ فأجاب بلامبالاة: نعم، وإن كنت لا أذهب للكنيسة إلا في المناسبات، فأردفت: حسناً عزيزي، أولاً أنا لست مؤهلاً للحديث عن الإسلام فلست ممثلاً له، خصوصًا الإسلام في مجتمعكم، لكن يمكنني أن أؤكد أن العزلة لا تفيد، لكن دعني

أصارحك بأن الإندماج في مجتمع منفتح على كل الآراء والمذاهب مثل المجتمع الأمريكي هو أمر صعب على أي مسلم ملتزم! لا شك أن بلدكم قبلة المهاجرين وأرض الأحلام للملايين، لكنه حلم قام أصلاً على نفي الآخر وتفوق الجنس الأنجلو ساكسوني من البيض البروتوستانت!

أنتم تقولون أن النموذج الأمريكي وأسلوب الحياة الأمريكية هما المعادلة السحرية لسعادة الإنسان، أظن أن هذا التبسيط المخل والتباهي المبالغ فيه بنمط حياتكم سببٌ كافٍ للقبول طواعية بالعزلة. رد بصدق: ربما كنت على حق. وقلت له صادقًا أنا الآخر: أو حتى على باطل، الأمر لا يعدو كونه وجهة نظر لن تؤثر في صور نمطية عن الإسلام والمسلمين رسخت في العقول لزمن طويل، فما أنا وأنت سوى عابري سبيل، أنا أدفع لك دولارًا فتعطيني علبة بيبسي ثم يمضي كل منا لحال سبيله، ولا أظن أن علاقة ما بيننا قد تنشأ، ولن تنشأ علاقة - مهما بلغ عمقها- يمكنها أن تغير قناعاتك أو تبدل معرفتك، لكن لا بأس من أن نتبادل التحية كلما التقينا، أليس كذلك؟

في المترو تردد صدى الحوار في رأسي، إذن الأمر يهم عامة الناس، حتى لو كنا متخلفين يحكمنا طغاة مستبدون ولا ننتمي للعالم الحر، لكن سؤال الهوية يفرض نفسه، وبطبيعة الحال بصورة أكثر إلحاحًا بعد الثورة الإسلامية في إيران والمواجهة العسكرية في حرب عاصفة الصحراء.

في طريقي للبيت كانت كل البيوت تقريبًا تعلق على أبوابها "فيونكة صفراء" تحتها لافتة من نفس اللون كتب عليهـــــــــا: "نحن ندعم قواتنا"، التي كانت في طريقها للعودة

للديار وقد تركت بعض رجالها في العراق لحماية الأكراد وحقول النفط في كركوك!

كانت اللافتة ذاتها معلقة على واجهات المحلات والبنايات الحكومية والمؤسسات في طول المدينة وعرضها، في ذات الوقت الذي كان فيه الرئيس جورج بوش يلقي كلمة في الكونجرس يعلن فيها أن انتصار قوات التحالف يعد انتصارًا لمبادئ العدل والحرية والشرعية الدولية في "النظام العالمي الجديد" وانطلقت وسائل الإعلام على درب الاحتفال بالنصر، وأطلقت الألعاب النارية احتفالاً بعودة الجنود بعد أن أنجزوا مهمتهم على أكمل وجه!

كنت على وشك الإنتقال لدورة جراحة اليد، وفي الطريق إلى أول يوم عمل ركبت المترو من وسط المدينة في اتجاه مرتفعات ويلنجتون، انحرفت يسارًا عند نهاية خط المتر سيرًا على الأقدام حتى وصلت بناية من طابقين وسط العديد من المباني المطلة على شارع يؤدي إلى الطريق السريع، متقاطعًا معه بزاوية ميل تقبع فيها حديقة محاطة بسور من السلك، كانت المباني تقليدية تحتها محلات أنيقة، وفي مواجهتها قصور سكنية راقية بأبواب شاهقة، وأمام المبنى المخصص لعيادات وعمليات جراحة اليد مساحة خضراء على شكل مثلث بها بعض المقاعد الرخامية وأشجار البلوط والسنديان في ملتقى الشارعين المتقاطعين بميل على الطريق السريع المتجه لأعلى حتى ولاية نيوهامبشاير.

وصلت متأخرًا وسألت عن مكتب المشرف على الدورة، أشارت إحداهن إلى قاعة الاجتماعات، دخلت خجلاً من تأخري، ألقيت نظرة سريعة من الباب فنظر إليّ الأستاذ متسائلاً من أكون؟ قدمت

نفسي بإعتباري طبيبًا زائرًا وقد علت جبيني حبات عرق الحرج، لم يعلق فجلست على أقرب كرسي متجاهلاً عيون التلصص والاستنكار لمقاطعتي البروفيسور الشاب.

القاعة تحيط بجدرانها طاولة على شكل مستطيل ناقص ضلع تناثرت حولها كراسي دوارة، تجلس في مواجهتي سيدة تنحني على الطاولة، شعرها الأسود ينساب على ظهرها لا يغطي كتفيها العاريتين العريضتين، نظرت لي نظرة فاحصة سريعة ثم استدارت لتركز في الاستماع إلى المتحدث ذي الطلة الطاغية.

انتهى البروفيسور من إصدار تعليماته وحدد الأدوار وجدول المواعيد بدقة، ثم وهو يتأهب للخروج متجهًا للعيادات في الدور العلوي قدمت نفسي مرة أخرى للسيد برنارد بلسكلي رئيس وحدة جراحة اليد، فقال: حسنًا هيا بنا نبدأ العمل، وتناول بالطو أبيض من الشماعة بجوار السكرتيرة في مواجهة قاعة انتظار المرضى وقال: يمكنك ارتداء أي بالطو، سنرى الحالات وسنقوم بتشخيصها معًا، فهل أنت مستعد؟ ناولني ورقة بجدول العمل أسبوعيًا طالعتها وأنا أرتدي الباطو الأبيض وأتبع خطواته الواثقة، العيادة يومان، العمليات يومان، واليوم الخامس للبحوث وحلقات النقاش إذا لم تكن هناك عمليات مؤجلة. أشارت السكرتيرة لغرفة أمامي: هناك مريض في انتظارك، قدمت نفسي له فتفحصني متشككًا وهو مطرق، عاجلته بالسؤال عن شكواه، بدأ يجيبني وأنا أدون ثم قمت بفحصه بدقة وتأنٍ حتى دخل برنارد: ماذا وجدت؟ وقام بفحص المريض ثانية مبتسمًا له، وناقشني في الحالة، ثم ناوله تقريرًا يحدد الجراحة التي يحتاجها مع وصفة طبية مؤقتة لحين تحديد موعد العملية، وهكذا من غرفة لأخرى، ومن مريض لآخر،

ومن خلاف إلى إتفاق حول تشخيص الحالات حتى بلغنا الظهيرة وهدأت الحركة.

دخل عليّ وأنا منهمك في قراءة أحد المراجع الموضوعة فوق الرفوف، خطف مفتاح سيارته من على المكتب وقال: يمكنك الآن تناول الغداء سنلتقي بعد ساعة، خلعت ردائي الأبيض وارتديت رداء المطر الأسود، نزلت أسفل الدرج فوجدت الشمس تطل على استحياء بعد أن اغتسل وجه الصباح بالمطر، سرت بضع خطوات مرددًا لنفسي:

لا بد أن هناك مطعمًا قريبًا أو مقهى يقدم وجبة سريعة، وبالفعل دخلت من باب المطعم الذي اكتشفته على بعد خطوات من المقاعد الرخامية الرابضة في الحديقة المثلثة، جلست في مواجهة النادل فسألني: ماذا أقدم لك؟ أجبته: حسنًا، هل يمكنني أن أجرب طبق اليوم؟ دقائق وبدأ في رص الأطباق، شوربة خضار مع قطعتين من الدجاج وطبق سلاطة وقطعة توست مع مكعب زبدة، تناولت وجبتي الساخنة فرحًا بها، دقائق وطلبت الحساب، وعندما رأيته تصاعد الدخان من رأسي، يا إلهي تسعة وعشرون دولارًا، صحيح المكان بسيط وأنيق، لكن 29 دولارًا! عزائي الوحيد ألا أقدم على هذه الحماقة مرة أخرى، وكانت فرصة لأتصرف وكأني واحد منهم، لكن يقينًا لم أكن كذلك.

عدت للعيادة وقمت بالمطلوب حتى انتهى اليوم، ولوح لي برنارد من بعيد وهو يخطف معطفه ومفاتيح سيارته، على باب البناية كانت هناك تلقي بمعطفها إلى جوف السيارة الرابضة أمام الباب متأهبة للركوب، وعندما لمحتني أسفل الدرج سألت: إذن أين

تسكن؟ فقلت: في ريفير، فأردفت: آه، لا بد أن زحام المرور كان سبب تأخرك في الصباح.

أجبتها ضاحكًا: أولاً أنا لا أملك سيارة ليعطلني المرور فأنا أذكى من ذلك، ثانيًا هذه هي المرة الأولى لي في هذا المكان وفي أمريكا نفسها فلم يمض علي إقامتي سوى خمسة أشهر فقط، قالت بعفوية: اركب سأقلك حتى محطة المترو، وفي الطريق عرجت على بناية سكنية استأذنت لتوصيل بعض الأوراق فيها، عادت بعدها لتعتذرعن تأخرها وعن رائحة دخان السجائر التي تفوح في السيارة، فأجبتها مدعيًا الاستنكار: إذن أنت تدخنين! فقالت خجلة: نعم هذا عيبي الوحيد.

قلت ضاحكًا: إذن فلتسمحي لي أن أدخن سيجارة، رمقتني بنظرة لوم وابتسامة من طرف عينها في مرآة السيارة، وتناولت مني سيجارة أشعلتها لها، وعندها واتتني الجرأة: سأقول لك سرًا بشرط ألا تضحكي، عندما دخلت القاعة في الصباح ولمحتك كنت متأكدًا أنه ستنشأ بيننا صداقة، وها هي تبدأ بعادة التدخين المشتركة، فقالت: صداقة، كده ببساطة لمجرد توصيلة بالسيارة، ألا ترى أنك تسبق الأحداث؟ إزدادت قناعتي بمقدم الصداقة بيننا: لا أبدًا، الحكاية مجرد حدس قد يخيب وقد يصيب، هل تمانعي أن نصبح أصدقاء؟ ردت: أبدًا، لكن الأمر ينطوي على قدر من المبالغة.

اقتربنا من المحطة، انحرفت إلى ساحة الانتظار واستدارت لتواجهني في مقعدي – وقد انكشف الجزء الأكبر من فخذيها – أشعلت سيجارة أخرى وهي تنظر إلي وتقيس إمكانياتي المحتملة! فعاجلتها: حسنًا، لم تعتبرين في الأمر مبالغة؟ أنت جميلة

وتتمتعين بجاذبية لا تقاوم، وإن كنت لا تشبهين الأمريكيات كثيرًا، يا ترى ما هي جذورك؟ هل أنت بولندية مثلاً ؟

ابتسمت: عزيزي أنا في الخامسة والثلاثين من عمري، فلا تعبث معي. عندها تابعت قائلاً في مرح: ولِمَ لا أحاول؟ فردت بقليل من جدية: بصراحة لأنني لا أصاحب الغرباء بهذه السرعة، نعم أنا من أصول بولندية ولا أعرف كيف اكتشفت الأمر، لكني لا أميل للعبث، حتى اللهو لا أقبل عليه دون مقدمات، لقد هاجرت عائلتي إلى هنا وعمري 6 سنوات ولا أحبذ التورط مع غرباء من أصله! فقلت محاولاً طمأنتها دون أن أفقد عنصر الإثارة: لا داعٍ للقلق فأنا لن أسبب لك أي مشاكل، لك مطلق الحرية في قبول أو رفض صحبتي لكن لي سؤال واحد، قالت: حسنًا، وما هو؟

ما السر في هذا الرهاب والرعب من الغرباء؟ هل تظنوننا كائنات فضائية غامضة أم أكلة لحوم بشر؟ وسواء كنت بولندية أو من أية أصول أخرى أليس من المفترض أن تكوني كأمريكية أكثر تحررًا، عندها جنحت نبرة صوتها لجدية لا لبس فيها:

أنظر أيها الزميل، المسألة ليست بالبساطة التي تبدو لك، فعندما كنا مراهقات كانت مظاهرات الطلبة في أوروبا ملأ السمع والبصر، وأنجذبنا بسحر شعاراتها، وكنا كقطيع من طيور البطريق تملؤنا الثقة بما كانت تدعوا له، ولا أظن أحدًا من جيلنا أمكنه مقاومة سحر الخلاص الاشتراكي أملاً في عالم تسوده الحرية والمساواة! ثم، ماذا جنينا؟ لا شيء، لقد خُدِعنا، وآثرت الغالبية من جيلي العزلة والإنطواء، وصارت معايير العصر مستعصية على فهمنا، فقد عانى جيلنا حتى استوعب ما جرى في فيتنام، ولفهم ماجرى وصولاً للثمانينيات الباهتة سياسيًا التي طغت عليها أصداء الحرب الباردة! وصارت قناعتي، إن لم تكن قناعة جيل بأكمله، أن أحافظ

على ذاتي وأستمتع بما يتاح لي بأقل خسائر ممكنة، هل تفهمني؟ الخديعة كانت أكبر من قدرتنا على التسامح.

بدأت أستوعب المأزق الذي تعانيه صاحبتنا وقلت: لكنك من بلد "ليش فاونسا" إمام المناضلين للتحرر من الوهم الشيوعي، لطالما رأينا فيه رمزًا ونموذجًا للتمرد! أنت من بلد ثار على الخديعة قبل أي بروسترويكا أو جلاسونست، وأنتم مؤهلون للتقدم ومهيئون للحرية، ولا يوجد ما يبرر كل هذا الخوف، أنتم جيل أظنه ابنًا شرعيًا لرؤية كينيدي للعالم بوصفه رمز الليبرالية، ثم أنت طبيبة في جامعة عريقة ولا تزال حياتك ملكًا لك، لا يوجد ما يدعوك للخجل من انجذابك لحركة الطلاب في أوروبا، هذا دليل نقاء، وإن كان في التجربة بعض من مرارة فهي لا تبرر العزلة.

ردت على الفور: إلا إذا! فسألتها: إلا إذا ماذا؟ فأفصحت: إلا إذا عرفت أين صار قادة ثورة الطلبة في أوروبا الآن، إنهم الآن مديرون في الشركات عابرة القارات والبنوك الكبرى، هل هذا هو الحصاد، فلتذهب للجحيم كل الشعارات وليغفر لنا الله حمقنا!

كانت قد انطلقت بالسيارة بعد أن قررت الذهاب معي لوسط المدينة للتسوق، وأضافت حين استوقفتها إشارة مرور: لقد رضينا بالانعزال عن مجتمعٍ لم نعد نعرف مفاتيح التعايش فيه، ماذا كنت تنتظر منا؟ أجبتها: لا شيء، لا شيء بالمرة، أرجو المعذرة، أثرت لديك ما لم يكن هناك داعٍ لإثارته! فطمأنتني قائلة: أبدًا لقد اسعدني الحديث معك، على فكرة، أنا لم أعهد نفسي أبوح بهذا الكلام من قبل، ربما استشعرت أنك تستطيع استيعاب عمق الجرح الذي أصابنا، بصراحة لم أتوقع أن يطول حديثنا إلى هذا الحد،

يبدو أن حدسك في محله، ابتسمت سعيدًا بانتصار حدسي: ألم أقل لك أنتِ مختلفة عن بنات العم سام المدللات، ألا ترين أن لدينا فرصة معًا؟ قالت منهية الحديث: بالطبع، لكن الآن على كل منا أن يعود لبيته حتى ننال قسطًا من الراحة، إلى اللقاء إذن.

قدمت أوراقي لدخول امتحان المعادلة مرة أخرى للحصول على ترخيص مزاولة المهنة، بينما اتصالاتي بمصر وما يبلغني عن أحوالها يزيد من رغبتي في البقاء، ربما لأنه ليس لديّ ما أعود إليه سوى فردوس وولي عهدي المنتظر! وبدأت في تقصي سبل حضورها لأمريكا وتكلفة إقامتها والولادة، لم تكن الفكرة قد تبلورت تمامًا، لكنني أصبحت على دراية بالكثير من التفاصيل، وهي على أي حال ليست بالسهلة، ويمكن أن تكون الحياة هنا كلها مطبات وإن كان إغواء البقاء في أرض الأحلام أمرًا لا تسهل مقاومته.

تعددت لقاءاتي مع إلزا في أوقات العمل، وتناولنا الكثير من الأمور بالجدل بقدر معقول من ود نشأ على مر الأيام حتى تجرأت ذات مرة وسألتها: لِمَ لَمْ تتزوجي؟ ألم تجدي الشخص المناسب بعد؟ ابتسمت وشخصت بناظريها من نافذة السيارة وقالت: حسنًا، دعني أدعوك على الغداء غدًا وسنتحدث في الأمر عندئذ، فقلت محاولاً تخفيف أثر التدخل في أمر شخصي: لكنك لست مجبرة على الإجابة على أية حال.

في اليوم التالي وبمجرد جلوسنا في المطعم الذي اختارته

بادرت: اسمع أيها الزميل، آن الأوان كي نتوقف عن المناورات، حسنًا، أنت شاب ظريف وأنا فعلاً أستمتع بصحبتك، بالطبع لك حياتك وأسرارك وأنا كذلك، لكن أرجوك لا تفسر المسألة بأكثر مما تستحق، بصراحة أنا على علاقة ببرنارد، طبعًا أنت تعلم إنه متزوج وناجح في عمله، أنا هنا لأكون بجواره ولا أطمع في أكثر من ذلك! ورفضت الكثير من عروض العمل في ولايات أخرى، آخرها عرض في بنسلفانيا، وهي مدينة أعشقها لكن قلبي عالق هنا ويبدو أنني لا أملك من أمري الكثير! أما أنت فأنا أعتبرك صديق أرغب في صحبته، لكنه هنا الآن وغدًا في مكان آخر وبلد آخر، أليس كذلك؟

هوني عليك يا إلزا، لم يكن لي هدف سوى الصداقة، وإن كنتِ تستحقين ما هو أكثر من مجرد عمل جيد وحياة تبدو سهلة، أراك جديرة بحياة مفعمة بالحيوية، وإذا كنت سعيدة مع برنارد ومكتفية بهذا الوضع فلا بأس! عاجلتني: لا لست سعيدة بالضبط، أوأنني لست متأكدة، ربما لم يعد لديّ الوقت لأبحث عما يسعدني بحق! ربما لا أستحق كما تظن ما هو أفضل من ذلك، كما أن فكرة الزواج لا تستهويني، فحريتي هي ماتبقى لي، وإن لم تكن حرية تامة فأنا أسيرة رغبتي في البقاء إلى جوار برنارد، وهو لا يمنحني سوى ساعات قليلة مختلسة!

قلت: أتعرفين؟ أنا أيضًا يتملكني شعور بالحيرة بين رغبتي في العودة لمصر، وحدسي الذي ينبئني بأن فرصتي في الحياة هنا أفضل، فربما تغيرت حياتي وأفلت من دوامة الحياة القاسية في مصر، ما رأيك أنت؟ كانت ساعة الغداء قد شارفت على الانتهاء، فلم تزد عن قولها: لا أدري، ربما كان عليك أن تتبع حدسك.

تسارعت الأحداث والأيام، وتوطدت علاقتي بعض الشيء ببرنارد، الذي كان شابًا وسيمًا في النصف الأول من الأربعينيات لديه كل مؤهلات النجاح، ولم يكن يرى فِيّ سوى طالب طب لطيف متوسط الأداء، وذات يوم قام بتوصيلي لمحطة المترو بسيارته الرانج روفر حمراء اللون، ولم ينطق سوى كلمات عابرة عن المنافسة بينه وبين جراحي اليد في جامعة بوسطن - لم يكن الأمر يعنيني - وكيف أنه عازم على النيل منهم، وتقاعست في الأيام الأخيرة عن الحضور بإنتظام، غير عابئ لا بالتخصص ولا بعبقرية برنارد، ثم اتصلت بي إلزا في الأسبوع الأخير من الدورة لتدعوني لحفل عيد ميلاده، في ذات الفندق الذي تناولنا فيه الغداء معًا، ووجدتها فرصة لوداع الجميع قبل الانتقال لدورة الطب الرياضي التي سأقضي بها ما تبقى لي من أيام البعثة.

ألقيت التحية على الجميع، كان الحفل عبارة عن إفطار بسيط، لا فيه تورتة ولا شموع، فقط البعد ساعتين عن لهاث العيادات والعمليات، دارت حوارات عابرة ضاحكة أو هكذا بدت، وعندما قدمت له هدية متواضعة زادت دهشته التي بدت لحظة دخولي عليهم، فهو لم يتوقع حضوري هذا الحفل الخاص، فقلت له حتى أقضي على سخف الموقف: مجرد تعبير عن شكري وامتناني للفترة التي قضيتها بينكم، ثم قامت إلزا بتوصيلي في عجلة لتعود للقاء خاص مع برنارد فودعتها قائلاً: حسنًا، ها قد وصلنا لنهاية الخط، وأتمنى أن تجدي الطريق للسعادة، فأنهت اللقاء بكلمات تكفي لكثير من الرضا بما كان بيننا من صداقة: أتمنى لك التوفيق، ودعني أزف لك نبأً هامًا، لقد قبلت العرض المقدم لي من بنسلفانيا، سأودع برنارد للمرة الأخيرة قبل استلامي العمل في

نهاية العام، ثم قبلتني مودعة.

انغمست في عملي بالمحطة أكثر من ذي قبل، ورقيت لأعمل بالنهار أيامًا إضافية تعرفت أثناءها بجيمس صاحب المحطة بسيارته المرسيدس الأسبور، وهو من أثرياء اليهود يمتلك العديد من محطات البنزين، ويتمتع بسلوك ملتزم وينتمي للحزب الديموقراطي. استأذنت من أستاذي في قسم الطب الرياضي في إجازة أسبوعين للتفرغ لامتحان المعادلة، فقال لي: خذ وقتك، وبدأت أركز في المذاكرة، وعملي في المحطة.

بعد انتهاء الامتحان انتظمت في عملي بالقسم، وكان عليَّ أن أكون مرتديًا البالطو في تمام السابعة ثلاثة أيام في الأسبوع لحضور العيادة، ويومان لحضور العمليات هما الثلاثاء والجمعة، في الصباح. كنا نمر على حالات القسم ثم نجتمع في مدرج المحاضرات لعرض صور الأشعة الخاصة بحالات الطوارئ، نناقش الإجراء المثالي لها مع عرض لما تم عمله بالفعل، كنت أغفو أحيانًا حيث تطفأ الأضواء لعرض أفلام الأشعة على الفانوس الذي يمتد بطول خشبة المسرح، ثم أفيق على سؤال من زميل عن رأي في الحالة فأشتبك معه في الجدل، أخطئ وأصيب دون خوف، وأدركت أن الوقوع في الخطأ هو الطريق الوحيد للتعلم. وما أن يتفرق الجميع أخرج لأخطف كوبًا بلاستيكيًا ممتلئًا بالقهوة مع سيجارة لأعود وقد أنعشتني لسعة الهواء وجرعة النيكوتين. كان ريشموند، رئيس قسم الطب الرياضي ونائب رئيس قسم العظام والمشرف عليّ في الدورة يتابعني وأنا أتحرك هنا وهناك صامتًا، ثم بدأ يطلب مني أن أتعقم لأساعده في جراحة المناظير،

جوهرعملية التدريب في الدورة التي قضيت فيها قرابة ستة أشهر.

صار دخولي مع ريشموند ومرافقتي له في العيادة وفي بحوثه التي يجريها بعد العيادة يوم الخميس تقليدًا أحرص عليه، ويثير لدى البعض شيئًا من العجب لم أفقه سره، بينما كان يشجعني بالشرح وتوضيح أساليب التشخيص ويطلعني على أسرار الجراحات، ولم يترك فرصة إلا وأجاب علي استفساراتي بترحاب شديد. بمرور الوقت، مع اختلاف ظروف العمل في القسم، إضافة إلى ضغط الورديات في المحطة أيام العطلات، ومتابعة ما أتعلمه في جراحة المناظير بالمكتبة صار ريشموند يعاملني كصديق، وكثيرًا ما شكا لي من ضغوط ومشاكل المهنة وشراسة المنافسة في البحوث، وحكى لي كيف أنه اشتهر بتشريح الخيول في قسم التشريح بكلية العلوم قبل التحاقه بكلية الطب، وكيف أحب الخيول كثيرًا.

أما ريتشارد رئيس فريق التمريض بعمليات قسم العظام، الذي يضم ستة غرف كبرى كاملة التجهيز، فكان له وجه طفولي ومشاعر إنسان طيب القلب، وتطوع بإفادتي أكثر من مرة بتفاصيل ما يجري في العمليات التي برع فيها ريشموند، وسألني ذات مرة في استراحة لتناول القهوة عن قيمة ما أحققه من دخل في مصر، حاولت المراوغة ضاحكًا: ما الأمر يا ريتشي؟ هل تنوي الهجرة إلى مصر؟ أليست العادة أن نهاجر نحن إليكم؟ فرد بجد واضح: أنا لا أقصد التدخل في أمورك الشخصية، كل ما في الأمر أنني أرغب في مقارنة الحال عندنا وعندكم، كان لا بد أن أقدم له إجابة ما، فقلت: حسنًا، ما دمت مصرًّا، ما أحققه لا يتجاوز 500

دولار شهريًا - ثلاثة أضعاف الحقيقة على الأقل- وهو مايساوي مبلغًا كافيًا لحياة معقولة، عندها أظهر تعاطفه قائلاً:

ليت هؤلاء، مشيرًا للأطباء بالقسم، يدركون حقيقة ما هم فيه من نعيم، أنت لا تسمع منهم سوى عبارات التذمر! تصور كل واحد منهم يرى في نفسه ريشموند آخر، بينما سينتهي الحال بأغلبهم أطباء بالشركات أو في مستشفيات محلية متواضعة، وسيجنون رواتب مرتفعة جدًا، ومعظمهم يسعى لافتتاح عيادة في حي راقٍ بمدينته، وهم يجهلون تمامًا ما يجري في العالم حولهم، لكن أنا لأني عملت في البحرية الأمريكية عشر سنوات كاملة، رأيت فيها فقراء بلغ بهم الفقر العجز عن توفير ما يطعمون به أطفالهم، لكنهم لا يتذمرون، فقط يحلمون بيوم يجدون فيه ما يقدومونه لأطفالهم، أما إذا مرضوا فلا سبيل لعلاجهم إلا بوسائل بدائية، ولا يوجد ما يؤمن لأسرهم قوتًا أثناء مرضهم!

يا إلهي، لكم أفسدتنا الرفاهية، فلم يعد هناك ما يكفينا أو يمنحنا شعورًا بالرضا مهما حققنا! ما رأيك أنت؟ ألا توافقني أن التدليل أفسد حياتنا وضيّع معنى وقيمة ما نحن فيه من رفاهية؟!

ماذا أقول له؟ هل هم مدللون أفسدتهم الرفاهية؟ أم نحن المحرومون من حد أدنى للحياة، قهرتنا سياسات حكامنا وطحننا الفقر؟ نحيت مونولوجي الداخلي جانبًا وقلت: المال سيد الجميع عزيزي ريتشارد، من منا لا يحلم بالثروة؟ هذه حالنا جميعًا، لكن الحياة لا تمنح الجميع فرصًا متساوية، لا يوجد عدل في عالمنا، ليس العدل هو القانون الذي يحكم العالم إنما قانون يرسخ لمفهوم واحد، البقاء للأقوى، والرفاهية لمن يملك سبيلاً لها لا من يحلم بها، حتى وإن تسلح بالكفاءة والجهد، هذا لا يكفي ولم يكن يومًا

كافيًا، أليس كذلك؟ بعد لحظة شرود قال متأسيًا: أنت على حق، فالحياة صراع وقتال، وليس العدل قانونها بأي حال، انظر إليك: أنت تحضر في السابعة وتعمل معنا للخامسة ثم تعود لتذاكر، وتعمل بمحطة البنزين في العطلات لتوفر المال لأسرتك في مصر، هذا ليس عدلاً على أية حال.

أجبته والدهشة تكاد تعقد لساني: كيف تعرف هذه التفاصيل؟ واصل بقوله: الكل يعلم كفاحك ليل نهار، ويحترمون التزامك بالمواعيد رغم انشغالك، حتى ريشموند نفسه يعتبرك نموذجًا، لأنك تكدح لتحقق ما أتيت من أجله في صمت، وكثيرًا ما قال للزملاء: انظروا إليه، أنتم لا تبذلون نصف ما يبذله من جهد! علت وجهي حمرة الخجل من إطراء ريشموند وقلت: يبدو أن أستاذنا يبالغ قليلاً فأنا شخص عادي، وهناك الآلاف مثلي في مصر، وإن كانت هناك ظروف تعيقنا فلا بأس، نحن لا نعترف باليأس.

زادني الحوار الذي جاء دون ترتيب ثقة وشعورًا بالزهو واقترب بي من المواجهة التي أوشك موعدها، ماذا سيكون قراري البقاء أم العودة؟ وفشلت تجربة الحصول على المعادلة مرة أخرى، وبدا أن فرص بقائي تتضاءل، وأن القضية لم تعد النجاح من عدمه، بل صارت ببساطة ووضوح هل أرغب في تمضية بقية عمري هنا أم لا؟

ثم، قامت الدنيا ولم تقعد، وأفردت الصحف والمجلات صفحاتها وقنوات التلفزيون برامجها لمناقشة قضية الساعة، قس أسود يعمل بالقضاء تم ترشيحه لرئاسة المحكمة الدستورية العليا، ولأهمية المنصب وقدسيته كانت القضية ساخنة. القس القاضي

أو القاضي القس متهم بالتحرش الجنسي بسكرتيرة عملت معه قبل سنوات، انطلقت الأحاديث والوشايات، وكانت الضحية سمراء مثيرة ادعت أنه تحرش بها وأفاض في تحرشه بكلمات وأوصاف يصعب ذكرها! يا لبؤس القس المسكين هاريس! كان على شفا أهم منصب قضائي في البلاد، وثاني سلطة دستورية بعد سلطة الرئيس، تحيز له جورج بوش ودافع عنه، لكن لا بد من تفنيد الدعوى، ولذلك عقدت جلسات استماع بالكونجرس، فلا بد أن يعرف الناس الحقيقة، هذه هي الديموقراطية. ترى ماذا يكون الحال إذا سن القانون المصري تشريعًا بعقوبة للتحرش الجنسي في مصر؟ ترى ما عدد القضايا التي سترفع عندها؟ صحيح، نحن لا نعطي لبلدنا حقه في قدرته على التسامح!

على أية حال كان أمر صاحبنا هاريس كرجل مطعون في نزاهته الأخلاقية مثيرًا بالفعل، أما سكرتيرة جريئة صحيح، ويا له من ضمير حي تملكه، هذا الذي صحا بعد سبات طويل، وأبدى خبراء القانون وعلم النفس والسياسيون رأيهم في القضية، وشرحوا مصطلح التحرش بالتفصيل، وشروط ثبوت مثل هذا الاتهام المشين، وعلى الفور بدأت مراكز البحث في عمل الإحصاءات، 40% من النساء يتعرضن للتحرش من رؤسائهن وزملائهن، و54% يقبلن به حرصًا على الوظيفة!

انبرى المديرون وأصحاب الأعمال لدرأ الاتهام، ودخلت محترفات البغاء على الخط، كما أدلى مرتادو أندية الرذيلة بدلوهم موضحين أن الأمريكيين يدفنون رؤسهم في الرمال، وإلا فماذا يعني تقديم عروض الإستربتيز إن لم تكن عروضًا علنية للتحرش!

انشغل الجميع بالفضيحة وزادت سخونتها يومًا بعد يوم، الكل يعلن موقفه، الرئيس، وأعضاء الهيئات القضائية، والكونجرس، وطال الجميع نصيبًا من شظايا القضية الشائكة التي فجرتها السكرتيرة الحسناء، والحقيقة أن أخانا هاريس دافع عن نفسه وسمعته برباطة جأش وجرأة يحسد عليها، وإن تصبب العرق من جبينه في مواجهة ذئاب المراسلين وضباع الصحفيين، ومع تزايد الضربات من كل جانب صار كالنمر الجريح، يدافع عن حقه في المنصب باستماتة.

وفي ذروة المشهد الدرامي، وتحت إلحاح السكرتيرة المدعية وافق الكونجرس الموقر على عمل جلسات استماع علنية للضحية والجاني، عرضت فيه السكرتيرة في شرائط مسجلة نقية الصوت التعبيرات التي استخدمها القس في التحرش بها، كل تشبيه وكل مجاز استخدمه، وإن لم يُذكر إن كانت عاشرته أم أنها ظلت تتمنع عليه وتزيد من لهيب رغبته المجنونة!

كنت في وردية العمل بمحطة البنزين في اليوم الثالث من جلسات الاستماع، وتصادف مرور صاحب المحطة لاجتماع مع كاتم أسراره جيمي ومحمد تالك اليوغسلافي الأصل مدير المحطة، وترك تالك الراديو مفتوحًا على حفل الاستماع، ودخل حيث الاجتماع في غرفة الدفاتر وماكينة توقيع الحضور والانصراف، وبعد قليل خرج جيمس ليقف بجوار ماكينة الميجاباكس، أنصت قليلاً ثم قال:

إنه يوم أسود في تاريخ امريكا، لقد فاق الأمر كل حدود، أنا ديموقراطي عتيد ومؤيد لحقوق الأقليات من اليهود والسود، وكان ترشيح هاريس نقلة نوعية في حصول السود على حقوقهم، بل

في تاريخ أمريكا نفسها، ثم تأتي هذه السكرتيرة السمراء لتتقيأ في وجوهنا هذا الغثاء الذي أتت به من مقالب القمامة وأوساط الحثالة، لماذا بالله عليك؟ لأنها لم تعد تحتمل كتمان الأمر أكثر من ذلك، هذه الحمقاء أعلنت ،عن وعي أو جهل، سقوط إمبراطورية القيم الأمريكية التي قامت على حرية الفرد لا على حرية تلطيخ سمعته وسمعة البلد!

بعد هذه الوصلة من الغيرة على القيم الأمريكية، أخبرني إيهاب وهو يتسلم مني الوردية أن جاكلين تدعوني لحضور زفاف ابنتها، وتعتذر عن عدم دعوتها لي بنفسها لانشغالها، فقلت فرحًا بالدعوة: والله فيها الخير الحاجة جاكلين، ويا ترى عزمت مين كمان؟ طبعًا أنا وإخواتي وتالك وجيمي وجيمس، لازم تيجي، ماشي؟ يوم الجمعة الجاية تيجي الساعة 3 الضهر وحنروح سوا، اتفقنا؟ قلت متعجبًا: زفة إيه دي إللي الساعة 3 الضهر؟ فأوضح ساخرًا من جهلي المطبق: هذه طقوسهم، حفل توقيع العقد بيكون في الكنيسة الظهر، وبعدها حنروح مكان الحفلة.

في الموعد المحدد، ارتديت البدلة الخاصة بهذه المناسبات "الجيراك"، وبعد الكلمات الرومانسية التي يرددها العروسان والقبلة الواجبة لختم العقد، انتقلنا لقاعة فخمة قريبة من وسط المدينة حيث الأكل والشرب والرقص، لم أصدق أن هذه هي جاكلين التي اعتدت رؤيتها في ملابس أقرب لزي العمال، فها هي أستاذة برامج الكومبيوتر في قمة تألقها، وفي أبهى صورة لامرأة في النصف الأول من الخمسينيات، وها هي ابنتها الشقراء الفاتنة تتأبط ذراع عريسها ممشوق القوام، متفاخرًا بوسامته وبعروسه

الغنية التي يحلم بمثلها كل من في الحفل، كانت فرحة جاكلين طاغية تمامًا مثل أنوثتها التي تعمدت دومًا إخفاءها خلف زجاج نظارتها الطبية وسيجارتها التي لا تفارقها وشعرها المهوش كثير البياض، الذي صبغته اليوم بلون الحناء فأفصح عن وجه امرأة رقيقة الملامح ليست بأقل فتنة من ابنتها، ها هي الأسرة الأمريكية تعبر عن فرحتها بزواج الابنة، حتى الأب الذي حضر من نيويورك مع زوجته الجديدة لم يستطع إخفاء فرحته رغم الوقار وهيبة أمواله التي كان لها النصيب الأكبر من بذخ الحفل.

انتهت قصة القاضي هاريس بعد أن عدَلَ الرئيس عن ترشيحه، وغرقت في دوامة العمل، وتزايدت مرات لقائي بأبو السعود وصار بيننا حوارات لا تتوقف إلا للنوم، وذات يوم دخلت جاكلين المحطة وأنهت طقوسها المعتادة، وبدا كأنها تحدث نفسها، وما أن فرغت من تلبية طلبات الزبائن ذهبتُ إليها في الطرف الآخر من المحل، وبادرتها: كيف الأحوال جاكلين؟ هل كل شيء على ما يرام؟ وكأنها كانت تترقب مبادرتي فقالت ثائرة: تصور بعد أن أزوج ابنتي لـ"توم" أحد شباب العاملين ببنك بوسطن، وأنفق أموالاً طائلة على زفافهم ممنية نفسي برجل يعوضنا عن وحدتنا، وبعد أن قضى شهرعسل كامل ما بين روما وباريس! صمتت لبرهة ثم قالت: يا له من أرنب مدلل فاسد، تخيل! حضرته ذهب يلعب التنس كعادته فأصيب بالتواء في الكاحل، وأوصاه الطبيب بالراحة ثلاثة أسابيع، فماذا فعل؟ لقد تركته ممدداً على الأريكة بالبيت رافضًا قيادة السيارة لشراء لوازمنا.

قلت: هوني عليك، الرجل أصيب ويرغب في الحفاظ على لياقته

فما العيب في ذلك؟ فانطلقت منها الكلمات غاضبة متوترة:

لا يا سيدي، لم تصبح أمريكا دولة عظمى من فراغ، إنما صارت عظمى بجهد أبنائها وعرقهم، كان جيلنا وأجيال من سبقونا حريصين على قوة ورخاء هذا البلد، كنا نعمل بلا توقف، أما الأجيال الجديدة فلن تقدم لها شيئًا، علينا أن نقلق على مستقبلنا ومستقبل أحفادنا إذا كان هذا أسلوبهم في الحياة! أومأت موافقًا: معكِ بعض الحق، لكن العمل في البنوك ليس بهذه الخطورة حتى يتسبب غياب موظف في انهياره، هوني عليك، أمريكا بخير وستظل كذلك. فانبرت تدافع عن أمريكا الخاصة بها:

لا، ليست بخير، ولا أظنها ستكون في المستقبل، هذه الأجيال لا تخجل من طلب كل شيء من الآباء، ولا يعبئون كيف يحصلون عليه، وعلى الآباء الرضوخ وإلا نالوا سخطهم، إنهم ساخطون حتى لو لبيت لهم كل ما يريدون، هم أقل علمًا وأقل عملاً وأقل اهتمامًا بالشأن العام، قل لي كيف سيدافع هؤلاء عن أمريكا إذا هاجمها أحد؟ لا تقل لي لا يوجد من يفكر بالهجوم علينا، فكلما زادت قوتنا كلما زاد أعداؤنا، نحن في الحقيقة عزيزي، أمة في مهب الريح!

كانت حانقة على زوج ابنتها المدلل، مرعوبة من انهيار قيم الآباء المؤسسين، قلت محاولاً طمأنتها: تأكدي أن أمريكا قوية، بل أخطر وأقوى قوة على وجه الأرض، والمدللون والفاسدون فيها لم ولن يطلب منهم الدفاع عنها فهناك مؤسسات كفيلة بذلك، لم تفلح كلماتي في تهدئتها إلا قليلاً، لكنها شكرتني على اهتمامي، واعتذرت عن إقحامي فيما لا يعنيني، مسكينة جاكلين! إنها لا تدري أنها وأمثالها صاروا موضة قديمة في نظر ابنتها وجيلها بأكمله، اعتقد أن أمريكا ليست في حاجة لأمثالها، ولا مصر في

حاجة لأمثالي! صحيح أنني لست أخلاقيًا لهذا الحد، وأنا وإن لم أقدم لها شيئًا إلا أنني على الأقل حريص على قيمها كما تعلمتها، وأكيد بلدي أولى بي وأنا أولى بها.

لا بد أننا، أنا وجاكلين وجيمس وريتشارد وإلزا ومازن، كلنا مخطئون، فهل يمكن لعاقل أن ينكر كل هذا التقدم على الأرض وعبر الفضاء؟ هل يمكن حتى لجاحد أن ينكر كل هذه الرفاهية وعبقرية أسلوب الحياة الأمريكية، الشفرة السحرية للسعادة، لقد انتهى أمرك يا جاكلين، وانتهى في الواقع أمر هذا البلد معي، صرت أقل حماسًا لاجتياز اختبار المعادلة، لا داعي لأي معادلة، لن توجد معادلة مهما بلغ سحرها تصل ما انقطع بيني وبين تلك الحضارة الفارهة كسياراتهم، الفارغة كخواء روحهم.

هل جاءت المسألة في توقيت خطأ؟ أم أنه الخوف من تحمل مسئولية زوجة وطفل، ورغم الترتيبات التي قمت بها، والفيزا التي حصلت عليها فردوس، لم يعد لدي استعداد للبقاء مهما قابلت من مصاعب في مصر، مكاني ليس هنا، حتى وعود أبو صالح المصري بتوفير وظيفة كطبيب مقيم بعد حصولي على المعادلة، وصداقتي بإيهاب والهواري وتالك ومازن وإلزا وجاكلين وجيمي وأبو السعود، كل هؤلاء لم يمنحوني سببًا للبقاء، فالمسألة أكبر من الصداقات العابرة.

سوزان

عدت للعمل مع ريشموند عازمًا على تحصيل أقصى إستفادة

ممكنة، وأبلغت فردوس بقراري، ورحب ريشموند بعودتي من الأجازة وتمنى لي التوفيق، وشكرته على السماح بها فقال: لا بأس، فأنا أقدر ما تبذله من جهد، وأود لو أمكنني مساعدتك في أي شيء تريده. شعرت بالامتنان فقلت: أشكرك، وأضفت كنوع من رد الجميل: ما رأيك في أن تأتي لمصر كطبيب زائر؟ فهلل فرحًا: أحب أن أفعل، بل أتطلع لزيارتك ورؤية بلدكم العظيم، وبدت الفرحة في عينيه ووجهه الذي تشرب بحمرة السعادة، فقلت: إذن سأدبر الأمر.

انتهت فترة عمل جون كبير الأطباء، وحصل على البورد الأمريكي المعادل للدكتوراه، وتسلمت "مارجريت" موقعه، وهي طبيبة في الثلاثين من عمرها متوسطة الجمال ذات جسم رياضي، وتتسم بقوة التحمل والاتزان وحب مساعدة الآخرين، وتصبح في غير أوقات العمل المشحونة بالتوتر غاية في البساطة والمرح، وتبدي إهتمامًا بكل أطباء القسم وكأنهم أبناؤها.

كانت "سوزان" إحدى الزميلات بالقسم طبيبة شابة، جمالها من العيار الثقيل، شقراء بشعر مهوش تعقفه عند بدأ يوم العمل وتطلق له العنان مع انتهائه، رياضية ذات جسد ممتلئ بعض الشيء، لها عينان تجمعان ما بين الأزرق والأخضر في لون ماء البحر، وكلما قابلتها كنت ابتسم لها محييًا وأختفي سريعًا هربًا من سطوة عينيها.

بدأ شهر رمضان، وقررت الصيام، وهو ما كان يعني تناول وجبة السحور في الواحدة صباحًا ثم النوم حتى الخامسة لألحق

بموعد العمل في السابعة، بينما أتناول الفطور حوالي السابعة مساء، ما يعني صيامًا حوالي ثمانية عشرة ساعة تقريبًا، وذات يوم بينما كنت أراقب عملية يجريها ريشموند لأحد الأطباء الزملاء بالمستشفى، سقطت فجأة مغشيًا عليّ، وسارع طاقم التمريض والزملاء بحملي للخارج وهم يسألون: ماذا بك؟ وبعد أن أفقت كاد الحرج يقتلني وقلت متلعثمًا: لا شيء، يبدو أني أرهقت نفسي كثيرًا ولم أكن أنام جيدًا اطمئنوا أنا بخير، سألوني إن كنت أريد أن يوصلني أحدهم للبيت فقلت: شكرًا سأكون على ما يرام.

عدت للبيت يومها، ولم تزل هناك عشرة أيام على انتهاء رمضان، قررت ألا أصومها حتى لا يتكرر ما حدث، لكني استأذنت يوم الجمعة اليتيمة للذهاب للصلاة بجامعة نورث إيسترن، كان الجو صحوًا والهدوء يخيم على شارع هاريسون حيث بوابة المستشفى، جلست أدخن سيجارة على إفريز حوض الزهور الحجري، متأملاً أيام الصيام التي قضيتها بقليل من طعام، وكثير من الجهد، وشعور الوحدة يرفع درجة حرارة شوقي للعودة، فوجئت بسوزان واقفة أمامي بزيها الرياضي قائلة: إلى أين تهرب من العمل في هذا الوقت المبكر؟ ابتسمت قائلاً: لست أهرب لكن اليوم عيد ديني وسأذهب للصلاة، فردت بدلال: إذن سأسامحك اليوم على أن نلتقي غدًا، وربما دعوتني للاحتفال معك، أو أدعوك أنا على الغداء؟ أجبتها مرتبكًا بعض الشيء: طبعًا طبعًا، إلى اللقاء إذن.

أنهيت الصلاة، وعدت على الفور لإعداد وجبة سمك رتبتها مع أبو السعود لنتناولها عند عودته، انهمكت في تنظيف البيت وإعداد الأرز والسلطات وتحمير السمك، محاولاً الهرب من طاحونة أفكار

اتدق رأسي، يارب ألهمني الصواب، هل استدعي فردوس وليحدث ما يحدث بعدها؟ أم أعود ولتذهب أمريكا للجحيم؟ أظن أنه يتوجب علي مواصلة مهمتي في صمت، لكن أين فردوس وابنتي من الحكاية، هل يمكن أن يكون لهما مكان هنا؟ وما هي حكاية سوزان؟ صحيح كنت أحلم بعلاقة معها، لكن لا أنا كازانوفا، ولا هي الملاك الحارس الذي سيعينني على ما أنا فيه، وزاد من غليان عقلي شكوى فردوس في التليفون على استحياء من أن أحدًا لا يهتم لأمرها، رغم ما تعانيه من مشاكل الحمل، مما زاد من شعوري بالعجز، كان الطبيعي أن تكون إلى جواري هنا في هذه الصالة بالتحديد، اللعنة على الحسابات، يا إلهي ما هذا الرعب من مقامرة البقاء؟

حضر أبو السعود، وتناولنا وجبة السمك الشهية ثم بادرني: ماذا بك؟ تبدو مهمومًا، لا بد أنه الشوق لزوجتك؟ أجبته: ربما، وربما ما أخبرتني به من تكاسل الأهل عن رعايتها يزيد من إحساسي بالعجز. قال محاولاً تهدئة قلقي: لا داعٍ للقلق فمشاكل الحمل الأول طبيعية، وإن شاء الله حتقوم بالسلامة، والحمد لله شغلك في المحطة ساعدك على تغطية مصاريفها، قلت مستعيدًا لياقتي في الحديث:

ماشي يا عم عبد الله، طيب أنا وقربت أبقى أب، وإنت مش ناويها بقى ولا إيه؟ فأجاب: إنت عارف إن همي الوحيد هو طموحي العلمي، وبعدين هيّ فين بنت الحلال إللي تخليني أفكر في الموضوع؟ فداعبته قائلاً: يا راجل، وسط كل البنات إللي في الجامعة دول وما فيش واحدة توحد ربنا لفتت نظرك؟ حسب ما أنا فاهم إنت ناوي تستقر وما بتفكرش ترجع، وطبعًا إنت ماليكش

في الهلس بدليل كتب الفقه والتفسير اللي مالية مكتبتك، لازم إنت إللي معقدها وطالب في العروسة مواصفات صعبة، ولاّ يمكن ناوي تعيش راهب؟

قال دون اعتبار للملاحظة الساخرة: ولا مواصفات صعبة ولا حاجة، كل ما في الأمر إن مفيش بنت من عيلة تقبل ترتبط بواحد زيّ حالاتي، مصاريف الدراسة بتبلع كل دخله. واصلت: كل ده كويس، لكن حتعيش كده في عزلة لحد الدكتوراه ما تخلص، وإيه الغرض في الآخر؟ مش يعني آخرتها تعمل لك بحث ولاّ اتنين يفرقعوا في الأوساط العلمية، ماشي وبعدين؟ اسمع كلامي تكسب: اختار لك واحدة من الاتنين: يا الأمريكية إللي قلت أنها بتحاول تتقرب منك، يا السورية إللي كلمتني عنها، وإن كان واضح من كلامك إنك ميال للأمريكية رغم إنك رفضت تديها درس زي ما طلبت منك.

قطع عليّ الطريق قائلاً: يا سيدنا افهمني، البنت الأمريكية السورية الأصل محجبة، وواضح إن أهلها من الإخوان إللي هاجروا نتيجة تضييق النظام العلوي عليهم، وساعات بنتقابل في الكافيتريا، وباين عليها متزنة ونموذج مغري بالزواج، لكن حاسس بتردد شديد ناحيتها، أصل أنا لسه مش متأكد إن الخطوة دي مناسبة في ظروفي، يعني لسه قدامي 3 سنين على الدكتوراه، ساعتها أقدر أصرف على بيت وأسرة، لكن قبل كده المسألة صعبة بجد.

حاولت إثارة موجة مرحة جديدة: أيوه كده إظهر على حقيقتك، يعني إنت دون جوان متخفي، أمريكية وسورية وما خفي كان أعظم، كلهم هيمانين في المدرس المصري الخجول، وهو لا حس

ولا خبر، ضحك من قلبه وقال: دون جوان إيه بس، يا راجل حرام عليك الحكاية مش أكتر من زمالة، رددت إليه الكرة: وإيه العيب في كده، الزمالة طول عمرها بوابة الحب، ولاّ الحب حرام يا مولانا؟

ابتسم وهو ينظر لي نظرة عتاب: طبعًا الحب حرام؛ هنا أول ما تقول لواحدة بأحبك ويكون عندها شوية مشاعر ناحيتك يبقى طبيعي تعيش معاها، وطبعًا الزنا حرام، ولا حتجادل في دي كمان؟ ولا إنت ناوي تفسد أخلاقي على آخر الزمن؟

قلت: بصراحة كده يا عم عبد الله، من لم تفسده إيطاليا إللي عشت فيها 3 سنين قبل ما تيجي هنا، مش ممكن يفسده أي شيطان حتى لو كان أنا، ياريت أنا كانت بعثتي في أوروبا، على الأقل أوروبا بينا وبينها حاجات مشتركة كتير كفيلة بالتفاهم مع ناسها، وده صعب يحصل مع الأمريكان، مش كده ولاّ إيه رأيك؟ فأجاب: صحيح أوروبا مختلفة عن هنا وشعوبها أرقى حضاريًا وأعرق، لكن العلم يا صاحبي، العلم هنا متفوق على أوروبا أقله بميت سنة.

تعرف يا عبد الله، أنا شايف الحسبة دي فيها مبالغة لزوم إثبات تفوق جنس البيض الأنجلو ساكسون البروتستانت إللي بيحكموا أمريكا؟ قام وأعد فنجانًا من القهوة، وأدار موسيقى كلاسيكية، تحديدًا السيمفونية التاسعة لبيتهوفن، فسألته:

ده اختيار عفوي ولا أنت عايز تسمع التاسعة؟ لا، أنا بأحبه عشان أعلن انحيازه للإنسان وعذابه ورفض حروب نابليون بعد ما خاب أمله فيه، ودون سابق إنذار انبرى عبد الله ليصمني بالغموض كغيره: والله أنت حيرتني يا عزت، ثقافتك واسعة وإحساسك مرهف، وواعي بتاريخ بلدك والعالم، ومقبل على مستقبل باهر،

وكل المطلوب منك تصبر كام سنة إنت وزوجتك وبعدها تجني الثمار، وفجأة تقول لي أنا لغيت فكرة البقاء وراجع مصر، منتظر إيه من رجوعك؟ إيه إللي بيشدك فيها عشان ترجع وتبدأ من الصفر؟ فأجبته:

لا، وأنت الصادق قول لي إنت إيه إللي بيشدك هنا في أمريكا ورابطك بيها، ومخليك واثق في الدكتوراه إللي حتاخدها، حتعمل بيها إيه؟ يعني الطبيعة الكونية بتاعتك دي حتحل لنا مشاكلنا، ولا إيه بالضبط؟ انظر لنفسك؛ إنت عايز تتجوز لكن متردد، وتدرس أخطر العلوم الطبيعية ولا تملك أن تفلت من أسر التراث والفقه والتفاسير، وما بتفوتش فرصة إلا وتنتقد بلدك وناسها، وكأنك مش منهم ولا منها، عايز تأكد لنفسك إن مكانك هنا في واحة العلم، دي حياتك وإنت حر فيها، مستكتر عليّ ليه أحلّم إني أكون بني آدم له قيمة في بلده، رغم مشاكل البلد أنا شايف إن بلدي أولى بِيَ وأنا أولى بيها، إيه الغلط في كده؟

أجاب بلهجة اعتذار: على مهلك عليّ إيه لازمة الكلام ده كله؟ أنا عايزك تعيش وتنجح وتربي ولادك بكرامة، بدل ما ترجع تتبهدل في مصر. قلت محاولاً الهروب من هذا المأزق الوجودي الذي تورطنا فيه بلا داع: أنا آسف يا عبدالله، المفروض النهارده عيد ومش وقت حسابات، لكن أنا حبيت أقول لك إللي في قلبي، وعمومًا الخلاف لا يفسد للود قضية، عارف الشهر الجاي عيد ميلادي وحأكمل 36 سنة. كل سنة وأنت طيب، إيه رأيك نرتاح شوية، وبعدها نخرج نحتفل بالعيد في أي مكان، ولاّ إنت مرتبط بميعاد مع حد؟ لا أبدًا على خيرة الله.

خرجنا بعد القيلولة، وللمرة الأولى نخرج ويكون هدفنا الفسحة، وسألني : تحب تروح وسط البلد، ولاّ ميدان هارفارد؟ ولاّ نروح الشمال نتسوق وبعدها ندخل السينما مثلاً؟ آه، السينما فكرة هايلة، بس خلينا في هارفارد أنا بحب الموسيقى إللي بيعزفوها في الشوارع، بتحسسني بألفة مع الناس. في المترو صرَّح بما يعانيه في قسم الطبيعة الكونية لأن معظم الأساتذة فيه يهود، وإنهم بيجيبوا له عروض عمل عشان يبعدوه عن القسم وأبحاثه، لأنهم لن يقبلوا بسهولة أن يعمل مصري مسلم في المجال! فعلقت: هو ده المهم يا عمنا، سواء كانوا يهود أو أمريكان عاديين حيفضل بينك وبينهم حاجز، في الآخر إحنا شرق وهما غرب، هم سادة وإحنا؟ هو إحنا إيه في رأيك صحيح؟ ويا ترى إحنا إيه في نظرهم؟ أقول لك سيبك من الأسئلة ويلا بينا نخش السينما.

قررنا دخول فيلم صمت الحملان بطولة جودي فستر وأنتوني هوبكنز، فإذا بالفيلم تعبير عن صراع الحضارة الغربية والعلم مع غرائز النفس البدائية للانسان، حتى تحول البدائي داخله لوحش يسعى لتحقيق أسطورته الذاتية في التفوق، وحش يرتدي أقنعة الحضارة الغربية المبهرة! خرجنا من الفيلم وقد أصبنا بصمت يفوق صمت الحملان، وقلت: دي مؤامرة يا عبده، يعني نهرب من الجدل ونخش السينما، نلاقي الفيلم يقضي على ما تبقى لنا من هدوء داخلي، ويدمر الخلايا العصبية المشدودة أصلاً على آخرها، لازم نكسر الحالة دي، انس مواعيدك الصبح وانس البحوث أنا عازمك على العشا، لم يتردد وجلسنا نستمتع بمراقبة الميدان وموسيقى الجيبسي تغمر أروحنا المتعبة بألحان الشجن، اشترى كل واحد منا شريطًا للفرقة ثم جرينا باتجاه محطة المترو

آملين في نسيان ما قلناه.

كانت الأنباء في تلك الفترة تتوارد عن انتصار نيلسون مانديلا وحزب المؤتمر في جنوب إفريقيا على نظام الفصل العنصري، بعد 27 سنة نضال وقتل وتعذيب في السجون، في صراع انتصرت فيه قبائل الزولو وغيرها من القبائل على نظام الأبارتهايد، وخرج الزعيم من سجنه ليصبح رئيسًا لبلد حطم لتوه أسوار العزل بين السود والبيض، ولم يفوِّت الأمريكان الفرصة الدرامية للاحتفاء بالزعيم المنتصر!

انطلقت الألعاب النارية لحظة مرور المترو فوق جسر تشارلز احتفاء بالزعيم، وجذبني المشهد فقلت لعبد الله أنا حنزل المحطة الجاية دي فرصة مش لازم أفوِّتها، عايز أشوف الناس إللي زي النمل دي بتعمل إيه، لم يستطع هو الآخر مقاومة إغراء رؤية الزعيم ولو من بعيد، نزلنا ووجدنا في الحديقة أفواجًا من البشر من كل لون وصنف، يتصايحون كلما أطلقت الألعاب النارية، بينما موسيقى صاخبة تتصاعد من المسجلات وهم يرقصون على أنغامها، ورأينا آباء يحملون الأبناء على أكتافهم لعلهم يتمكنون من رؤية الزعيم المنتصر.

بدا الحفل طقسًا جماعيًا لتطهير الروح الأمريكية من خطيئة إبادة الهنود واستعباد السود، ورغم أن الفرق الموسيقية كانت بعيدة عن مرمى البصر حيث يجلس الزعيم والمحتفون به، إلا أننا استطعنا تبين أغانٍ من تراث موسيقى البلوز التي تمجد الحرية وتصرخ برغبة الانسان في تحرير روحه! امتدت الاحتفالية الصاخبة، وشرب الجميع أنخاب نصر لم يساهموا في صنعه.

عدنا للبيت، واتصلت بفردوس قبل أن أنام فأبلغتني أن الولادة ستكون خلال الأسبوع القادم، ومن المحتمل أن تكون ولادة قيصرية، وأن ضغط الدم تحت التحكم والمولود بخير حسب آخر فحص، وفي الصباح، ذهب أبو السعود للجامعة، وكان النهار مشرقًا يخيم عليه هدوء صباحات الأحد، ومن النافذة رأيت أطفال الجيران يتصايحون حول حمام السباحة، وأمهم ذاهلة عنهم، وعندما انتبهت لجلوسي ألقت التحية وسألتني: ماذا بك، تبدو قلقًا؟ قلت: لقد اقترب موعد ولادة زوجتي وأنا هنا بعيد عنها بآلاف الأميال، كان عليّ أن أكون إلى جوارها. فقالت: لو أعرف زوجتك لقلت لها كم تحبها، لاتقلق سيكون كل شيء على ما يرام.

في محطة البنزين استقبلني تالك قائلاً: ليست عادتك أن تتأخر. فقلت: اعذرني نمت متأخرًا، فدعاني لفنجان من القهوة مع بعض حلوى الدونتس وسأل: ماذا بك؟ لاحظ جيمس والآخرون أنك مرتبك بعض الشيء، وطلب مني أن أبلغك أنه يود أن يساعدك إذا كانت هناك أي مشكلة، فاجئني السؤال والإهتمام فقلت: ياه للدرجة دي قلقي مكشوف، الحمد لله الأمور على ما يرام كل الحكاية إن زوجتي على وشك الولادة وأنا بعيد عنها، فليحفظها الله ويتمم ولادتها على خير، عموماً بلغ جيمس إني أقدر اهتمامه، المفروض إنه في غنى عن الانشغال بي. رد تالك بجدية شديدة: لا تقل هذا الكلام، إنه يقدر جهدك وعلاقتك الطيبة بالزبائن ويتحدث عنك بكل تقدير، بل أنه رشحك للفوز بجائزة أفضل عامل في محطات شل على مستوى الولاية، لكن عليك إبقاء الأمر سرًا حتى إعلان النتيجة.

جاءت جاكلين للمحطة كعادتها قبل الغروب بقليل، وكان مزاجها معتدلاً حتى أنها اعطتني سيجارة وأشعلتها لي، ثم أمسكت بيدي وقالت: كيف حالك صديقي، لا تبدو على ما يرام؟ لم يفاجئني سؤالها: أبدًا، زوجتي على وشك ولادة وأنا قلقان عليها، ومازلت مترددًا في العودة لمصر أو البقاء، ما رأيك أنت؟ فأجابت: لا شك فرص الحياة هنا كبيرة، وربما كانت أفضل من فرصك في مصر، لكن هل تشعر بعد هذه المدة أنك تنتمي أو يمكن أن تنتمي لهذا المجتمع؟ والأهم، هل يمكنك الاستغناء عما تملكه في مصر مهما كان ضئيلاً؟ هل يمكن لأي نجاح مهني أن يعوضك عن أهلك وأصدقائك هناك؟ ماذا عن زوجتك، ماذا تريد هي؟ بصراحة القرار صعب، لكن عليك أنت اتخاذه ولا يمكن لأحد أن يتخذه نيابة عنك، إنها خياراتك وعليك تحديدها بنفسك.

تعلمين جاكلين أنه لا توجد جنة على الأرض، وكل شيء له ثمن ولا يوجد نجاح مجاني، لكن هل تعتقدي أن نجاحًا هنا مهما كان بعيدًا عن الأهل والأصدقاء قد يحقق لي السعادة؟ لا أظن بوتقة تذويب الثقافات لديكم يمكنها أن تذيبني، أتعرفين؟ من يومين أتت سيدة في الثلاثين، وبعد ما دفعت حسابها عادت لتسألني من أين أتيت؟ قلت لها من مصر. فأضافت: وما هي ديانتك؟ قلت لها مسلم. فتابعت: وكم من الوقت أمضيت هنا في أمريكا؟ قلت لها: 8 شهور تقريبًا. عندها دخلت في الموضوع رأسًا: ألا تشعر بالوحدة؟ توجست منها فرديت بلا مبالاة: ومن منا لا يشعر بالوحدة؟ أردفت: يمكنك أن تنضم إلينا إذا كان هذا يناسبك، نحن جماعة روحية نسعى للخلاص من الوحدة والاغتراب، ونلتقي كل أربعاء 6 مساء، يتحدث كل واحد عما يرغب في الحديث عنه،

نتبادل اللقاء سعيًا لتقوية الروابط بيننا وتخفيف آلامنا، ويلقي أحدنا وعظًا أو خطبة ارتجالية قد تدل من ضلّ طريقه منا إلى الخلاص، ثم ناولتني كارتًا به العنوان ورقم التليفون واختفت!

ضحكت جاكلين وقالت: أرني الكارت، فأخرجته لها من ماكينة الصرف. طبعًا أنت لم تذهب؟ فقلت ساخرًا: وماذا تنتظرين من مصري مثلي، حفيد إيزيس وأوزوريس، هل توقعتِ أن آتي لهنا كي أحضر محاضرات مشبوهة مع من لا يعرفون لمن يلجئون، أنا أعرف جيدًا لمن ألجأ، لست بحاجة لمن يساعدني، التقطت الخيط وقالت:

ها أنت قلتها، أنت لست بحاجة لمن يساعدك فلِمَ تطلب مساعدتي لاتخاذ قرارك؟ كلا سيدي، من هو مثلك بالضرورة يملك ما يؤهله لاتخاذ قراره أليس كذلك؟ ثم قل لي ما الذي يمكنك تحقيقه هنا؟ شهادات، ليست القضية فيما نملكه من أوراق هوية، بل فيما نملكه من سلام مع النفس، والثمرة التي ستجنيها هل ستثمر على غصنها الأصلي؟ يجب أن تعرف ماذا تريد بالضبط؛ فول سوداني أم ثمرة تين؟ هل ترى مثلاً أن حبة زيتون في شجرة أمام منزلك تساوي الدنيا بما فيها؟ هل تساوي أم لا؟

ياه يا جاكلين، أتملكين كل هذه الرومانسية، كنت أظن الرومانسية قاصرة على أبناء حضارة الشرق، وها أنت برغم مكانتك العلمية وحسابك المتين في البنك لديك كل هذا الحس المرهف، أنت اليوم جاكلين جديدة لم أكن أعرفها من قبل. ردت ضاحكة: لا تمارس معي لهوك الساخر، أنا أتكلم معك بجد وعقلي متيقظ ومستعدة أكلمك لآخر الليل، هذا ليس حديثًا عابرًا ولا أنت شخص عابر ينتهي

أمره بانتهاء الحديث معه أو حتى بعودته لبلده، أتفهمني؟

ردتني نبرتها لمسار الحديث فقلت: هوني عليك جاكلين، لا بأس من بعض المرح؟ الموضوع كله كلام في كلام. فما كان منها إلا أن قالت بحزم: لا، لقد اخترتني لتتحدث معي وطلبت مساعدتي، دعني أقل لك: الحقيقة أننا نحن من يحتاج للمساعدة، نحن الحائرون بحق لا أنتم، أتعرف ذلك؟ أم أنك لم تر المسرحية الهزلية التي أخرجناها ومثلناها هنا احتفالاً بنيلسون مانديلا ؟ ألم نكن نحن من أيدنا نظام الفصل العنصري، وغضضنا الطرف عن ممارسات البيض لعقود، ثم ما أن انتصرت إرادة الشعب نحتفل بزعيمه، بأي حق؟ بأية صفة؟ صدقني، نحن كذبة منافقون! عزيزي عد لبلدك، عد لبيتك وزوجتك ومولودك القادم، وثق بأنك ستنجو بنفسك من شعب منافق، وإذا كان بلدك أقل تقدمًا أو حتى بلدًا متخلفًا يحكمه طغاة، فاذهب لتكافح التخلف والطغيان، معركتك هناك ولن تكون هنا أبدًا، أبدًا!

لم أتمالك نفسي وقبلتها قائلاً: أنت صديقة مخلصة بحق، لولاك ولولا كثيرين مثلك لما كانت أمريكا على ما هي عليه، أمثالك يا جاكي هم رمانة الميزان في هذا البلد، وليذهب الساسة للجحيم، ربتت على كتفي وقالت: اسمح لي أن أهنئ نفسي بصداقتك، ودعني أحتفل بك قبل عودتك وقت تشاء وأين تشاء. حسنًا، لا عليك جاكلين لا داعٍ لأي احتفالات، تكفيني هذه المحبة.

وضعت فردوس مولودتنا الأولى، وبقي لي قرابة ثلاثة شهور أقضيها هنا، اتصلت بها وباركت لها ولنفسي بالمولودة التي ستجمعنا على أمل رجوت الله ألا يخذلني فيه، ثم اتصلت بالمستشفى الخاص الذي كنت أعمل فيه بمصر، وأبلغتهم بفكرة

استضافة ريشموند فطلبوا سيرته الذاتية لترتيب المسألة، أبلغته بذلك فقال: لا توجد مشكلة.

لم أجد وسيلة للاحتفال بمولودتي "سارة" سوى إعلان ذلك للزملاء الذين هنئوني وأبدوا إعجابهم بالاسم، ثم درت في شوارع وسط المدينة باحثًا عن شكل ما من أشكال الاحتفال، وبينما أنا إلى جوار محل الأدوات الموسيقية رأيت محلاً فخمًا بديكور كلاسيكي من الخشب المشغول وفاترينات تعرض أنواعًا وماركات متعددة من الشيكولاتة، دخلت بلا تردد، وطلبت من البائع أن يختار لي أفضل الأنواع، عاين مظهري بدقة واكتشف مدى حيرتي في تحديد الهدف فسأل: ما هي المناسبة؟ انفرجت أساريري عن ابتسامة صافية لمن صار أبًا لأول مرة: رزقت بمولودة سميتها سارة، ابتسم وهنأني، ثم قال: لحظة من فضلك، وأشار إلى فاترينة بها أشكال وأحجام مختلفة، أظن هذه الشيكولاتة السويسرية ستفي بالغرض؟ أيدت رأيه وطلبت 2 كيلو، فرد بهدوء: سيكلفك هذا 200 دولار، فأجبته باسمًا: لا بأس.

قمت في الصباح بتوزيع الشيكولاتة على الزملاء وكل من قابلته من العاملين، ثم توجهت لمكتب رئيس القسم السيد/جولدبرج، وطلبت من السكرتيرة مقابلته لأمر شخصي، فقادتني بعد دقيقة إليه، وكان جالساً بوجهه الطفولي الذي يضج بالحيوية ومظاهر النعمة، وبمجرد أن رآني ألقى نظارته على أوراق البحث أمامه وقام لتحيتي، فعاجلته مقدمًا له علبة الشيكولاتة ليتناول منها، مد يده فرحًا وأطلق شهقة فرح طفولي: آه رائع هذه الشيكولاتة هي صنفي المفضل منذ طفولتي، ولم أكف أبدًا عن طلبها من

أبي، وسألني والبهجة لم تفارق وجهه: لكن ما المناسبة؟ قلت وقد غمرتني البهجة أنا الآخر: لقد رزقت بمولودتي الأولى سارة. هنأني وشكرني ثم سأل وهو يسير معي باتجاه الباب: ألا تظن أنه من الواجب أن تكون إلى جوارها الآن؟ يمكنك أخذ إجازة أسبوع، وسنكون في انتظارك لنقيم لك حفلاً عند عودتك، قلت: حسنًا، سأرى ما يمكن عمله! خرجت من عنده تحيرني البساطة التي يقترح بها سفري لمصر أسبوعًا والعودة.

عانقتني وقبلتني كريس سكرتيرة ريشموند، وقالت ضاحكة: صارت لك أميرة لترث عرشك الملكي، ولكن أليس اسم سارة يهوديًّا؟ لا، سارة تزوجت من النبي إبراهيم وهو من سادة القبائل العربية، نحن سادة في بلادنا يا أستاذة. ابتسمت وقالت: طبعًا طبعًا، لكن ألا ترى أنه لم يعد هناك سادة وعبيد في زماننا هذا؟ لا، ليس المقصود سادة على عبيد، لكن سادة بمعنى الأصول والأنساب. دخل ريشموند علينا وهنأني، وتناول مع كريس نصيبه من الشيكولاتة ثم قال: ألن تأخذ إجازة يومين؟ المناسبة تستحق الاحتفال، ربما قررت السفر لرؤية المولودة، أسبوع مثلاً. حدثت نفسي: صحيح يا أخي أنت بخيل كده ليه؟ واخفيت عنه مونولوجي قائلاً: لا السفر مكلف جدًا ولا قبل لي بهذه التكلفة، لم يبق لي سوى 3 شهور هنا وعندما أعود سأحتفل كما ينبغي. فتوجه بالكلام لكريس: حسنًا، فلتدبري احتفالاً يوم الثلاثاء القادم بعد العمليات مع الزملاء. غمزت لي كريس بعينها قائلة: لِمَ لا تمر علي في الخامسة لنرتب تفاصيل الاحتفال، وأعطيتها نقودًا طالبًا منها تدبير احتفال يليق بأميرة سليلة أمراء وضحكنا.

في اليوم التالي بعد انتهاء المرور على المرضى بدا أن سوزان تضمر شيئاً، تنظر إلي بتمعن وتودد، ودعتني لتناول فنجان قهوة قبل بدء العيادة. خرجنا باتجاه الكافيتريا الملحقة بمبنى المكتبة، فإذا بها تمسك بيدي تستوقفني وعيناها تغمراني بحنو بالغ مهنئة بمولد سارة وقالت: هل تقبل دعوتي لاحتفال خاص أعددته بهذه المناسبة مساء الجمعة، هل يناسبك الموعد؟ يناسبني، ماذا تقولين؟ أنا لا أملك التعبير عن امتناني إلا بوسيلة واحدة، وأمسكت كتفيها بيديّ وجذبتها ناحيتي وقبلتها بود لم تكن له سوابق حتى احمر وجهها خجلاً وعلقت فرحة: يا لها من وسيلة.

أكملنا يومنا ونحن نختلس الابتسامات والغمزات، وفي استراحة الغداء دون ترتيب مسبق تلاقت يدانا وخرجنا لا مبالين بنظرت الدهشة في عيون الزملاء المتسائلة عن هذا الود المفاجئ؟ لم نبال وجلسنا معًا في مطعم اختارته هي بنفسها تلبية لدعوتي لها وسألت: ماذا تريد أن تأكل؟ سآكل ما تختارينه، يكفيني أنني معك فقد مللت وحدتي وأكاد أختنق بها، قضينا حوالي ساعة تسألني عن مصر والمصريين وتستمع لإجاباتي المقتضبة باهتمام، وعلقت ونحن في طريقنا للمستشفى:

لماذا تبدو ردودك مقتضبة؟ فأجبت: لأن الجميع هنا يسألني أسئلة شبيهة، حتى مارجريت سألتني ذات مرة إن كنا لا زلنا نركب الجمال؟ طبعًا كما ترانا في كروت البوستال! واعتذرت لي عندما نبهها بيير لسذاجة السؤال، لكن عمومًا يا سوزان أنا واحد من آلاف مثلي في مصر، وإن كنتِ فعلاً ترغبين في معرفتي عليك أن تتعرفي على الإنسان بداخلي ربما تعرفين شيئًا عن مصر والمصريين بدون أسئلة، اعتذرت: كانت الأسئلة محاولة لأتقرب

منك لا أكثر، فأجبتها ويدي تقبض على يديها بلهفة لم تكن تعلم بها: دعي الصداقة تنمو بشكل طبيعي، فهي بوابة لكل شيء.

اتصلت ليلاً بفردوس ومشاعر الفرح بسلامتها هي وسارة تغمرني، وأبلغتها باحتفالهم المزمع في القسم بمولدها، ووعدتها أن أعوضهما عن غيابي! وقامت كريس بكل ما يلزم لاحتفال بسيط بعد موعد العمليات، مع بعض الحلوى وزينة بسيطة، وقدم الجميع لي كروتًا ترحب بقدوم المولودة، وشعرت بدفء وألفة كنت في أشد الحاجة إليهما، ها أنا بعيد عن بلدي لكن لي زملاء، حسنًا على الأقل هناك من يهتم.

يوم الجمعة، صليت في نورث إيسترن وشكرت الله على سلامة فردوس وسارة التي وهبني الله إياها، ثم توجهت لموعدي مع سوزان، كانت في انتظاري أمام المستشفى، وفي الطريق لبيتها طلبت منها المرور على المنزل لجلب بالطو المطر، وعندما وصلنا قالت سأنتظرك هنا، فقلت: لا، هيا نتناول القهوة معًا، ربما كان عبدالله موجودًا لأقدمك له، صعدت معي درجات السلم الخشبي وهي تتأمل البيت، جلست أمام النافذة في الصالة، أعددت القهوة وأريتها حجرتي، هذا سريري المتواضع، هنا أضع كتبي وأتناول طعامي، هل كنت تتوقعين الحياة التي أعيشها؟ ثم أشرت لحجرة عبدالله وقلت: هو أيضًا مصري يدرس في نورث إيسترن، كما ترين ليست لدي شروط في الحياة ولا أرغب في امتلاك أشياء ثمينة، يكفيني سرير ومقعد ومكتب أو طاولة أقرأ وأكتب عليها، ونافذة يدخل منها ضوء النهار! علقت: الرضا صفة جميلة، وتوجهنا للباب ونزلنا درجات السلم وانطلقنا حتى وصلنا لباب عمارة بوسط

المدينة، فتحت البابَ ودعتني للدخول قائلة: خذ راحتك واعتبر نفسك في بيتك، دقائق وسأكون معك.

رحت أطالعَ المكان فوجدته منسقًا أنيقًا، منصتًا لموسيقى تأتي من جهاز بيك آب بجوار المدفأة، متأملاً صورة تخرجها، وصورها مع أصدقاء في رحلات خلوية، وصورة عائلية بصحبة أمها وأبيها وأخيها الأصغر حتى عادت في ثوب زهري اللون عاري الكتفين يصل إلى ما فوق الركبة بقليل، تحمل في يديها بعضًا من الحلوى المنزلية قدمتها لي وسألت: ماذا تريد أن تشرب؟ فقلت: لا بأس ببعض النبيذ لفتح الشهية أم أنك ألغيت العشاء؟ ضحكت وأتت بزجاجة النبيذ التي أحضرتها معي جريًا على العرف المتبع، ثم أطلعتها على بعض الاسكتشات التي رسمتها لريشموند، والحديقة العامة، سألت مبدية إعجابها ببورتريه ريشموند: طبيب أنت أم رسام؟ فأجبتها: إنها وسيلة للتسلية، يمكنك القول أنني محب للحياة، أحب فستانك الزهري، وأحب روحك الصافية التي لم تمنعك - رغم علمك أني على وشك العودة لبلدي- من مد جسر للصداقة بيننا، حتى فرحتك بمولد سارة كانت عفوية بدرجة أحرجتني، أنت ذات قلب محب لا يملك المرء إلا مبادلته حبًا بحب، وتطلعت لقسمات وجهها المنسابة، كدت أقبلها، ثم تراجعت وأذبت رغبتي في كأس النبيذ، وبعد صمت لبرهة بادرت:

أنا أمريكية عادية، ربما بدوت من الأثرياء بمنزلي الذي يكلف أبي الكثير، فهو يعمل مديرًا تنفيذيًا بإحدى شركات الدواء، هو منفصل عن أمي من سنوات، وهي تعيش مع زميل وشريك لها، هي مصورة وهو نحات وهما شريكان في مصنع للأثاثات المكتبية،

وأنا على اتصال دائم بأمي، ورغم أن أبي يعمل في بوسطن إلا إني لا أراه كثيرًا، أقضي أيامي ما بين الزملاء في المستشفى والدراسة التي أوشكت على الانتهاء منها، كنت إلى وقت قريب في علاقة مع جون كبيرالنواب لكنها انتهت منذ فترة، وكثيرًا ما تدعوني أمي للإقامة معها، وأحيانًا ألبي دعوتها إلا أن شخصية "نيك" صديقها طاغية ويعيش بأسلوب ربما يناسب الفنانين لكنه لا يناسبني، ولا أرتاح للإقامة معهم لفترات طويلة، لكني ألجأ إليها كصديقة وهي لا تخذلني أبدًا، وبالمناسبة تحدثت معها عنك فحذرتني من الاقتراب منك، وقالت إنكم أهل الشرق غامضون ولا يسهل معرفة نواياكم، وعندما قلت لها إنك شخص مختلف يحترمه الجميع لم تعلق، لكن لا تخشَ شيئاً فرأيها لن يؤثر في علاقتنا! أجبتها بهدوء من توطد على سوء الظن:

سوزي، رأي أمك أو رأي الزملاء في علاقتنا هم أحرار فيه، أنا سعيد بصداقتنا، وبهاء جمالك الذي يصعب مقاومته، ولا شك أن وحدتي-وغربتي في بلادكم تدفعني دفعًا لصداقتك، لكن ماذا عنك؟ أنا بالنسبة لك مجرد عابر سبيل، وجودي معك استثناء لن يدوم، صورة لن تكتمل على أية حال! هل تعلمين أننا إذا أخضعنا أنسجتي وعقلي الغارق في أسر نهر النيل للتحليل في معاملكم، لن تكون النتائج مطابقة للمواصفات، ولن أحصل على أية إجازة أو شهادات جودة، فأنا قادم من عالم آخر، ليست فيه رفاهية ولا كروت بلاستيك ولا طرق سريعة، وهو بالتأكيد ليس بالعالم الذي يتقافز فيه الناس في سيرهم مثلكم!

عزيزتي اضغطي زر جهازك لنستمع لموسيقى الريف الأمريكية، من المسجل الياباني، وسأراقصك أنا الفرعون، سواء كنت سليلة

الفايكنج أوالبوربون، في ثوبك الإيطالي، هكذا تكون الإنسانية بعيدًا عن أية هويات! لكن صبي قبلها نبيذ التقارب، لنشرب نخب الحلم الضائع، حلمًا لي ضاع في بوسطن، وحلمًا لك لم تعرفي الطريق إليه بعد. لمعت دمعة في عيونها الزرقاء في لحظة إشفاق على ذروة تكورت فيها آلامي على شفتي، وأطلقتها دون وعي على لساني، في فيلم خيالي يحاول فيه توم كروز أو توم هانكس أو أي توم أن ينقذ نفسه من هواجسها! واستسلمت سونيا معي لوقع الأحزان المستترة، وتحررت أجسادنا من ربقة الكلمات، وعندما تلامسنا توترت واضطربت خلايانا، فمنحتني رغبة مجنونة رائقة لارتياد واحة الارتواء في صحراء الوحدة القاحلة، ابتل وجهي بعرق النشوة، وأنا أتأملها راقصة في بؤرة الضوء المنسابة كالفراشة! ترى من تراقص يا وطواط القاهرة؟ حلمًا أم وهمًا يأسرك!

استلقيت إلى جوارها، بينما هي ممددة على الأريكة وقد أنهكتها مشاعر متضاربة أضفت على ما انكشف من جسدها المرمري لمعانًا سرمديًا، بدأ نبض قلوبنا المتسارع يتباطأ، وتوقفت غدد العرق عن إطلاق فيضها الساخن، مالت عليّ تجفف عرق الرحلة في مجهول مبهر يملؤنا برغبة الغوص في بؤرة النزوة المدهشة، وساد صمت علقت فيه الأحبال الصوتية في متاهة الحروف المرتبكة، نذيبها بما تبقى من نبيذ، ثم أمسكت يديها وبحت لها أملاً في راحة الاعتراف:

معذرة سوزي، فاض بي التعب، الحقيقة لا ذنب لك فيما يجري، كما أنه لا ذنب لي في طغيان الوجيعة، لكنها الرغبة في بوح لم يكن يحق لي أن أثقل عليك به.

أجابت: لا، لا تعتذر، لا تقل لي هذا الكلام، أنا من دعوتك، أنا من أردت معرفتك على حقيقتك بآلامك وأحلامك، صدقني المسألة ليست كما تصورها أمي، ولا كما تراها أنت، المسألة أننا نحتاج للكثير كي نزيل غيوم الشك بيننا، ذات يوم سنكتشف أننا ننتمي للفصيلة ذاتها، نحمل الأنسجة ذاتها، التي تتوالد من الحيرة والألم والحلم، دعنا نشرب نخب المحبة الخالصة دون سؤال عن من نكون، نخب الألفة التي نشأت دون شروط مسبقة، ودون أن نسأل أين نكون غدًا.

مضت الليلة الحلم دون أسئلة جديدة، أو بحث عن إجابات لا طائل من ورائها، ثم على باب شقتها أصرت على توصيلي بزيها الرياضي، شكرتها وقلت: لا بأس فالجو جميل سأستقل سيارة أجرة، يكفيني ما منحتيه لي الليلة بسخاء فردت بحسم: بل أود أن نتجول معًا في مدينتي الصغيرة لأطلعك على ما لم تعرفه عنها، تجنبت السير في الطرق السريعة، واختارت المرور في شوارع تعرفها، وهي تحكي ذكرياتها في كل مكان وكل ناصية، ثم سرنا بمحاذاة الشاطئ باتجاه ريفير حيث توقفت جانبًا وقالت مشيرة إلى المحيط : تأمل كيف ينتظرنا لنخبئ فيه أحزاننا ونودعه أسرارنا، وذبنا معًا في قبلة أخفقنا في أن نصل لمنتهاها فأزاحتني قليلاً ضاحكة:

كفاك، لقد سلبتني كل أسلحتي من اللقاء الأول، ما رأيك؟ لقد أوشك النهار أن ينتصف، سأتركك حتى الثالثة ثم نلتقي على الغداء، فأفقت من النشوة وقلت: ستنتهي ورديتي بالمحطة في العاشرة، يمكنني أن أستأذن مبكرًا ساعة لنلتقي في التاسعة وأدعوك أنا على العشاء. لا بأس إذن، سأمر عليك في المحطة،

لا أرجوك لا داعي، سألقاك في التاسعة والنصف بمحطة المترو، فقالت بحسم: سآتي إليك أينما كنت، لم يبق لدينا الكثير من الوقت!

دخلت غرفتي فإذا بها تبدو كقصر يفتقد ملكته وأميرته الصغيرة، أطفأت الأنوار وغفوت على صوت مغنيتي السمراء شيرلي بيثي، ثم أفقت وذهبت لعملي قبل الموعد بساعة مترقبًا ظهور جاكلين، تجولت عند دخولها كعادتها تحمل فنجان قهوتها، وفي يديها حزمة الجرائد التي اعتادت قراءتها نهار السبت، توجهت ناحيتي وأنا أرص أكياس البطاطس والحلوى، ترنو ببصرها لماكينة الميجا باكس تناجي لعبتها المحبوبة، وما أن تلاقت عينانا قالت: آه، أنت اليوم في كامل لياقتك، وتطفر من عينيك نظرات لا تظهر لديكم إلا وكان في الأمر امرأة.

ضحكت: هذه عادتك جاكلين، لا تتركين لي فرصة لأية مناورة، نعم في الأمر امرأة، جميلة ودودة ورومانسية لأبعد حد، هل أنت فرحة من أجلي؟ طبعاً يا صديقي، لكن حاذر من الإفراط في المشاعر، اكتف بما تمنحه لك اللحظة، لحظات السعادة يفسدها النبش فيما سيأتي لاحقًا،أجبتها مطمئنًا: لا تقلقي عزيزتي، فقد حزمت أمري ولن تتجاوز المسألة حدود الذكرى الجميلة.

اتصلت سوزان قبل الموعد، حضرت وملأت خزان سيارتها بالوقود ثم انطلقنا وهي تثني على أناقتي، وأنا أثني على بهائها الذي زاد جلالاً، فقالت: ما رأيك؟ لا داعٍ للعشاء في أي مطعم مهما كانت روعته، هيا بنا نقضي ليلتنا في البيت، لكني أصررت على دعوتي، وكان مطعم هاف مون - الذي سبق أن تناولت فيه الغداء مع مازن- مزدحمًا عندما وصلنا، وبعد انتظار لفترة قصيرة

جلسنا وسألت: لماذا هذا المكان بالذات؟ أجبتها: لا شيء، فقط تمنيت دومًا أن آتي للعشاء هنا منذ جئت للمرة الأولى مع أستاذ التشريح د. مازن، وكلما هممت أن أفعلها وبعد الوقوف في طابور طويل منتظرًا طاولة يمكنني الجلوس عليها، تسوءني وحدتي فأخرج غير آسف على شيء، ولطالما حلمت أن أدخل ذات يوم مع أميرة من أميرات أوروبا! وها أنا أدخله معك وعيونك الزرقاء تفتح لي أفقًا من البهجة، وجسدك يتألق، وقلبك انطلق من عقاله، بينما أنا على بابك عاشق انتظر إذنًا بالدخول.

صحونا بعد نوم عميق، داعبت وجهي برقة وقبلتني وهي تناولني قهوة الصباح: لماذا لا تنتقل للعيش معي هنا ما تبقى لك من أيام في بوسطن؟ قبلتها شاكرًا: هذه دعوة كريمة، لكن ليس واقعيًا أن نتشارك الحياة ونحن على موعد بالفراق، هذا ظلم كبير لك، لا داعٍ أن نزيد ألم الفراق الذي علينا أن نتجرعه!

صار ما بيني وبينها جليًا للجميع في المستشفى، ولم يعبأ أحد بالأمر عدا مارجريت كبير الأطباء التي سألتني في لحظة مباغتة: كيف حالك مع سوزي؟ أجبت متحفظًا بعض الشيء: على ما يرام، فأكملت: هل تقيمان معًا الآن؟ توترت من اقتحامها أموري الشخصية وقلت: لا أظن أنه يحق لك هذا السؤال، كما لا يحق لي أن أجيب، وإن كان الأمر يعنيك فلِمَ لا تسأليها؟ نحن راكبي الجمال سيدتي لا نتحدث عن نسائنا مع الآخرين، فامتقع وجهها واعتذرت عن تطفلها، تركتها وسرت في الممر متجهًا للعمليات فرأيت كريس التي قالت: أهلاً، أين كنت؟ لم أرك منذ حفل الأميرة سارة، قلت بلا مبالاة: أنا بخير شكرًا لك. فقالت وهي تنظر في عيني مباشرة وكأنما تهنئني برفقتي لسوزي بلا كلمات: ريشموند يريد مقابلتك

بعد العمليات في المكتب، حسنًا سأكون هناك في الخامسة.

كعادته، كان ريشموند يتطلع واقفًا لبيانات على الكومبيوتر أمامه، لمحني فنظر إلي: أهلاً عزت، كيف حالك؟ بخير، قالت كريس أنك ترغب في رؤيتي. نعم، أظن موعد سفرك اقترب، لقد قضيت معنا قرابة خمسة أشهر، حرصت خلالها أن تشاركنا كل شيء، وأظنك تآلفت بما يكفي مع الزملاء، وأرى أنك بذلت جهدًا رائعًا معنا، والآن أود أن أساعدك في أي شيء تريده فماذا تريد؟ فقط سمِّ الشيء الذي تريده؟ أجبت والدهشة تكاد تعقد لساني: ماذا في الأمر هل أنت مسافر؟ هل ستتركنا للعمل في مكان آخر؟ فأجاب مبتسمًا: أبدًا، فقط أريد أن أمنحك الوقت لتفكر فيما تريد وتبلغني به حتى أرتب الأمر، كما أن هناك أمرًا آخر أود سؤالك عنه، قلت مستفسرًا: ما هو؟ فقال: هل أنت مرتاح في إقامتك بريفير؟ يمكنني أن أدبر لك إقامة في المدينة الجامعية بأسعار معقولة، ما رأيك؟ شكرًا لاهتمامك، لكني مرتاح في إقامتي الحالية، وقد تدبرت أمر حضوري إلى هنا وإلى محطة البنزين بقدر معقول من السهولة.

صرنا نتواصل تليفونيًّا أنا وسوزي يوميًّا ونلتقي في مطعم المستشفى، وإن فاتنا اللقاء في العمل نتواعد حيث تقوم بتوصيلي، لينتهي الأمر بنا في منزلها أو في مقهى يطل على المحيط بالقرب من منزلي نتجاذب أطراف الحديث، أو نتسكع معًا في الأسواق، وذات يوم ونحن بمنزلها سألت: من عرفت غيري من النساء إذن؟ فاجأني السؤال فابتسمت قائلاً: ألم نتفق على عدم طرح الأسئلة أم تراكِ نسيتِ؟ فردت بخجل: لا داعٍ إن كان الأمر يضايقك؟ أبدًا،

لا بأس بذلك، أظن من حقك أن تعرفي، فقد تعرفت بإلزا ذات الأصول البولندية في دورة جراحة اليد، كنا أصدقاء لكنها سافرت للعمل في بنسلفانيا، كما أنني التقيت في محطة البنزين بجاكلين أستاذة برامج الكومبيوتر وصرنا أصدقاء، نتكلم معًا في كل شيء، دعتني لحفل زفاف ابنتها وهي نموذج رائع للشخصية الأمريكية، وحتى لا يفوتني شيء هناك صوفيا صاحبة البيت الذي أسكن فيه وزوجها روبرتو وهو عامل بناء متقاعد، نشأت بيننا مودة الجيران العادية، ويعتبرونني ابنًا لهم، لكن الأهم من هذا كله أنني معك في غنى عن أية امرأة أخرى فلا تشغلي بالك بما فات.

لم أقصد محاسبتك، ولا أن تحكي لي بالضبط ما كان بَينك وبينهن، فقط كنت أتساءل حتى أطمئن أنني لست الوحيدة، يهمني كثيرًا ألا تسئ فهم عاداتنا وثقافتنا، قلت: آه، هذا أمر مختلف، بالنسبة لثقافتكم وحضارتكم تأكدي أنها لم تصبني بصدمة حضارية، فالتقدم والمدنية كانا من الأمور المعروفة لديّ من الأفلام والكتب والأخبار، لكنني معجب حقًا بآليات العمل لديكم، فهي تقوم على الاجتهاد والدأب الدائمين في المهن والعلوم، وربما كان هذا سر تقدمكم، وما عدا ذلك فلا أعرف عنه الكثير، وما بيني وبينك علاقة إنسانية جميلة، ولا أظن أنه من المناسب الاستمرار في عملية استكشاف كل منا جذور ثقافة الآخر، يكفينا قليل من معرفة، مع فهم منطقي لدواعي الاختلاف، وسندرك أننا لسنا في حاجة للكثير من المعلومات، فقط ما يكفي للفهم.

لا أخفيك قولاً يا سوزي، لم أتصور أي انبهار بشخصيتي الغامضة كما ذكرت والدتك، ولا أتعامل مع أحد بصفتي ذلك القرصان النبيل الذي يتمتع بالشهامة والجرأة، كنسخة من ذلك البدوي الذي يركب

الجمال، وغيرها من الصور الفولكلورية والنموذج النمطي عنا، أنا لا أعاني صراعًا بين حقيقتي ورؤية الآخر لها، وما يثير اهتمامي هو العلاقة بيننا، المحك الحقيقي فيها يكمن في القدرة على الفهم - دون أن يفقد أي منا هويته أو يجبرعلى التخلي عن معتقداته - ما بيننا ليس مجرد مسافات تحسب بالكيلو متر أو بالأميال حتى يمكننا تجاوزها بوسيلة ما طائرة كانت أم سيارة ليكزس، ما بيننا تاريخ تحكمه أحداث وصراعات، كان فيه انسجام أحيانًا والكثير من الصدام!

بدأ العد التنازلي لعودتي، بعد أن اتخذت قراري النهائي بعدم البقاء، وصارت مثل هذه الحوارات فرصة لفتح آفاق التأمل لحصاد الرحلة، وبدأت الأيام تتآكل، وصار الباب السحري لفهم ما جرى أن أحفظ في السجلات كل شاردة وواردة حدثت حتى أُبقي على ذاكرة الأيام.

اتصل بي الهواري بعد طول انقطاع، ولامني على عدم اتصالي به طوال الفترة الماضية، اعتذرت له بما ورد بخاطري من أسباب واهية، فقال أن هناك حفلاً بمناسبة سفر أحد الزملاء، وأنه سيمر عليّ بعد صلاة الجمعة في نورث إيسترن حيث انضم إلينا أبو السعود، وذهبنا لمنزل أمريكي الطابع حيث وجدنا حوالي ثمانية مبعوثين يتضاحكون، كل منهم يتبادل حديثًا مع زميله، وعلى الفور انخرطنا في شهوة الأكل الجماعي للتخفيف من شعورنا بالغربة، في لهو تبارى فيه الجميع، ومع رشفات الشاي الساخن بدأ كل منهم يتأسى بطريقته على حال المبعوثين البائس.
بعث الهواري المرح بقوله: فاكرين زميلنا عبد الغني ابن جامعة

أسيوط، أتعلمون أنه ظل الستة أشهر التي قضاها هنا غير قادر على نطق كلمة إنجليزية واحدة بلكنة الأمريكان، ولا حتى بلكنة أهل بورتريكو، أتعلمون كيف كان يدور في الأسواق باحثًا عن الهدايا التي سيشتريها لأهله في الصعيد بأفضل الأسعار، فعلق أبو السعود وقال: صاحبنا لم يُضَحِّ ولو مرة واحدة بصلاة الفجر حاضر، كان يسهر الليل بطوله يقرأ القرآن حتى موعد الصلاة فيصلي وينام، لكنه ضحى بكل الفرص التي سنحت له لتعلم أسرار مناظير الجهاز الهضمي التي أتي ليتعلمها! شرع الهواري يذكرنا بنوادر عبد الغني في شراء هدايا تافهة من محلات الدولار الواحد بالعشرات، من عينة الديناصورات البلاستيك أو الأفيال المصنوعة من المطاط أو أدوات النجارة الصينية الصنع! وانقضى النهار عبثًا في عبث وضحكًا في ضحك، وعندما أقلني الهواري لوردية العمل بالمحطة، كان التعب قد حل بكل خلية في جسدي لأني لم أنم ليلتها، وفي الوقت ذاته ألحَّت عليّ الرغبة في مقابلة سوزي، لكني قررت أن يبدو الأمر طبيعيًا وأن نلتقي يوم الاثنين في المستشفى!

أبو السعود

عدت لأجد أبو السعود ينهي عشاءه، وبعد أن بدلت ثيابي جلسنا نشاهد نشرة الأخبار، وكان الخبر الرئيسي تغطية لمؤتمر مدريد للسلام، الروس والأمريكان والأمم المتحدة وإسرائيل مع دول المواجهة، فجأة بينما المذيع يتحدث عن أهمية المؤتمر قام أبو السعود وأغلق التليفزيون وبدا عليه الضيق الشديد، فسألته: ماذا بك؟ أجاب مستنكرًا: عاجباك المسرحية الهزلية دي؟ إنهم يعدون المنطقة بأسرها لتصبح غابة من النعاج تهيمن عليها إسرائيل، ثم قام وأعاد بعصبية فتح التلفزيون:

انظر، ها هم يبتسمون أمام الكاميرات وكأنهم صاروا شركاء في عملية سلام مزعومة، وما هي إلا سراب. حاولت تهدئته: هون عليك يا عم عبد الله، إيه الثورة دي يا راجل؟ ده أنا من يوم ما عرفتك ما شفتكش متنرفز من أي حاجة، وحتى لو كانت رؤيتك للمؤتمر في محلها، تفتكر نلوم مين على الوضع ده؟ رد مستنكرًا: نلوم مين؟ نلوم مين يعني إيه؟ هو أنت مش عارف؟ نلوم حكامنا طبعًا، همَّا إللي وصلونا للوضع ده!

أجبته: خليك حقاني يا راجل، أنا من يوم ما عرفتك ما سمعتش منك كلمة إنصاف واحدة ولو على سبيل المجاملة للمصريين، بلدك مش عاجباك ومش عاجبك فيها حاجة، وطول الوقت تلعن فيها

وفي ناسها، وكل إللي إنت شايفه فيها تخلف وخيانة وبعدهالك ياعم عبد الله! يا سيدي افرض إن المؤتمر فخ واتنصب لنا زي ما بتقول، طيب، ما هو قبل المؤتمر - لو كنت ناسي- اعترف العرب بإسرائيل كنوع من رد الجميل لأمريكا على تحرير الكويت، وقالوا ضروري يحصل تعايش، وبعدين إنت عايز إيه؟ ما إسرائيل تواضعت وقبلت بمبدأ التفاوض، قول لي مين اللي دبَّر للعراق فخ غزو الكويت؟ مين اللي سقى أخوك صدام حاجة صفرا عشان يعمل عملته الهباب دي؟ ومين إللي دبَّر لنا فخ الهجرة لأمريكا وأوروبا عشان نتمرغ في ترابها، ونحقق إنجازات علمية لمراكزها ومعاهدها، وبعدين نشتم بلادنا ونلعنها، قول لي مين؟ واصلت والحنق يملؤني:

إحنا سايبين بلادنا وبنتفرج عليها بتتدبح وإحنا بنمصمص شفايفنا، بصراحة يا مولانا الحكاية زادت عن حدّها، إنت والمهاجرين إللي زي حضرتك هنا وفي أوروبا عايشين أحلى عيشة، ونازلين تجريس فينا، وتريقة على أحوالنا، وإتهامات لنا بالجملة، كفاياكم، خليكوا في النعيم إللي إنتوا فيه، حلال عليكم يا عم، بس سايق عليك النبي سيبونا في حالنا، وأنا كلها شهر ولا اتنين وأسافر، لكن خليك فاكر إذا كان فيه حد مسئول عن إللي بيجرى لنا، نبقى كلنا شُركا يا حلو، أنا وإنت، كل واحد مننا كان له دور في خرابها وهوانها، إللي جوه البلد واللي براها!

بلع ريقه بصعوبة، وشرب كوبًا من الماء، وجاوب عليّ بجرأة يحسد عليها وكانت أول مرة يكلمني فيها بهذه الطريقة: أنا عارف إنك شيوعي وعلماني كمان، وعارف إنك ضد الحياة في أمريكا لأنك مش حتقدر تحقق فيها إنجاز، مش ده برضه إللي خلاك لغيت

فكرة إن مراتك تيجي وتولِد هنا؟ ضحكت بسخرية والتفت له قائلاً بمرارة:

أيوه كده يا عم عبدالله، طلع إللي جواك، ما تقلقش أنا متعود على كده، لكن قول لي تعرف إيه إنت عن الشيوعية؟ وإيه هي العلّمانية؟ طبعاً إنت بتقولها على سبيل الشتيمة، وماله يا عم ما أنا طبعًا مش حأعرف أدافع عن نفسي، يعني حأقول إيه يا ولداه! بيتهيألي إنك اتكسفت تقول إني كافر واكتفيت بحكاية يساري وعلماني تأدبًا، مش كده برضه؟ أيوه علماني وكافر كمان، كافر بادعاءاتكم أيها العلماء النابهين، انجح إنت ياعم عبد الله وخد أعلى المناصب وخد نوبل لو تقدر، واتطهر من ذنوبك وخطيئة هروبك من بلدك، إجلدنا وإلعنّا كلنا، إحنا الناس الفاشلة إللي مش عارفين يحققوا أي إنجاز! عمومًا أنا مسامحك في إللي يخصني، لكن مش مسامح أي واحد منكم على جريمته في حق بلده.

ابتسم في بلاهة ودخل غرفته صامتًا لينام، واتصلت بفردوس لأسألها عن أحوالها وأجدد وعدي لها أن أكون إلى جوارها في أقرب وقت، وأن نمضي في طريقنا ولو تحت حدّ الفقر موقنًا من حقيقة واحدة أن غاية ما أتمناه أن أكون على مقربة من النيل، مشتاقًا للمعاناة والتعب على ترابها، سأعلم ابنتنا سارة أن تعيش بلا خوف، الخوف عدونا اللدود! توجست فردوس من كلامي وسألتني:

مالك؟ فيه إيه؟ في مشكلة حصلت ولاّ إيه طمني؟ قلت محاولاً السيطرة على مشاعري: ما فيش أي مشاكل اطمني كله تمام، بس حاسس كأني خارج من حادثة وبأحسس على كل حتة في جسمي عشان أتأكد إني سليم، والحمد لله دلوقت بس عرفت إني سليم،

وكل حاجة في مكانها، دلوقت بس حاسس بثقتي في قراري ومطمئن له، إني أرجع وأكون في مصر، مش في أي مكان في الدنيا مهما حصل.

صارت الأيام تجري وكأنها مُطاردة، أو لعلي كنت المطارد بالأشواق واللهفة للعودة، ثم ذات نهار بينما كنت أتنقل بين العيادة واستراحة الأطباء، وبعد التقاط بعض الصور التذكارية مع الزملاء، سألني زميلي الأمريكي "كريمشاك" سؤالاً مريبًا: قل لي هل تحب رئيسكم مبارك؟ جالت عيناي بالواقفين حولنا يترقبون كيف أجيب على السؤال الذي تقتق ذهنه عنه، ولسان حالي يلعن حرب الخليج والجنود العائدين منتفخين في حللهم المزركشة، وفيونكات التأييد الصفراء المعلقة كخيالات المآتة على الأبواب تمر أمام عيني، وها هو كريمشاك اليهودي الأبيض، الغارق في نعيم قانون مندل، يسألني ببراءة: أتحب رئيسك؟

أجبته: أنا أحترمه، فهو رمز كل المصريين، وهو مخلص في أدائه كتكنوقراط، وإن كانت مشاكلنا تحتاج إلى سياسي مبدع يملك ولو قليلاً من روح ثورية، لكن ما رأيك أنت؟ أليس هذا هو حالكم مع الرئيس بوش؟ أليس من التكنوقراط هو الآخر؟ ألا تظن أنكم في حاجة لمن هو أكثر من مجرد رجل دولة مخضرم لحل مشاكلكم؟ كاد أن يعاجلني بسؤال آخر لولا تدخل ريشموند معلقًا: ألا يكفيك ما سمعت؟ أظن أن هذا الحديث انتهى، وأضاف: إسمعوا، سيعود عزت لبلاده قريبًا، وأنا أدعوكم للغداء على شرفه، علينا أن نؤكد له أنه كان مصدرًا لسعادتنا أن يمكث بيننا طوال هذه المدة.

هلل بيير، وصفق كريمشاك، واستأذنت مارجريت في أن تبدل

ثيابها على أن تلحق بنا في المطعم الياباني القريب من مكتب البريد، دارت عيناي تبحثان عن سوزي فلم أجدها، وعزيت نفسي باحتفاء الزملاء بي خاصة ريشموند، وفي تمام الواحدة كنا قد شارفنا أنا وريشموند وكريس على دخول المطعم، فوجدنا أن مارجريت ومعها سوزي قد سبقننا وجلسن في انتظارنا، ثم توافد الزملاء، وقامت كريس بسؤال كل واحد عما يريده من قائمة الطعام، ثم أصدرت تعليماتها للنادل، واقترح ريشموند أن يشرب الجميع نخبي قائلاً: تحية لمصر وذكرى وجود عزت بيننا، والحب الذى حظى به من الزملاء والعاملين، ثم توجه بالحديث إليّ: صدقني لقد ارتجلت الكلمات، لكنني أريد التأكيد أنك بالفعل ابن بلد عظيم، وكان أداؤك وسلوكك نموذجًا، فلنشرب جميعًا نخب صديقنا. دمعت عيناي بالفرح، وأسقط ريشموند بكلماته تعب الأيام، تضاحكنا وتبادلنا أحاديثًا ودية ملؤها البهجة تمتزج ببوادر الفراق، انقضت أكثر من ساعة بسرعة البرق، واختتم ريشموند الاحتفالية بإهدائي كتابًا مصورًا عن بوسطن قائلاً فيما كتبه في الإهداء: هذه مدينتنا التي عشت فيها، قل لهم هنا كنت أعيش، وهنا كان لي أصدقاء.

أقلتني سوزي ومارجريت، ودار بيننا حديث ضاحك ثم التفتت سوزي إليّ لتسأل: إذن متى تسافر؟ كان السؤال مباغتًا وواجبًا في الوقت ذاته، فقلت: بقى لي قرابة شهر ونصف ولي فترة سماح في الإقامة حتى نهاية العام، لكن يبدو أنني أنجزت المهمة التي حضرت من أجلها، لم يعد هناك مبرر للبقاء، عليّ فقط شراء بعض الهدايا، وزيارة نيويورك، وما بقي لي في مدينتكم سأقضيه في التسكع. فردت مبتسمة: حسنًا، إذن أمامنا ما يكفي من وقت!

وعندما وصلنا لمحطة المترو ودعتهم فقالت: سأنتظر تليفونك بمجرد وصولك البيت.

حين عدت كان عبد الله يعد نفسه لحضور حفل تأبين قريب من أقارب صاحبة البيت، ودعاني للذهاب معه قائلاً: سيكون جميلاً أن تشاركهم أحزانهم كما شاركتهم أفراحهم يوم زفاف ابنهم، فاعتذرت له قائلاً: حرام عليك يا عم عبدالله، لقد بدأت رحلتي هنا مع الموتى، من قتلى عاصفة الصحراء إلى الموتى في مشرحة الكلية، كفاية عليّ جرعة الموت إللي خدتها لحد دلوقت، إعفيني من أن اختم الرحلة بتذكر الموت، أنا أحمل من الأحزان ما يكفيني، لكن بلغهم مواساتي، مع السلامة أنت.

خرج تاركًا المنزل غارقًا في الظلمة المطبقة على روحي، لا ينفذ إليها إلا ضوء بارد للقمر، وبقعة ضوء فاترة تنبعث من المصباح الوحيد في غرفتي، بت أقرب ما أكون للعودة، ولا شك أن الغداء في المطعم الياباني كان بروفة وداع ناجحة، قمت لأتصل بسوزي علنا نجد ختامًا مناسبًا لعلاقتنا فأتاني صوتها مثقلاً بنبرة حزن، فسألتها:

لم هذه النبرة الحزينة؟ أظن المسألة لم تكن مفاجأة، سألتيني عن موعد الرحيل وكنت تعرفينه سلفًا، فردت بمرارة مغلفة باستسلام للأمر الواقع: معرفتي لا تقلل من شعوري بالخوف، سأفتقدك كثيرًا، بصراحة لا أعرف إن كان ممكنًا ملء فراغ غيابك؟ قلت بتوتر واضح: أرجوك يا سوزي لا تجعلي الأمر دراميًا أكثر مما هو عليه، ألم نتفق من البداية؟ ألم تقولي أن كل ما تطمحين إليه هو صداقتي؟ حسنًا، ها قد صرنا أصدقاء، غالبت هي الأخرى

مشاعرها وسألت: دعك من هذا، لننسى حكاية سفرك، متى أراك؟ فأجبت على الفور: وقت تشائين. إذن نلتقي مساء الجمعة، وليتك تبدل وردية السبت في المحطة أرغب أن نقضي العطلة بأكملها معًا، قلت محاولاً إضفاء شيئًا من المرح على حديثنا: لك ما طلبت.

في اليوم التالي رأيتها على باب غرفة العمليات، قبلتها على وجنتيها بجرأة لم تعهدها في مكان العمل وقلت: أرجوك لا تزيدي جمالك عن هذا الحد وإلا سأعدل عن قرار العودة، تورد وجهها خجلاً وقالت: بل سأحاول أن أبدو أكثر جمالاً لأثبت لك كم أنت كاذب بارع، فقلت ضاحكًا: ومن قال غير ذلك؟ تركتها لألحق بالزملاء في غرفة العمليات واضعًا قناعًا لا يكشف إلا عيناي وغمزت لها قائلاً: عفوًا أمامي عمل عليّ أن أتمه، إلى اللقاء.

عندما انتهى عمل الجمعة انتظرتها كالعادة عند موقف السيارات، التقطتني بسيارتها وهي في بدلة العمليات الخضراء والبالطو الأبيض، قبلتني قبلة عابرة وانطلقت إلى منزلي في ريفير بناء على طلبي، وبمجرد دخولنا البيت استأذنتها في أخذ حمام سريع، وعندما خرجت وجدتها بصحبة عبد الله وهو يعد لها القهوة، وعاجلني: لم تقل لي أن لك صديقة من المستشفى، وهي نفسها تعجبت أنك لم تذكر لي شيئًا عنها، قلت بهدوء: دعني أولاً أبدل ثيابي سأعود بعد دقائق، فقالت تنبهني: لا تنسَ بالطو المطر، يقولون ستمطر غدًا. عندها انبرى عبدالله ليقول: وكمان ستبيت عندها، حسنًا، لو كنت مكانك لما تركت صديقة بجمالها لأبيت مع أي صديق كان!

عدت للصالة مرتديًا ثيابي وقلت: اسمع يا عبد الله لا داعي للوم

نحن لا نلتقي إلا صدفة، تعود من جامعتك في المساء لتدخل غرفتك تقرأ أو تعد بحثًا، بينما أدخل أنا غرفتي لأقرأ أو أشاهد التليفزيون وحيدًا، وأنت لم تهتم أصلاً بسؤالي إن كان لي أصدقاء أم لا، أجاب والدهشة لم تفارقه: أنا لا أقصد شيئًا، لكن في الحقيقة لم أتوقع أن تتمكن في هذه الفترة القصيرة من تكوين صداقات، وكانت سوزي تتابع حوارنا في صمت ثم ودعناه وخرجنا.

بمجرد أن انطلقنا بالسيارة سألتني: لم كنت جافًا معه هكذا، لقد كان لطيفًا معي، فقلت متعجبًا: وهل يمكنه ألا يكون لطيفًا؟ أنت ضيفتي، وأنا أؤدي واجبي معه كشريك سكن، لكنه كان حريصًا على وحدته وعزلته منذ البداية، وكثيرًا ما بادرني بآراء مستفزة، وكلما تحاورنا لا نكاد نتفق على شيء، طبعًا هو حر في آرائه لكنه قليل الود تجاهي ويزعجه رأيي في معظم الأمور، الحقيقة دائمًا مزعجة ولا أحد يريد سماعها، ناهيك عن مواجهتها. فسألت متنمرة: وهل تعرف أنت الحقيقة؟ سوزي كفاك أسئلة، أنا مرهق وذهني مشتت أصلاً، ولا مكان فيه لا لحقيقة ولا أوهام، قالت بشيء من الجد وكثير من عتاب: ها أنت تهرب كعادتك عندما لا تجد إجابة على أسئلتي. أنا لا أهرب، لكن ما دمت مصّرة، الحقيقة في رأيي ما قاله شاعر مصري كبير: "أمعيري بالوهم، لا وهم هناك ولا حقيقة !" وأنا لا أملك الحقيقة، لكن ما أتحدث عنه بديهيات يصعب الخلاف حولها، تصوري مثلاً عندما دار بيننا حوار حول مسألة عودتي أو بقائي، كنا كأننا قد دخلنا حقلاً للألغام، فالقضية بالنسبة له ولغيره من المهاجرين قضية شائكة، وهو دائم اللوم لبلده ولأهل بلده، بل ويلوم الدنيا كلها على حاله! ما لا تعرفيه عزيزتي أن من يعيش

في بلادنا يلعنها ويلعن ظروفها، ومن يتركها مثل أبو السعود يدينها ولا يرضى عنها أبدًا، وصرت لا أدري من منا يمكنه يومًا أن يمدحها ولو لمرة واحدة، من منا يفعل لها ولو شيئًا واحدًا ينفعها بدلاً من أن يهيل عليها التراب طوال الوقت.

حسنًا، أظنني فهمت الآن سر الجفاء بينكما، ها قد وصلنا فهل تسمح لي أن أستحم وأبدل ثيابي مثلك؟ استمع لما شئت من موسيقى واشرب ما تريد من الثلاجة، درت في المكان أبحث في الفراغ من حولي عن مجهول يراوغني ويكاد يطبق علي لكنني لا أستطيع تحديده! خرجت سوزي من حجرتها في ملابس سهرة رائعة فقلت: تتألقين دائمًا، وأبدو أمامك رجلاً بائسًا لا أمل له في لفت الانتباه. فقالت: لا داعٍ لهذا الكلام في هذا اليوم بالذات. فسألت: وما الذي يميز هذا اليوم؟ فقالت وفي عينيها ابتسامة محببة: نحن مدعوون اليوم على العشاء عند أمي وزوجها، بقيت لنا بالضبط 40 دقيقة للوصول في الموعد! كيف هذا؟ لم تذكري لي شيئًا عن هذه الدعوة، كان عليّ أن أجهز نفسي، على الأقل كنت اشتريت هدية مناسبة. فردت: لا عليك، يمكنك شراء ما تريد في الطريق، عمومًا أنا أحضرت زجاجة نبيذ فاخرة، عذرًا أردت أن تكون مفاجأة لك وأرجو ألا تكون مزعجة. أجبت: لا، أبدًا.

اشتريت مزهرية بسيطة، واشترت هي صحبة صغيرة من الزهور مع زجاجة النبيذ، ووقفنا على باب البيت نحمل هدايانا. فتحت لنا الباب الخارجي سيدة في أواخر الأربعينيات بكامل حيويتها، ترتدي زيًا رياضيًا وتعلو وجهها ابتسامة ساحرة، وبعد التقديم

الواجب جلسنا في حجرة الجلوس حيث حضر زوجها، رجل في الخمسين من عمره تقريبًا، شعره الكستنائي مهوش، وله ذقن على هيئة فناني عصر النهضة وبادرني قائلاً: إذن أنت من مصر. توجست قليلاً وأجبت: نعم سيد إيريك أنا من مصر، وأنت من أين يا ترى؟ فقال متعجبًا: من هنا طبعًا، فعاجلته: أعرف، ولكن أين كنت قبل أن تستقر هنا؟ بدت عليه الحيرة وقال: لا أفهم ماذا تقصد أنا ظللت في منزل العائلة حتى أتممت دراستي الثانوية في ولاية يوتا، ثم التحقت بمعهد الفنون بجامعة شيكاغو، وأخيرًا استقر بي المقام هنا في بوسطن من عشرين عامًا تقريبًا.

لم أقصد جذورك الأمريكية، لكني أعني ما قبل ذلك - كانت سوزي قد لحقت بأمها لتساعدها في إعداد العشاء- ألست من عائلة مهاجرة من أحد بلاد أوروبا مثلاً؟ قال: آه نعم، جدي الأكبر من أيرلندا هاجر إلى هنا منذ حوالي مائة عام كما ذكر لي أبي، أما أنا فقد ولدت في يوتا بقرية صغيرة ورث أبي مزرعة كبيرة فيها، وما يزال يرعاها مع أمي وأخي الأصغر، وبعد إتمام دراستي في شيكاغو زرت الكثير من مدن أوروبا، وإن ظلت روما الأقرب لقلبي ولي فيها ذكريات وأصدقاء قضيت معهم أيامًا لا تنسى.

فاجأته: إذن، كيف تعرفت على السيدة لورا فهي من فرجينيا حسب ما قالته سوزي؟ وعندما بادر بالإجابة وقد صار الحديث وديًا كانت لورا قد انتهت من إعداد العشاء وبدلت ثيابها الرياضية بثوب يبرز مدى جمالها دون ابتذال، فعلقت بمجرد ظهورها:

إن لك زوجة رائعة، ابتسمت وشكرتني على المجاملة، فأكملت وصلة الإعجاب والتقدير: لا ليس في الأمر مجاملة أنت تفوقين في أناقتك كثيرات من السيدات الأمريكيات، الآن فقط عرفت سر جمال سوزي، وعليّ أن أعيد حساباتي حول الجمال الأمريكي. فسألت

بذكاء: حسنًا، وماذا كانت حساباتك تقول؟ بدأت في السيطرة على مجريات الحديث الذي لم أعد نفسي له تمامًا: اعذريني، لقد تمتع جيلنا بجمال ريتا هيوارث، وإليزابث تايلور، وآفا جاردنر، وغيرهن من جميلات هوليود، وعندما جئت إلى هنا وعشت مع الناس العاديين اكتشفت أن البدينات أكثر بكثير من الرشيقات وأن الجمال استثناء، ربما ما لم يتغير عما تصورته عنكم وعن حياتكم هو ما قرأناه من أعمال آرثر ميللر وهيمنجواي وتي إس إليوت، أما الجمال فقد عادت ثقتي به بعد لقائي بسوزي وبك سيدتي وإلا لكنت عدت لبلدي محبطًا. ثم توجه إيريك بالحديث إلى لورا قائلاً:

أتعرفين ما الذي كان يسألني عنه قبل أن تدخلا ؟ يريد أن يعرف كيف التقيت بك؟ اعتدلت في جلستها وتبادلت نظرة ذات مغزى مع سوزي، ثم تلقفت كأسًا من إيريك وقامت لتقدمه لي بنفسها وهي تتفحصني بإمعان قائلة: التقينا في معرض فني لي هنا وتوطدت علاقتنا من ساعتها، ودعاني لمشاركته الأستوديو الخاص به، عشنا معًا ثلاث سنوات وتزوجنا مؤخرًا.

قلت: أتعلمين أن هذا تقريبًا ما حدث معي أنا وسوزي باستثناء أنني من مصر، تعارفنا كزملاء ثم توطدت علاقتنا كأصدقاء، وأنا أشعر بالراحة في وجودها وأستمتع بكل لحظة نقضيها معًا، لكن إقامتي هنا أوشكت على الانتهاء، وأظن أن ما جمعنا فهم بسيط لما نتشارك فيه بعيدًا عن الأحكام المسبقة والبحث فيما نختلف فيه، ولا أظن أن هناك ما يمنع مثل هذه الصداقة. أجابت بتعقل شديد: من قال أن هناك مانعًا؟ والدليل أنك معنا الآن لنبارك صداقتكم. فقلت: بالطبع، كانت دعوة كريمة منكم، أنا أعرف مدى انشغالكم.

واصلت السيدة المضيفة بلباقة تحسب لها: حقًا، نحن لا نجد

كثيرًا من الوقت للعلاقات الاجتماعية، وإن كان هذا لا يمنع أن نخطط مثلاً لقضاء أحد أعياد الميلاد لديكم في مصر، قرأت عن حضارتكم العظيمة وأشتاق لمشاهدة آثاركم، والآن دعنا نتناول العشاء. توليت زمام الحوار بحذر من يخشى مواجهات لا داعٍ لها، وسيطرت على دفة الحديث حتى لا تفلت إلى أمور شائكة، وعرضت عليّ لورا بعضًا من أعمالها الفنية هي وإيريك وبدا أنها فوجئت بدرايتي ببعض أسرار الفن، وقالت: عزيزي، أنا سعيدة حقًّا بالتعرف عليك، وأعترف لك بأنك شخص ودود واثق بنفسه، وتعرف كيف تدير حديثًا شيقًا، وإن كانت لي تحفظات على علاقتك بسوزي فهي بسبب حرصي عليها، أنا أعرف كم هي حساسة ورومانسية.

جاء تحفظها في محله فقلت: حقًّا هي رومانسية ولديها مشاعر طيبة تجاه جميع زملائها، والكل يقدرها في العمل، أما حكاية التحفظات فأنا لا ألومك عليها، فها أنت عندما تفكرين في زيارة مصر تذكرين الآثار وتقصدين بالطبع الأهرام وأبو الهول، أما مصر الحقيقية وأهلها فحكاية ثانية، بالطبع نحن فخورون بحضارة جدودنا، لكن مصر فيها ما هو أكثر من مجرد أحجار ومعابد أثرية. ردت بثقة: بالطبع، ولا بد أن أقرأ عنها المزيد قبل زيارتها. فانبريت أدعوها للزيارة: لا عليك، لا تكلفي نفسك عناء القراءة، مصر عالم لا يكتشف بالقراءة إنما بالمعايشة، فإن قررت الحضور ما عليك سوى إبلاغي واتركي لي أمر اكتشافها.

ركبنا السيارة والنشوة تفيض من عيني سوزي فملت عليها هامسًا: حسنًا، ما سر هذه البهجة؟ قالت متعجبة: ألا تدري؟ ألا ترى مغزى ما حدث؟ سألت ببلاهة: ماذا حدث عزيزتي؟ مرت

الليلة بسلام أليس كذلك؟ فقالت: طبعًا، لكن الأهم أن أمي أثنت عليك كثيرًا حتى إيريك نفسه معجب بشخصيتك، لقد اعترفا تقريبًا بنفس الكلمات أنك شخص ذكي ومثقف وأنني أحسنت الاختيار بصداقتي لك، وقلت: شكرًا لهم إذن، ولكن ما الفائدة؟ ما دمنا لا نستطيع كسب تقدير العالم لنا، نحن في حاجة إلى الكثير حتى نكون في موقعنا الطبيعي من هذا العالم!

كنا قد وصلنا، تصحبنا الموسيقى في غرفة الجلوس وقالت: ألا تأخذ هدنة أبدًا؟ أنت تأخذ الأمور بجدية مبالغ فيها، ألا تنسى بلدك ولو مؤقتًا؟ ألا يسعدك مثلاً احترام الجميع في المستشفى لك، وأنهم يعتبرونك واحدًا منهم، حتى ريشموند نفسه يعاملك كصديق ويرى فيك نموذجًا في الالتزام والمثابرة، وزملاؤك في المحطة اختاروك العامل المثالي على مستوى الولاية، ألا يكفيك بقائي معك رغم علمي بأن لك زوجة تحبها وأميرة صغيرة تنتظرك، ورغم هذا لم أقاوم شعوري بالحب تجاهك، حتى مارجريت نفسها التي لا تقبل بأقل من الكمال فينا، تشير إليك كلما أقبلت علينا وتهمس لي: هنيئًا لك به! ماذا أقول؟ كان عليك أن تفرح لإعجاب أمي بك وكفى.

معك كل الحق أنا أبالغ، كان يجب أن أكون سعيدًا بإعجابهم بي، وأنا بالفعل كذلك، وأعتبر نفسي محظوظًا بك، ولن يقلل أي واقع من حلاوة علاقتنا. ها أنت عدت للمراوغة. قلت: لا، ليس في الأمر أية مراوغة، أقسم لك هذا كلام من القلب، لنجعل من ليلتنا ليلة للفرح، وسأبدأ باعتراف واجب، أنت تكتبين صفحة ناصعة في كتاب التسامح بين عالمي وعالمك، كانت من قبل بيضاء فارغة، وبدون احتفاء أهلك والزملاء بوجودي بينكم لما أدركت أنكم تملكون القدرة - التي ظننت أنكم تفتقدونها - على رؤية الإنسان

على حقيقته، بسيطًا يحلم كغيره بالسعادة في وطن يحقق له وجودًا أفضل.

كم هو جميل أن تتحدث بشكل إيجابي، ربما كان ضروريًّا أن أضيف أنني أشعر تجاهك بمشاعر جميلة، أنت مؤهل لأن تكون ذلك الإنسان البسيط الذي يحلم ولا يتخلى عن حلمه، ويسعى لاستيعاب ما يجري حوله ولا يصاب بداء النسيان، أنت معي بقلبك وعقلك وجسدك، أو على الأقل هذا ما يبدو، لكنك فعليًّا هناك في حضن امرأتك، وأكاد أراك في خيالي تحنو على ابنتك وتهدهدها، لا تبالي بأي عناء تواجهه من أجل صنع مستقبل لها، أنت تستطيع بشهادة الجميع هنا أن تحقق الحلم الأمريكي، لكنك تؤثر أن تبقى في بلدك وتنجح في عملك فيه، لا تريد أن تزرع إلا في أرضك، أما أنا فسأبقى بعد رحيلك لأتذكر كم كنت صادقًا معي، ستمدني ذكراك باليقين في حقي أن أحلم وأن أمضي في طريقي الذي أختاره، أنا مؤمنة أكثر من أي وقت مضى بأنني كنت على حق حين قلت لنفسي: لا بأس إن كان سيبقى أم يرحل، ربما أحبني وأحببته، وهذا يكفي، يقينًا نحن في حاجة للحب، وتبادلنا أنخاب النشوة، وابتهجنا بما نملك من محبة خالصة.

تقابلت مع أبو صالح المصري، ومنحني شهادة بفترة التدريب التي قضيتها وهو يقول: سنلتقي، عليك أن تتم ما بدأته هنا، أتمنى لك التوفيق، واعلم أن لك صديقًا هنا يمكنك الإعتماد عليه، وفعل ريشموند والآخرون الشيء نفسه وقالوا كلامًا شبيهًا، حتى أبو السعود منحني بركته هو الآخر، وقضيت ما تبقى لي من أيام في بوسطن أتسكع هنا وهناك، ذهبت تقريبًا إلى كل مكان

وطئته قدماي من قبل، واشتريت ما يمكنني من طلب الصفح من أميرتي الصغيرة لأنني لم أكن موجودًا لحظة خروجها للدنيا، وما يحمل فردوس على نسيان ما احتملته من أجل أن تمنحني حقي في الحلم، وذات يوم وأنا اشتري بعض أدوات التجميل لها من أحد المتاجر الكبرى اقتربت من سيدة زنجية أسألها عن الطريقة المثلى لأعرف المقاس المناسب لزوجتي حين أشتري الملابس؟

تفحصتني في هدوء وتأملت ملامحي، ثم دلتني على أسهل طريقة لمعرفة المقاس، وسارت معي في أقسام المتجر وكأنها حضرت لتشتري لي ما أريد، واخترنا معًا ما كنت أرغب في شرائه، ثم قالت: إذن أنت من مصر؟ قلت: نعم. فقالت ما لم يخطر لي على بال:

إذن نحن أقارب وبيننا صلة دم. لم أفهم: حقًّا، وكيف ذلك؟ فقالت صاحبتنا السمراء ممشوقة القوام ذات الأنف الأفطس والشفاه الغليظة بصوت أبنوسي رقيق: ألا تدري أن جذورنا تعود - قبل أن يجلبوا جدودنا للعمل في مزارع القطن هنا- إلى إفريقيا قارتنا حيث كنا نبني الأهرام مع جدودك، ألا تعرف ذلك؟ وواصلت تأكيدها لقرابتي قائلة: نحن ننتمي لجماعة من الأمريكيين الأفارقة نقيم مخيمات نربي فيها الأبناء حتى لا ينسوا جذورهم، نعلمهم تاريخنا الذي يمتد حتى تاريخ مصر القديمة حين كنا نعمل لدى الفراعنة، ونذهب لمصر سنويًّا للاحتفال بذكرى جدودنا عند سفح الهرم الأكبر في موعد محدد، ونمارس طقوسًا نصل بها ما انقطع من تاريخنا، ثم أضافت بذات الجرأة وذات الثقة: ربما أمكنك، إن كانت لك صلات بالمؤسسات الثقافية التي تهتم بالتاريخ الفرعوني، أن تفتح لنا بوابة للتعاون في توثيق تاريخنا المشترك،

وأعطتني كارتًا يحمل إسمها وعنوان مؤسسة الأمريكيين الأفارقة أبناء الفراعنة!

تركتها تجتر ذكريات تاريخها المزعوم وتعدد لي دلائل صلتها بنا، متأملاً ما تقول بأقصى ما أملك من هدوء وصبر، ثم سألتها: وما هي حكاية تلك المخيمات بالضبط؟ فشرحت، لنا الآن مخيمات دائمة في ستة ولايات، ندرس للأبناء فيها تاريخ الفراعنة، ونقوم بتعريفهم بحقيقة جذورهم، ونمحو من ذاكرتهم تاريخ العبودية، ونوضح لهم أن جدودهم ينتمون لقبائل عريقة في بلادهم الأصلية، كما ننظم رحلات لبلادنا الأصلية ليتعرفوا على عادات وتاريخ هذه القبائل، ونقدم للباحثين الأثريين نماذج من معابد ومدافن فرعونية في بلادنا ليوثقوا صلتنا بالجدود.

تأملتها ضاحكًا وقلت: حسنًا، وهل يمكنك أيضًا أن تثبتي لنا - نحن المصريين- بعد هذا التاريخ الطويل على ضفاف النيل إن كنا أحفاد الفراعنة أم لا؟ اسمحي لي أولاً أن أوضح أن حضارتنا ملك للإنسانية كلها، ثانيًا لم يعد من حق أحد الادعاء بأنه ابنها أو حفيدها هكذا ببساطة، في رأيي إن كان هناك انتماء فهو انتماؤنا لنهر النيل في الأساس، نحن أبناء هذا النهر وهذا يكفي، فهو لم يكن مجرد نهر يمدنا بماء الحياة، إنما هو جزء أصيل من نسيج الشخصية المصرية، ونحن لا نزال هناك حيث كنا من آلاف السنين، والأهم أننا سنبقى هناك حيث "حابي" سر الحياة وأنشودة العطاء الأبدي، وسيظل انتماؤنا الأكيد للنهر، الذي منحنا نعمة الروح الخالدة.

انتهى الحديث معها بوعد زائف مني أن أساعدها في التواصل مع المؤسسات الثقافية في مصر ونفسي تحدثني: هي المؤسسات حتلاحق على إيه ولا إيه؟ هي ناقصة! وبمجرد أن غابت عن ناظري، انحرفت جهة الحديقة العامة وانتحيت جانبًا على العشب متأملاً صفاء السماء مع قليل من غيوم بين لحظة وأخرى، وألقيت نظرة وداع واجبة على البحيرة حتى حضر أبو السعود كما وعد حيث التقط لي بعض الصور ثم دعاني للغداء في مطعم لبناني، وخرجنا لنجلس في قلب شارع واشنطن، من أمامنا أفواج الحمام الطليق في رحلة العودة بعد الطواف، بينما الجالسون يلقون إليه بحبات الذرة، ثم عبرت بنا قافلة من أهل التاميل حليقي الرؤوس بأروابهم البيضاء والحمراء وسحنتهم الآسيوية بغموضها وحيادها المحير، قلت معلقًا: ها هي أمريكا تودعني وقد كشفت لي عن كثير من أسرارها، ها هي ترسل لي رموزًا من كل صنف - كنا لحظتها نمر قبالة المحفل الماسوني في وسط المدينة العتيقة- أتعرف؟ لم يبق لي الآن إلا زيارة التفاحة الكبيرة (نيويورك) لألقي نظرة وداع على تمثال الحرية، وأسجل كلمة في دفتر بروتوكول الحالمين بالأرض الموعودة.

انقضت أيامي الأخيرة في بوسطن بسرعة خاطفة، كل يوم يحفل بزيارة لإلقاء تحية وداع على مكان من الأمكنة التي ألفتها، أو تلك التي كان لي فيها ذكرى عابرة، وفرح مازن باتصالي به قبل سفري وأصر على دعوتي للعشاء، وبعد أن تجولنا في وسط المدينة قال: لم تسعفنا الأيام لنتحدث عما كان علينا أن نتحدث فيه، ولم أوفيك حق الضيافة العربية، فأنت واحد من قلائل تمكنوا من اقتحام عزلتي بمودة وفهم، بلغ سلامي لأهل مصر ولنهرها

العظيم، وشربنا نخب المودة والصداقة حتى اقترب الفراق فقلت:
أستاذي العزيز، لا تطل حزنك على ما جرى، فالتاريخ لا يموت، والشعوب لا تموت بل تحيا وتبقى بقدر ما تهب الدنيا من علم ومعرفة ومحبة، وأهل الرافدين عشاق للحياة، وحضارتهم الباقية كفيلة بعودة الروح للعراق. انطلقت متأملاً المشاعر التي فاضت، والأحزان التي نسعى لتجاوزها، وصرت أكثر تأهبًا لمواجهة مصيري.

احترت كيف أودع سوزي وعندما التقينا قلت لها: لا داعٍ لكلمات وداع جوفاء، لكني حقًا تمتعت بكل لحظة قضيناها معًا، وستظل محفورة في ذاكرتي، أرجو إبلاغ أمك وزوجها شكري وامتناني لهم على حفاوتهم، ثم منحتها تمثالاً فرعونيًا للملكة نفرتيتي، وإطارًا وضعت فيها صورتنا معًا في منزلها، باركتني بقبلاتها داعية لي بالتوفيق، وذكرتني أن بيننا وعدًا باللقاء يومًا ما تحت سفح الأهرام.

ثم، أثناء الوداع القصير لجارتي الطيبة قام زوجها من على كرسيه الذي لا يفارقه في بهو منزله واصطحبني حتى الباب قائلاً: لديك هنا عائلة، إن رغبت يومًا في العودة لا تتردد في الاتصال بنا، صعدت لحمل حقائبي، ووقفت أمام المنزل في انتظار ابن خالتي عادل ليقلني للمطار، وكنت قد ودعت أبو السعود في المساء، وسددت له كل ما عليّ من التزامات، ومع إغلاقي باب المنزل الخارجي أنهى جاري روبرتو وداعه قائلاً: ليكن النجاح حليفًا لك، ولتبعث برسالة حب لكل المصريين، وكنت قد أهديته دون غيره تمثالاً من الرخام لإخناتون وضعه على الفور على رأس المدفأة،

وتأمله قبل أن يقول: لن ننساك.

طالت وقفتي في انتظار عادل، وبدأ القلق يجتاحني، حتى ظهر عادل في سيارته يلوح لي وأوقف سيارته، ونقلت الحقائب لسيارة عادل، وانطلقنا، وقبل الوصول لمدخل الطريق السريع باتجاه المطار صرخت:

الشنطة، فلوسي كلها وجواز السفر والتذكرة، لف وارجع بسرعة يا عادل أرجوك. عاد بسرعة خاطفة في صمت، وقد بهت كلانا من غباء الموقف، تأملني وقد تملكني هلع ورعب بلا حدود من ضياع هويتي وحصاد رحلتي، انحرفنا جهة اليسار للشارع فوجدناه هادئًا خاويًا لا أثر فيه لبشر كما تركناه، وقال: الخوف كله أن يراها جامعو القمامة، وعند باب البيت وجدت الشنطة في مكانها كما تركتها فتنفست الصعداء بعد دقائق ثقيلة مرت علي كدهر.

يا ربي، ماذا كان سيكون عليه حالي لو عدت هكذا مجردًا من مالي وهويتي؟ أجاب عادل: أن تترك حقيبة وتعود لتجدها في مكانها، ربما تكون المرة الأولى والوحيدة التي يحدث فيها أمر كهذا في أمريكا، إنه أمر نادر الحدوث، وهي ذات الكلمات التي قالها ضابط الجوازات الذي أعطاني تأشيرة الدخول بعد دخولي الفعلي لأمريكا بثلاثة أيام.

أودعت حقائبي على الطائرة في الرحلة رقم "117" المتوجهة إلى نيويورك، واشتريت من البوفيه عدد جريدة البوسطن جلوب الأخير، ثم توجهت للأنبوب الذي دلفت منه في بداية الرحلة، وظللت طوال الرحلة أستجمع شتات ما جرى وأودعه بحرص في ثنايا الذاكرة، وكأنه من زجاج رقيق، جنبًا إلى جنب مع ما رسمته

السحب وندف الثلج التي تشكلت على هيئة الوجوه التي التقيتها وظلت عالقة بمخيلتي.

التفاحة الكبيرة

على باب مطار "جي إف كي" كان ماجد في انتظاري، حياني ببرود أمريكي وسحنة مصرية عابسة تغلب عليها الغلظة، ولم يزد على جملة واحدة قالها في الطريق إلى البيت: سأقلك إلى البيت، بدرية في انتظارك، وسنلتقي في المساء، وعلى باب شقته تركني قائلاً: اعذرني يجب أن أذهب الآن، فتحت بدرية الباب واستقبلتني بالأحضان قائلة: أهلاً بحبيب الغالية- كانت استضافتها امتنانًا منها لرعايتي أمها، مُدرسة العلوم في ابتدائي وزميلة أمي وجارتنا في العباسية، أثناء مرضها الأخير- دخلت البيت ذا الحجرات الثلاث، وفي غرفة المعيشة المزدحمة بالأثاث، استأذنتها لأخذ حمام ارتديت بعده ثيابي تأهبًا للعشاء في المطعم الذي يعمل به ماجد، وفي الطريق أشارت إلى مكتبة الحي بجوار محطة المترو وقالت إنها أهم علامة في الحي، تركب منها وترجع لها.

كانت جدران محطة مترو بروكلين تغطيها الكتابات والرسوم العشوائية، وأرضية الرصيف متهالكة ممتلئة بالحفر، لا هي بالمضيئة ولا بالمظلمة، والركاب الواقفون خليط من اليهود والسود، وقليل من ذوي الياقات الزرقاء، وكثير من السيدات العجائز، وقفت بدرية ملتصقة بي، ممسكة بحقيبة يدها بقوة، وعلى وجهها ملامح ذعر وتحفز لهجوم مباغت!

شرعت بدرية في بث شكواها من صعوبات الحياة وضغوطها بعد عشرين عامًا من الغربة، وقالت إنها تضطر أحيانًا للعمل في مهن متواضعة، وأحياناً أخرى تبقى بالبيت لرعاية أولادها الثلاثة، أو تجبر على البطالة لأنها لا تملك أية مهارات، أما ماجد فهو يعمل ليل نهار لتوفير الحد الأدنى من حياة معقولة، مديرًا للمطعم الذي سنتعشى فيه الآن في وول ستريت، وعندما وصلنا أنبأتنا الأضواء بانتهاء الأعمال، وإغلاق مكاتب المحاماة وبورصة نيويورك، استقبلنا ماجد تاركًا لبدرية حرية اختيار الطاولة، جلسنا على طاولة في مواجهة الباب والممر المؤدي للقسم الداخلي من المطعم، تغلف المكان مظاهر الأبهة والفخامة الأمريكية المعهودة، بينما أضواء الشموع على المناضد تشعر الجالس أنه في صالون أحد الأثرياء.

واصلت بدرية شكاواها مع إثارة المرح بتعبيراتها خفيفة الظل، وسخريتها من نفسها ومن زوجها ومن أمريكا وهي سعيدة بحديثها مع مصري تعرفه ويجيد الإصغاء، وقالت ضاحكة أنها لا تحضر هنا إلا نادرًا، وتنوي أن تمارس دور الهانم على زوجها، قضينا قرابة الساعة نتبادل ذكريات العباسية وناسها، وهي تحكي مفارقات الحياة في حي يعج بالأحبار من اليهود ذوي القبعات السوداء، وجالية لا يستهان بها من أثريائهم، ومشاكل أولادها الثلاثة في الاندماج مع أقرانهم، ورعبها من اختلاطهم مع الشباب والفتيات الأمريكيات، حتى أنها تمنع عليهم إقامة أي صداقات خارج سور المدرسة، فعلقت:

إنت كده حابساهم في قمقم عاداتك المصرية، بيتهيألي ضروري

يكون لهم أصدقاء حتى لا تحدث ازدواجية بين المجتمع الذي يعيشون فيه وبين القيم التي تفرضينها، قالت بلغة الواثق: أنا أعرف ما يصلح وما لا يصلح لأبنائي، فقلت لها عازفًا عن التورط في جدل لا طائل من ورائه: بالطبع، أنت أدرى بمصلحة أبنائك، كمان أنت مضطرة لهذه الشِّدة نظرًا لطبيعة عمل ماجد الذي لا يسمح لكم بحياة اجتماعية سوية!

أشارت لماجد بأننا راحلون فاستدعى سيارة أجرة ركبناها من أمام المطعم، فسألتها لماذا لا نستقل المترو فالوقت مازال مبكرًا؟ فقالت: ما فيش داعي للمجازفة، حجم الخطر هنا يزداد في الليل، هنا غير بوسطن، الخطر يتضاعف بالقرب من محطات المترو فهي مرتع لكل أنواع الجرائم، وكمان إحنا عايزين نديك الإحساس بأنك سيد تلبىَ طلباته مهما تكلفت، فقلت:

حذرني الجميع من خطورة المترو والشوارع في واشنطن أيضًا، لكني تحركت فيها بحرية ولم تصادفني أية مشاكل، صحيح لم يسلم الأمر من بعض تحرشات تجاوزتها بخبرة الصعلكة في شوارع القاهرة، ولا أظن نيويورك أخطر من واشنطن بكتير، عندها التفتت لتقول: لا، المسألة أكبر من كده، لازم تفهم أنك مش مجرد ضيف، أنت أمانة ولازم نوصلك سالمًا حتى تركب طائرتك عائدًا لمصر، الحكاية مش هزار، الخطر هنا معناه احتمال الموت نفسه لا قدر الله، أنا عارفة إنك صعلوك في مصر، صدقني هنا غير مصر، خصوصًا حي بروكلين، اتفقنا.

عايز حاجة قبل ما تنام؟ شكرًا تصبحي على خير، بعد إذنك أنا حافتح الراديو جنبي. قالت وهي تتجه للممر المؤدي لغرف النوم:

براحتك، عمومًا ماجد لما حيرجع حيدخل على جوه ومش حتحس بيه، أشوفك الصبح. تمددت على الأريكة في غرفة الاستقبال أتطلع للحوائط الباهتة وقطع الأثاث الضخمة بلا مبرر، والكتب اللامعة والمجلات الزاهية بصور لأناس تشع وجوههم بالنعمة والسكينة أو الخلاعة، ثم المزهرية الموضوعة على الطاولة وقد علاها غبار كثيف يشي بأن الزهور لا تعرف طريقها لهذا البيت، بدأ نعاس الرحلة وعناؤها يغالباني، وقبل أن أغمض عيني عادت بدرية ترتدي بنطلوناً وبلوزة تكشف عن ضخامة جسمها، ونظرت إليّ بعينيها الخضراوين الخاليتين من المشاعر وقالت بلهجة آمرة: قم واكتب رقم تليفون المنزل وتليفون عمل ماجد وخليهم معاك لتتصل إن احتجت شيئًا أو تعرضت لا قدر الله لأي مكروه، ولعلمك ممنوع الذهاب لأي مكان دون أن تخبرنا مسبقًا، خلي اليومين دول يعدوا على خير!

اضطررت لحسم مسألة قلقها: اسمعيني بقى يا ست الكل، أنا عايز خريطة للمدينة وشبكة المترو عشان أتحرك من غير ما أسأل حد، إطمني، كل المطلوب من حضرتك تقولي لي آخر ميعاد مسموح لي أرجع فيه من غير ما أسبب إزعاج، وأوعدك ما فيش لا بوليس ولا مستشفى طوارئ حيتصل يطلب منكم تيجوا تستلموني. قالت يائسة: يظهر مفيش فايدة من الكلام معاك، أنا حاسيب ماجد يحذرك بمعرفته، فصحت فيها: لا والنبي بلاش الأخ ماجد، كتر خيره إنه استضافني في بيته وعزمني على العشا في مطعمه إللي ما أحلمش آكل فيه، الراجل أكيد بيرجع على آخره من التعب مفيش داعي تشغليه.

قبلت بدرية ما قلت على مضض، وأعطتني نسخة من مفتاح الشقة وهي تقول: إنت حر، لكن خليك فاكر إني حذرتك. قلت: إللي حأفتكره ومش حانساه فعلاً جميل استضافتك لي، تصبحي على خير بقى، أنا خلاص بفيّص وحأبدأ أهيس في الكلام، استدارت باتجاه غرفة النوم وهي تنبهني: ماشي بس إعمل حسابك بكرة حنفطر سوا أنا وأنت وماجد، زاد كلامها من رغبتي في خوض مغامرات استكشاف التفاحة الكبيرة، ومنيت نفسي بقضم قطعة معتبرة من الذكريات!

ألقيت تحية الصباح على ماجد الذي كان يكمل ارتداء ملابسه متنقلاً بين حجرته والمطبخ، أرتديت ما يناسب يومًا كاملاً من الصعلكة، وأعددت حقيبة بها حافظة النقود والباسبور، وسألتني بدرية: باسبورك فين؟ ضحكت قائلاً: ألا يكفي رقم التأمين، وبطاقة البنك، وكارنيه المستشفى؟ سألت مندهشة: من أين لك برقم تأمين؟ فقلت: من الحكومة بتاعتكم، حيكون منين يعني؟ هو إحنا شوية في البلد دي. ضحكت وهي تنظر لي وكأني قادم إليهم من كوكب آخر! قال ماجد متجهًا للباب: جاهزين؟ ردت بدرية: خلينا نكمل قهوتنا، فقال: حنشربها هناك، ركبنا وأنا لا أعرف أين هناك هذا الذي يتحدثون عنه، سرنا باتجاه وسط المدينة وكانت الشمس ساطعة على غير المعتاد في مثل هذا الصباح من شهر نوفمبر، وقالت بدرية: حظك حلو، نحن لا نرى الشمس عادة في نوفمبر، فقلت: حظي حلو بيكم. لم يعلق ماجد بكلمة حتى وصلنا لجراج إحدى ناطحات السحاب حين قال: هذا هو الإمباير ستيت، سمعت عنه طبعًا؟

دخلنا من بوابة مهيبة وصعدنا للدور الثالث، وجدنا بهوًا تحيط بجوانبه أركان البناية الشاهقة، ويطل على فناء بمساحة شاسعة مفتوح على الأفق متوسطًا المبنى حتى قمته، يغمره نور النهار، دخل ماجد ونحن خلفه من باب مطعم أنيق، لا بل في غاية الأناقة، حياه الواقف على الباب باسمه ما يعني أنه معروف في المكان، جلسنا قبالة واجهة زجاجية فتحها لنا الجرسون الذي طلب منه ماجد هامسًا الإفطار، سألني ماذا تريد؟ فقلت: فطار عادي مع أصدقاء بدون تفاصيل.

بدأت بدرية الحديث بسرد تاريخ ماجد في مطاعم نيويورك وأنه أدار المكان الذي نجلس فيه لفترة، تكلفة الإفطار هنا تزيد عن المائة دولار للفرد لأن روكفللر وكيسنجر وأمثالهم من نجوم السياسة والمال والصحافة اعتادوا اللقاء هنا، وأحيانًا يرتاده نجوم السينما في زياراتهم لنيويورك. علقت: يا بوي، ده أنا عمري ما حلمت أقعد على كرسي قعد عليه عمنا روكفللر أو مولانا كيسنجر، أما حكاية يا ولاد.

تأملت الموقف بما يفرضه داعي الانبهار بمكان للمشاهير في أمريكا صانعة النجوم: إبسط يا عم أديك دخلت مكان عمر أبوك ما شافه ولا حتى في الأفلام، مكان يرتاده من بيدهم مصير الخلق، وشربت قهوتي ببطء مستمتعًا بالمكان، وحلاوة نور النهار الذي يشع بزوايا انحدار على الواجهات الزجاجية كما ردهات القصور في حكايات ألف ليلة وليلة، وقلت لنفسي: آهي فرصة تلاقي حاجة تتباهى بيها على الخلق في مصر.

انتهينا من الفطار الفخم، تركنا ماجد في الساحة ليلحق بعمله،

ووقفت مع بدرية نتأمل الشارع والمارة وقالت: هيا بنا، سنذهب إلى السوق الكبير في نيوجيرسي، حنشتري منه سمك للغداء، اعتذرت قائلاً: اعفيني ورحمة أمك يا شيخة من حكاية السوق دي، أنا لا بفهم في السمك ولا شاطر في الشِرا، أنا ناوي أستغل الشمس والنهار الرايق ده في المشي بحريةِ في الشوارع، حأحاول أرجع بدري عشان ألحق أكلة السمك. شهقت منزعجة: يا عم إنت مش في مصر، يعني إيه تتمشى في الشوارع، وبعدين إزاي حترجع؟ هدأت من روعها قائلاً: أرجع إزاي دي سهلة خالص، رجلي معايا وفلوسي في جيبي والخريطة باينة فيها محطات المترو زي الشمس، إن شاء الله حأرجع لك صاغ سليم، ولو احتجت لحاجة حأتصل بيكِ على طول، روَّحي إنت وإطمني.

طيب، أرجوك ما تتأخرش، وتركتني عند ناصية يمكنني منها عبور نهر الطريق الذي يمتد حتى رصيف الميناء ويتقاطع مع فيفث أفينو وسيكس أفينو وسط مدينة نيويورك، عبرت الطريق واخترت أحد الشوارع المتقاطعة، سرت فيه متأملاً المحلات والبنايات، باحثًا عن شيء لا أعرفه وإن كنت أبحث عنه بحماس شديد!

لم يكن في المحلات ما يلفت النظر، والحركة في الشارع هادئة تمامًا، لا يمر فيه إلا القليل من السيارات، وعدد أقل من المارة فاليوم يوم عمل، والجميع يعملون في مثل هذه الساعة من النهار. ألقت البنايات الشاهقة المتشابهة بظلالها على امتداد الشارع، وتخيلت خليطًا من البشر - لا وجود لهم في الحقيقة- سائرين فيه يتجادلون ويتآمرون يحيط بهم غموض الظلال المهيمنة، وتصورت أنهم ذابوا في جدران البنايات المصمتة، حيث مكاتب

السمسرة في البورصة، ومكاتب مشاهير المحامين لزوم قضايا التعويضات والإفلاس، كله بالقانون وأصول لعبة المال الجهنمية، والقانون هنا هو الباشا الكبير، أو شيخ الطريقة الذي يتزلف إليه الجميع، وينفذون تعاليمه وما يقضي به من تعويضات أو غرامات، وفي نفس الوقت يخالف من شاء ما شاء له من القوانين، لكن من يُكتشف خداعه أوتلاعبه تكون نهايته السجن، الطموح والجشع هنا غريزة فطرية، وكل واحد وشطارته في أن يزيد من نصيبه في الكعكة، أكبر كعكة فيكي يا دنيا!

عند ناصية سيكس أفينو وجدت جلبة وزحام عند مدخل أحد البنايات، اقتربت حذرًا فرأيت فيلاً ضخمًا يدفعه مدربوه بهدوء وحذر ليركب سيارة أعدت خصيصًا لاستقباله، بعد أن أطلق أحد العاملين عليه طلقتين استقرتا في فخذه لتخديره، كان في كامل أبهته، على ظهره سرج مزركش يخطو متئدًا مترنحًا، وما أن اتخذ مكانه المعد له سلفًا وأغلقوا عليه باب القفص حتى هدأ الصخب فجأة كما بدأ، ألقيت نظرة سريعة من بعيد على باب المبنى لأستكشف المكان الذي يحتاج العمل فيه لفيل، متصورًا أنه لا بد باب من أبواب فرق السيرك، كانت اللافتة النحاسية تقول أنه مسرح برودواي الشهير - لم استطع تخيل الدور الذي قام به على الخشبة - وانسحب العاملون للداخل وتفرق جمهور المارة كل في طريقه، فعاودت السير بلا هدى.

فجأة، خرجت من أبواب البنايات أفواج من البشر إلى الشارع، صار مزدحمًا زحام الذباب على قصعة عسل، تتحول الشوارع في ساعة الغداء إلى ما يشبه ساحة معركة، بلا خطط حربية مسبقة،

هذا يجري في إتجاه لا يرى فيه سواه، وهذه تجري لتلحق بموعد صديقها في مطعم تم الحجز فيه مسبقًا، وفتاة ورفيقها يسابقان الزمن للحصول على بعض من طعام يتناولاه على الرصيف متحررين من قيود المكاتب، عدد لا يمكن حصره من الرجال والنساء يرتدون معاطف المطر باللون الكحلي أو البيج والقليل باللون الأسود في زحام أصابني بالدوار.

مئات من معاطف المطر والأقدام المهرولة إلى محلات الوجبات السريعة، تظهر بسرعة لتختفي بنفس السرعة، وهو مشهد نمطي من مشاهد سينما هوليود، حيث يتدافع الناس لتناول وجبة الغداء في عجلة والعودة سريعًا للعمل، يقفون في طوابير عند إشارات المرور، وينطلقون بمجرد أن تصير خضراء دفعة واحدة، كتدافع سرب من النمل باتجاه وليمة من فتات الخبز.

غصت في الزحام باحثًا عن الإختلاف بين هؤلاء في معاطفهم الواقية من المطر، وأولئك الذين يتعلقون بأبواب الوتوبيسات المفتوحة على الصباحات المشمسة، هؤلاء وأولئك في النهاية عمال أو موظفون يتقاضون أجورهم، وإن كانوا هنا يحصلون على رواتب تبدو خيالية للبسطاء من عمال وصغار موظفي الحكومة المصرية السنية، فهي رواتب تؤهل الأمريكيين من البسطاء لقدر معقول من الرفاهية، والكثير من المتع في أرض الأحلام.

أما في مصر فالرواتب لا تسمن ولا تغني من جوع، بالكاد توفر الستر لأهل مصر الطيبين، الذين يرضون بقليله، ويدعون الله أن يسترهم للآخر، يعني العيال تتعلم، والبنات تتستر في بيوت أزواجها، الفرق في طموح الفرد هنا وطموحه هناك، بالتأكيد

الطموح هنا يتجاوز حدود حكاية الستر التي لا يفهمها أحد هنا، فهنا يسيطر على الجميع حلم البيت الخاص والعمل الخاص، لأن المقولة السائدة أن العاملين بأجر هم عبيد هذا الزمان، وتساءلت: إذا كان ذوو المعاطف هم العبيد فمن هو السيد وأين هو؟

في مصر الحكاية واضحة وضوح الشمس، الحكومة هي السيد، وهي حكومة مركزية راسخة، تقف بالمرصاد لرعاياها منذ تسجيلهم في سجلات المواليد حتى استخراج شهادة وفاتهم!

لكن ماذا عن السادة هنا، أين هم؟ وما هي هيئتهم؟ وما هي علاقتهم بذوي المعاطف الذين يملئون الشارع مثل الجراد في المشهد الماثل أمامي؟ اختفت الحشود وعاد الهدوء الغامض ثانية، وتطلعت إلى الفراغ القسري المفاجئ واقفًا بناصية أحد الشوارع التي تمتد أمامي بلا نهاية، رفعت رأسي لأعلى ناظرًا للشمس التي بدأت رحلة الزوال، مراقبًا قمم البنايات التي تكاد تلامس السحاب، وتراءت لي – كما في الخيالات أو أحلام اليقظة – حبال أو خيوط سحرية غير مرئية تربط قمم المباني بعضها ببعض، تتدلى حتى تلامس رؤوس المارة السادرين في سعيهم، وفي لحظة خاطفة رأيت شبحًا ليد خرافية، ربما كانت إلكترونية أو ضوئية لا أدري، تمسك تلك الخيوط تحرك بها الآلاف من البشر اللاهث، تفرقهم ساعة الغداء وتعود لجمعهم في مكاتبهم لتفرقهم ثانية مع انتهاء ساعات العمل! تمثل لي "السيد" الذي كنت أبحث عنه، رأيته – أو هكذا هيئ لي– واقفًا وراء واجهة زجاجية في أعلى الأدوار وأكثرها وحشية وقد ارتدى أكثر ثياب العصر بهاءً وغموضًا، في تماهٍ تام مع البناء الأرستقراطي الشاهق.

السيد هو ذلك الذي لا تراه، وإن رأيته مصادفة على باب مصعد أو مترجلاً من سيارته أمام بناية فلن تعرفه، هو بالطبع لا يعرفك ولا يريد لك أن تعرفه، لأن دوره يتوقف على غموضه وأن لا تشعر بوجوده من الأساس. هو موجود، أنت على يقين من ذلك، وعليك التظاهر دائمًا بأنك تجهل وجوده، وإن كان عليك أن تحسب له ألف حساب، فأنت كعبد من عبيده تسير طائعًا في فلك رواتبه أو عطاياه، سواء كنت في عربة من عربات المترو أو في سيارة فارهة صنعها لك، وتسدد أقساطها للبنك الذي يملكه، وتسدد أقساط التأمين عليها في شركة التأمين التي يملكها، والتي يقع مقرها على الرصيف المقابل لمكتبك، وتحرص على شراء حفنة من الأسهم في شركاته، وربما تذهب للكنيسة ذاتها التي يتبرع لها بأموال الهبات.

السيد موجود، وعليك بزيادة الإنتاج والاستهلاك مرتفعًا بسقف الطموح البشري، وبأرباحه حتى عنان السماء! فإن صادفك السيد في حديث له على شاشة التلفزيون عليك بالإنصات، فقد يهبك الحكمة من حياتك، ويطهر ذاتك من عبوديتها، أما إن صادفك في الطريق وتبادلتما التحية دون سابق معرفة، فاعلم أن ذلك تأتى لك بفعل الديموقراطية التي ترفل في نعيمها، والحرية التي يرمز لها التمثال الشهير دون السؤال عمن يحميها، بالطبع لها من يدافع عنها، وللسيد من يدافع عنه! حقًا هذا بلد الحرية التي منحتك الجرأة أن ترفع رأسك وتتطلع إلي - أنا السيد - من فوق رصيفك البائس العاجز، وأن تتطاول لتكشف الغلالة التي تفصل بينك وبينه في شطحة خيال عابرة!

انطلقت الخيالات من عقالها، كانت الساعة تقترب من الخامسة - موعد خروج الحشود العائدة إلى البيوت- وقررت البقاء محاولاً إمساك أحد الخيوط التي تحرك الماريونيت، واقفًا أرقب مشهد الخروج الرهيب! فجأة، رمقني أحد السادة من فوق قمة الإمبايرستيت وسمعته يقول لي:

أنت أيها الواقف هناك، من تظن نفسك؟ عد إلى حيث أتيت، لا مكان لك هنا، لا يجوز لأمثالك أن ينقد الطريقة التي ندير بها شئوننا، سادة كنا أم عبيدًا، ثم، من قال إن بيننا عبيدًا؟ نحن جميعًا مواطنون، نحيي ذات العلم، الذي يحييه جنود المارينز الأشداء وهم يموتون في الأصقاع والبراري للحفاظ على المصالح الأمريكية العليا، ونتمتع جميعًا بحقوقنا الدستورية، وقادتنا يحكموننا بالانتخاب الحر المباشر! كلنا ندفع الضرائب، ووكّلنا في الكونجرس ومجلس الشيوخ من يراقب الحكومة، ويراقب البوليس الناس، وتراقب المباحث الفيدرالية الجميع، وتراقب المخابرات المركزية البشر في كل بقعة من الأرض!

أنت من تكون؟ ألست عبدًا في بلدك؟ ألا يحكمك سادة لا تملك لهم نقدًا أو حسابًا؟ ألستم جميعًا غارقين في ظلمات التخلف والفقر؟ قل لي، أما زلتم تركبون الجمال؟ كيف شوارعكم أما زالت على قذارتها؟ وبيوتكم أهي على حالها ضيقة لا شمس فيها ولا هواء؟ ومدارسكم وجامعاتكم أما زالت تسهم في تخريج المزيد من العاطلين؟ هل تنكر أن حلمًا يراود كل شاب في بلدك أن يأتي إلى هنا؟ ألم تحلم أنت بذلك؟ عد من حيث أتيت، ابحث عن أشباح أخرى لسادة آخرين في مكان آخر، لُمها ما شاء لك اللوم، لكنك

هنا في قدس الأقداس، قمة الحضارة التي تشع نور العلم وتنشر قيم الحرية.

أفق يا هذا، لن نسمح لصعلوك مثلك - بثيابك المضحكة وتاريخك العتيق وحنينك البائس لأمجاد ماضيك العتيق- أن يفكك شفرات حلمنا، لقد عرف أبناؤنا طريق الرشاد وسلكوا سبل الصلاح، فاعلم أن لا صلاح إلا لمن سار على دربهم، وإن لم يعجبك أمرنا ولم تستهوك سبلنا هذا شأنك، فقط عد لأهلك أو تهلك!

أجبته ورعشة تنتاب جسدي وكياني يرتج على وقع الديالوج الخيالي الثقيل: الوداع سيدي، تقبل مني وافر الانصياع والتسليم بمصيري الذي تحدد سلفًا! سرت في الزحام باحثًا عما يردني للواقع الذي لم يعد بيني وبينه سوى أيام معدودة.

عدت في موعد العشاء وقد أصابتني حمى الهواجس حتى أن بدرية توهمت أنني مريض لشحوب وجهي وزيغ نظراتي، وأمطرتني بكلمات العتاب لتأخري عن وجبة السمك الميمونة، وزادت بأن قالت إن القلق أفسد عليها يومها! طلبت منها فنجانًا من القهوة وشرعت أحكي لها عن جولتي ومشهد نقل الفيل بشكل فكاهي بعثها على الضحك حتى دمعت عيناها ونسيت قلقها غير المبرر، وطلبت منها مهلة تكفي لحمام ساخن أعود بعدها لألتهم نصيبي في السمك متسائلاً بسخرية: ولاّ الحكاية مقلب ولا فيه سمك ولا بساريا، ولاّ حكايتك إيه بالظبط يا بنت العباسية؟ ضحكت: آه أديك قلبتها تريقة، كده يبقى إنت تمام، خش خد حمامك ولما تطلع حتلاقي السمك مقلي كُل وبرَّق لي. طمأنتها أكثر بينما أتناول العشاء: أنا عديت من كل المواقف البايخة والمحرجة، واجتزت كل الإختبارات من ركوب مترو بالليل للخروج

منه وسط المدمنين والحرامية، ده أنا حتى اتعرفت على جارة لكم كانت راكبة معايا في المترو، ساكنة في العمارة إللي قدام المكتبة، اسمها سالي وعزمتني على العشا، سمرا وجمالها يخبل، وعشان خاطرك اعتذرت لها عن دعوتها الكريمة.

بعد تناول العشاء والثرثرة التقليدية أمام التلفزيون وذهابها لتنام حضر ماجد حياني وسأل: الولاد ناموا؟ فأجبته: نعم وأنا سأنهي كوب الشاي وأنام، وعندما استيقظت في الصباح كانت بدرية قد أعدت الإفطار وجلبت لي صحيفة الواشنطن بوست لأتصفحها: أمامك نصف ساعة بعدها سنذهب لشركة الطيران ونزور كنيسة سان بيتر، نزلنا، واشتريت كاميرا كوداك من محل قريب، واشترت هي بعض لعب الأطفال لسارة، ثم توجهنا معًا لمكتب مصر للطيران لتأكيد الحجز، ومن ثم اتجهنا لنهاية الشارع حيث الكنيسة.

الكنيسة تحفة معمارية، يوجد في مدخلها بهو يرتفع سقفه لما يزيد على العشرين مترًا، في الأركان أعمدة تنتهي بمقرنصات جصية مشغولة بالخشب، وأعمدة رخامية تحد القاعة المخصصة للصلاة بجوانبها الأربعة، والحوائط تكاد تكون مبطنة بكاملها بالخشب المشغول المُحلى بالذهب، بالإضافة للمذبح والشموع التي تحيط بتمثال العذراء، وشرحت لي بدرية أن الكنيسة خاصة بأهم قديس أيرلندي، وفي مقدمة القاعة المخصصة للصلاة نصب تمثال رائع للمسيح مصلوبًا في بهاء وخشوع، بينما بدا على الوجوه التي تصلي أو تزور المكان سمت الورع والجلال الذي غلف وجوه الرهبان في ثيابهم زاهية الألوان.

يعد سان بيتر أعلى مراتب القديسين لدى الأيرلنديين الكاثوليك من أتباع المذهب الكاثوليكي الإصلاحي، الذين يشكلون جالية محترمة من المهاجرين إلى العالم الجديد، ويتمتعون بنصيب وافر من المكانة والنفوذ في المجتمع الأمريكي، يصطحبون أبناءهم لزيارة الكنيسة - كان عيد الشكر على الأبواب- وتولت بدرية شرح ما لا أعرف: هنا في أمريكا يود كل أمريكي أن يكون أحد جيرانه منهم، لأن سلوكهم قائم على قيم دينية راسخة، قلت: وده بقى مولد سيدي بيتر، أجابت: كيف عرفت؟ قلت: من مظاهر الفرح والملابس الجديدة والزحام. قالت: تعرف؟ أنت محظوظ إنك بتزور الكنيسة في المناسبة دي، عادة ما تحل البركات على من يحضرها. قلت: بركاتك يا سيدي بيتر، بس يا خسارة أنا محصن ضد البركات، أصل أنا من الناس التانيين مش من الأولانيين كان لازم تفهميها لوحدك يا بدرية. الله، ليه بتقول كده؟ وكنت قد اكتفيت من جولتي بالكنيسة وقلت: ما تشغليش بالك يا الله بينا.

دليني يا ست الكل إزاي أوصل السنترال بارك؟ عايز أزور متحف المتروبوليتان، وشوفي إنت حالك وما تقلقيش، بعد ما أخلص حأتصل بيكي، دعوتها على حلوى الدونتس وفنجان قهوة تناولناه في مقهى على رصيف يفترشه ضوء النهار، وتركتني على باب مكتبة ضخمة بالقرب من محطة المترو، لم استطع مقاومة الإغراء، يا إلهي كل دي كتب عن عاصفة الصحراء والنصر الأمريكي، والصفات الوحشية لصدام، وجرائم الحرب التي ارتكبها، وكتب عن حرب العراق مع إيران، وقصة حياة الطاغية، وتحليلات نفسية لشخصية الزعيم وغيره من الحكام العرب في المنطقة! أما أكثر

الكتب رواجًا فكانت تلك التي تفسر أو تروج لـ"النظام العالمي الجديد" – عنوان الكتاب الوحيد الذي اشتريته- الذي بزغ فجره في حرب عاصفة الصحراء! اشتريت بعض المجلات التي تؤكد عناوينها صواب قرار الحرب والتأكيد على مصداقيتها! وتطرح سؤالاً مبهمًا: بعد إنهيار الإتحاد السوفييتي وسقوط الشيوعية من هو العدو القادم؟ هل يكون الإسلام الأصولي؟! تركت المكتبة واتجهت رأسًا إلى نيويورك سنترال بارك.

سرت في الحديقة في جو أشبه بالغابات، مارًا بآثار مسرح لتقديم العروض الجماهيرية، حيث أشجار السنديان والسرو الضخمة وغيرها من الأشجارالباسقة على امتداد الخضرة الزاهية تتوسطها خشبة المسرح، حيث يقف مغني البوب بزيه الغريب أو مغني الكنتري بالزي التقليدي لرعاة البقر ليغني أمام جمهور يتراقص، وهو في حالة خدر وكأنه أصيب بطلقة كالتي استقرت بجسد الفيل خارجًا من مسرح برودواي في طريقه للقفص!

داخل المتحف سرت متلهفًا لرؤية الأقسام الخاصة، بدءًا من القسم الفرعوني بروعة آثاره المعروضة بما يناسب جلالها والمساحة التي تشغلها من إجمالي مساحة المتحف، التي تبلغ عددًا لا بأس به من الهكتارات، ثم القسم الآسيوي بكنوزه من الحضارات الصينية والهندية واليابانية، ثم قسم فناني عصر النهضة واللوحات الأشهر للتأثيريين والسورياليين وغيرها من مذاهب الفن الحديثة. رغم روعة المعروضات وتقنية العرض المبهرة وشغفي بالمشاهدة استطعت إنهاء جولتي قبل انقضاء ساعات النهار بقليل، واشتريت بعض الأعمال الفنية المستنسخة،

ثم جلست على عتبات المتحف الرخامية أتأمل الواجهة ذات الطراز الروماني بأعمدته المهيبة، بينما أوراق الشجر المتساقطة بألوانها المنسجمة في كرنفال عفوي يحاصر المبنى أشعرتني بقرب نهاية الرحلة التي تساقطت أوراقها!

استقليت سيارة أجرة إلى رصيف ميناء نيويورك، في مواجهة جزيرة مانهاتن التي يتوسطها تمثال الحرية الشهير للفتاة تحمل شعلتها الرمزية في ردائها الروماني. سألني السائق إن كنت أريد الذهاب للجزيرة، فأجبته: لا شكرًا، أريد فقط الوصول لرصيف الميناء، فتركني السائق عند بدايته في بقعة تزدحم بالمارة والعابرين والجالسين في مواجهة الجزيرة، بينما يصطف على الجهة الأخرى عدد لا بأس به من المطاعم والمقاهي، لم أشعر بأدنى رغبة في الإقتراب من التمثال الرمز، تساقطت زخات من مطر خفيف، وتلاشى تدريجيًا قرص الشمس الأحمر محاطًا بغيوم أرجوانية في أفق المحيط وهي في طريقها لمخبئها، وفي اللحظة الفاصلة بين العتمة والإظلام التام أضاءت التمثال أنوار باهرة وإن لم تمح لونه الرمادي وضبابية ما يرمز إليه، وقفت محتميًا بمظلتي البائسة من الرياح تنسال على المحيط وتحمل رذاذ أمواجه، ترتطم بالرصيف بقسوة وتصدر صوتًا أشبه بنافورة صاعدة من المياه المندفعة بقوة، تناولت فنجانًا من القهوة ممتزجًا بحبات المطر المتساقطة في سرعات متزايدة، ممعنًا النظر في المشهد الذي اعتادت قوافل المهاجرين أن تراه عند الوصول لا في لحظات الرحيل الذي أشرفتُ عليه، وحاولت استشراف معنى وجود التمثال هنا - الذي أهداه خديوي مصر لرئيس الولايات المتحدة الأمريكية - حيث يتوسط مدخل الجزيرة مستقبلاً الوافدين لأرض الأحلام،

ما جعل من الجزيرة وفتاتها حاملة الشعلة بوابة الدخول للعالم الجديد!

لم أكن راغبًا في العودة لمنزل ماجد الذي يفتقد الروح، وقلت لنفسي: لا بأس من قليل من الصعلكة في وسط المدينة حيث الملاهي ودور العرض وعلب الليل، وتوقفت أمام ملهى لعروض الاستربتيز وكأني أستدرجت إليه، دخلته، ربما لأن الوقت لا يسمح بارتجال جديد، كانت هناك ثلاث عارضات، إحداهن شاهقة البياض تستدير كل تضاريس جسدها بنعومة فائقة تدور حول العمود الذي يتوسط المسرح كاشفة عن فتنة ممتزجة بشيء من البهجة، وثانيتهن سمراء أقرب إلى الخلاسيات أكثر جرأة على كشف فتنتها بجموح وكبرياء فرس، وثالثتهن لاتينية، ربما كانت من كولومبيا بلد الإرهابي كارلوس، لها بشرة نحاسية، وكانت أكثرهن انسجامًا مع الموسيقى التي انسابت مع انسياب جسدها، وهكذا ختمت الرحلة بكرنفال أشبه بالكرنفال السنوي للرقص في البرازيل لطرد الأرواح الشريرة، وكأنني أطرد أرواح الرحلة وأستدعي ملائكة الرحيل.

دخلت عليّ بدرية وأنا أتمم على حقائبي فاستدرت مقدمًا إليها هدية رمزية، وأبديت امتنانًا على حسن استقبالها واستضافتي ثلاثة أيام بطولها، وأودعتني خطابًا لتسليمه لأختها، وودعتني عند الباب حيث كانت سيارة الأجرة التي ستقلني للمطار تقف منتظرة.

بدأت خيوط النهار تنفرج وسط الزرقة الداكنة للسماء، وتوالى مرور قوافل السحاب خلف نافذة الطائرة تأخذ معها ما خلفته

الرحلة لمكان سري، اكتمل ضوء النهار وأنا غارق في نوم ينساب في يقظة التذكار حتى أعلن قبطان الطائرة بدء الهبوط لمطار قاهرة المعز، ردت إليّ روحي التي هامت عبر المحيط، وانفتحت حويصلات الرئة وشرايين القلب للقاء الأحباب، وجدت فردوس في انتظاري، عانقتها مقبلاً، واستقبلني أبي استقبال الأبطال الفاتحين، وتوالت عليّ طوال الطريق مشاهد بيوت أعرفها، ووجوه أناس أعرفهم ويعرفونني، وشعور يذكرني بما نسيت من زحام الطرق والحركة الصاخبة للحياة.

سألت فردوس: فين سارة؟ أجابت: مع خالتها. وسألني أبي إن كنت أريد المرور عليها فقلت له: لا داعٍ فأنا اليوم متعب جدًا، لا بد أن أكون في كامل لياقتي في لقائي الأول معها، هيا بنا للبيت. انتهينا أنا وأبي من القهوة التي أعدتها فردوس، واستأذن في الانصراف، ودعته وعدت لفردوس التي فاق شوقي إليها ما عداه، كانت تتمتم بشفاه مرتعشة بالحمد والشكر لله على عودتي سالمًا من حرب عاصفة الحلم، فقلت لها: سيحتاج الأمر بعض الوقت حتى نستوعب معاً ماجرى منذ ليلة رحيلي حتى عودتي، لكن يقينًا أنا هنا إلى جوارك كما وعدتك، فامسحي عنك غبار الغياب ودموع الفرح بعودتي، في الصباح سنذهب لإحضار الأميرة فلي معها كلام كثير، لا بد أن تحفظ ملامحي وتتعود رنة صوتي، أن أعتاد نظرة عينيها وتعتاد لمسة يدي، وإن كنت غائبًا لحظة مولدها، فلا بد أن تتأكد بنفسها أنني سأكون إلى جوارها دائمًا.

جاءت الأميرة محمولة على أكتاف الشوق لرؤيتها وهي بعد في شهرها الثاني، نظرت إليها راقدة في سكينة في سريرها تنظر

إليّ وأتملى منها ودار بيننا حوار طويل: أهلا يا سارة، أيمكنك أن تغفري لي غيابي؟ أومأت وكأنها تعلن استعدادها للمغفرة ما زاد من حماسي في طلب الصفح: أكيد كنت تبحثين عني بين الوجوه التي أطلت عليك لحظة وصولك للدنيا، أليس كذلك؟ تعرفي، لطالما نصحني جدك ألا أنجب في هذا البلد حتى لا أظلمك، إيه رأيك إنت؟ صحيح أنا ظلمتك؟ مش معقول تكوني شايفة إنه ظلم إنك تتولدي في مصر، بجد إيه رأيك في كلام الحاج؟ وبعدين تعالي هنا، جبت منين الضحكة الصافية دي؟ ومالك شبه عمتك كده ليه؟ اسمعي بقى، من أولها كده، يا نبقى صحاب يا بلاش قلتي إيه؟ كنت أحادثها همسًا حتى لا يسمعني سواها، وتساءلت: يا ترى فهمت ما أقول؟ لم تفصح أميرتي عن إجابة محددة غير أنها لم تتوقف عن متابعتي بعينيها البريئتين الثاقبتين، مستسلمة لنبرات صوتي وكأنها تحفظها في لوح الذاكرة، ربما كانت فرحة بلقاء أبيها، بدا لي أنها سبق وتواصلت معي عن بعد، ربما من خلال صورة أو رائحة عابرة في الحجرات، ضممتها لصدري وذهبت بها لفردوس وأبلغتها بما دار بيننا وطمأنتها أنها تفهمت الأمر، بدليل أنها كانت تهز رأسها وتنظر لي بعينيها ولم تغمضهما عني، انظري، إنها تشبهني وتشبه عمتها وجدتها، بالمناسبة كيف حالها؟ قالت: الحمد لله بخير، جت وهنأتني بمولد سارة، وجت بعد عودتها من مستشفى أبو الريش إللي اتعالجت فيه من الصفرا، وكمان عمتها هدى ومرات أخوك حمدي زاروها وهي في المستشفى، الحمد لله ، ده أنا كنت مرعوبة وقلبي حيتخلع خوفًا من أن يصيبها مكروه لا قدر الله قبل ما ترجع لنا بالسلامة لأني ساعتها ما كنتش حأقدر أسامح نفسي.

كانت واقفة تحدثني في المطبخ وهي تعد الغداء أو بمعنى أصح الوليمة احتفالاً بعودة سلطان زمانه سالمًا غانمًا من حرب البسوس وهو محمل بالنوق الحمر والياقوت! أما صحيح حكاية، كل ده يا بنت الحلال، ليّه هو أنا جاي من مجاعة؟ وأشرت إلى الحوائط من حولي وقلت: صحيح، إيه البقع إللي في الحيطة دي؟ آه، ده أنا شفت أيام، المية كانت بتتسرب من الشقة اللي فوقنا وعملت ماس كهربا والتيار اتقطع من البيت، واضطريت أروح أقعد عند بابا، الشقة محتاجة ترميم جامد وبياض. فقلت بهدوء: ولا يهمك دي خساير مقدور عليها، لكن المهم لازم أروح المستشفى عشان أعرف موقفهم إيه من رجوعي، حأعدي النهارده على ماما عشان أطمن عليها ومن بكرة إن شاء الله أبدأ أرتب أموري.

زالت آثار الغياب، وعادت الشقة تزهو بمن فيها، وعدت لعملي القديم بشركة ابن الأكابر، الذي رفض أن أعمل في تخصصي الذي تدربت عليه في بلاد العم سام، متحججًا بعدم حصولي على الماجستير. قابلت الأصدقاء، واحتفى كل منهم بعودتي بطريقته، وإن لم يتوقف أي منهم عن إلقاء السؤال التقليدي والمحرج: إيه إللي رجعك؟ وتعددت إجاباتي حسب طبيعة السائل وظروف طرح السؤال، وإن تمحورت حول عدم استطاعتي التواءم مع إيقاع الحياة وطبيعتها في أرض الأحلام، ولم أخف خوفي بل رعبي من تيه الغربة في بلاد العم سام.

صرت أداعب أميرتي الصغيرة يوميًا وأتحدث إليها، سواء أعجبها كلامي أو تلاهت عنه، وأُسمُعها الموسيقى ثم أضمها لصدري أراقصها وأغني لها، وعادت الألفة بيننا أنا وفردوس وعاد الوهج

للحب الذي ولد على مر السنين وأثمر الجميلة سارة التي كانت سببًا لبقائي في البيت لفترات أطول، وسألتها: يا ترى إنت مقتنعة بقرار رجوعي وإلغاء فكرة ولادتك هناك زي ما خططنا؟ ولاّ المسألة مجرد رضا بالواقع والاكتفاء بإن أنا جنبك والسلام؟ سألت نفسك السؤال ده ولاّ لأ، ويا ترى إجابتك كانت إيه؟

أجابت: أنا أيضًا لم تعجبني أمريكا في زيارتي لها قبل زواجنا، ولم أشعر براحة رغم إحاطة زملائي في المكتب الثقافي لي بكل الرعاية طوال إقامتي، تعرف كل زميلاتي في معهد اللغات اللي حضرت فيه الدورة قررن البقاء لكني لم أشعر بأية ألفة معهن، أو أنهن يمكن أن يكنّ سببًا في طمأنينة ما، ما عرفتش أولف ويا العالم ده، ما حسيتش إني ممكن أكون جزء منه، صحيح أنا وافقت على فكرة الولادة هناك لكن ده عشان تحقق أحلامك، أما وإنك عدت بإرادتك راغبًا في البقاء بمصر المكان الطبيعي لتحقيق أحلامك، فها أنا معك ولن يفرق بيننا شيء.

بعد حرب عاصفة الصحراء بدا أن الجميع يعزف لحنه المنفرد ويعيش في جزيرته مكتفيًا بذاته لا يثق إلا فيها، وزادت حالة الإحباط الجماعي، فها هم المثقفون يغالون في كراهيتهم لأمريكا، ويزداد حنقهم على طاغية العراق وحكام المنطقة المستبدين، دون بادرة أية رؤية للخروج من دائرة الإحباط الشيطانية! وأطبق خناق الأزمة الاقتصادية التي خلفتها الحرب على المنطقة بأسرها، وزاد العرب من لهاثهم خلف سراب السلام، واندفعوا في الهرولة للتطبيع مع العدو الأزلي، وتوالى إطلاق رصاص الجماعات على المصريين والأجانب في القاهرة وغيرها من المحافظات معلنين أننا جميعًا كفرة!

نحن بالفعل كافرون، كافرون بقوانين الشرعية الدولية، كافرون بقانون الحسبة الذي يفرض علينا وصاية أصوليين يحاسبوننا بتأويلاتهم للنص المقدس، كافرون بقانون الطوارئ الذي يربض فوق صدورنا المختنقة بالقهر، واحتشد الكتاب والفنانون والمفكرون في مواجهة اضطرارية مع الفكر الأصولي، الذي خرج علينا من كهوف الحرب في أفغانستان، وحمل لواءه الأفغان العرب الذين لم يجدوا بُدًا من مواصلة الحرب المقدسة ضدنا، باعتبارنا محسوبين شئنا أم أبينا على حكامنا الكفرة وحكمهم الفاسد الكافر!

وبينما أمواج الإحباط والفرقة تتقاذفنا، عانت شركة التأمين الصحي التي أعمل بها من الركود الذي أصاب أحوال الناس في مصر، وبدأت الشركات في إلغاء تعاقداتها معنا، وهبط علينا خبير تأمين أمريكي - من المحالين للتقاعد الذين تطلقهم الحكومة الأمريكية كخبراء على البلاد التي تتلقى منها المعونات - ليعلمنا ما لم نعلم من شئون التأمين، ربما حدث ذلك بالصدفة بعد أن تعاقدت شركتنا مع السفارة الأمريكية لعلاج ألفين من موظفيها، في صفقة احتفل بها "السيد" صاحب العمل في لقاء غير تقليدي معنا ليصدر توجيهاته حتى نكون على مستوى العقد الاستثنائي الذي سيكون بوابة خير وفير!

وواصل الخبير الهمام صاحب الصوت الذي يشبه صوت الضفادع، ونظرة الاستعلاء التي تخفي قدرًا لا بأس به من غباء فطري، مهمته البهلوانية في شركة التأمين، وكنت الوحيد في

الشركة الذي لم يعره اهتمامًا، وبعد سفره أبلغوني أنه وصفني بالغلس، فحمدت الله أن رسالتي له كانت واضحة، فلم أكن أرى لوجوده أي معنى، وكنت أتساءل: هل نحن حقًّا بحاجة لهؤلاء الخبراء البلهاء الذين تجاوزهم الزمن ولفظتهم بلادهم؟!

الزيارة

بدأنا أنا وصاحب العمل نعد لزيارة ريشموند، وقبل وصوله بأيام طلبت منه أن يوفر سيارة لتنقلات الضيف مع زوجته فرفض قائلاً: إنه ضيفك أنت! وعندما طلبت من أخي أن يسهل خروجه من المطار، أجاب: يا راجل همّا الأمريكان محتاجين وسايط، ده الناس بتفرش لهم الأرض رمل، فذهبت وحدي لاستقباله في المطار، وتعرفت على زوجته لأول مرة، وأوصلته بسيارة أجرة لفندق الماريوت، وذكرني بأيام إقامتي في بوسطن، وسأل: هل أفادك ما تعلمته معنا؟ فأجبته: بالطبع، لقد تعلمت الكثير.

في زيارته الأولى للمستشفى استقبله السيد مرحبًا، وتنقلنا في جولة بأقسام المستشفى، وفجأة سأله: قل لي ماذا فعل عزت عندكم؟ وماذا كان مستواه؟ فأجابه ريشموند: لقد صار عزت صديقًا لي وأنا أعتز بصداقته، وأعرف قدراته جيدًا وهي ليست بالقليلة. كانت إجابته مفاجأة للسيد، إذ كنت في نظره مجرد واحد من أبناء البسطاء الذين أتاحت لهم الثورة التعليم المجاني، وأنني وإن كنت أملك شهادة جامعية إلا أنني لا أملك مؤهلات السادة فما بالك بالسادة الأمريكان!

ذهب ريشموند مع السيد لمقابلة وزير الشباب والرياضة للتفاوض

على إقامة مركز متخصص في الطب الرياضي بالمستشفى، دعاني بعدها السيد لاجتماع مغلق معه هو وريشموند لمناقشة الفكرة، حيث سأل ريشموند: كم تحتاج من الوقت للوصول بهذا المركز إلى مستوى مركزكم في بوسطن؟ ونوع الأجهزة التي نحتاجها؟ وما هي كلفتها وكلفة تدريب العاملين من أطباء وهيئة تمريض؟ أجاب: لن تحتاجوا بما تملكون من خبرات وأطباء وتجهيزات أكثر من عامين إلى ثلاثة أعوام على أقصى تقدير، يكتمل بعدها تدريب طاقم الأطباء والفنيين، وسيكون المركز الأول في مصر والشرق الأوسط، وبمجرد عودتي لأمريكا سأرسل إليك الكلفة الإجمالية لتشغيل المركز ومصاريف التدريب خلال العامين، واقترح، وربما فرض على السيد، أن أكون مديرًا لهذا المركز لأنه لا يثق في إمكانيات أحد غيري، وبعدها سألني: هل أنت راضٍ عن منصبك في المركز المنتظر؟ أجبته ممتنًا: بالطبع، لعلي أستطيع تقديم شيئًا مما تعلمته لأهل بلدي.

إستقبلتنا - عندما وصلنا لفيلا د/ فياض- السيدة حرمه، التي احتفت بنا ودعتنا للانضمام لبقية الضيوف في حديقة الفيلا، جلسنا أنا وريشموند وزوجته على طاولة تناثرت من حولها طاولات جلس إليها عدد لا بأس به من النجوم أصحاب المكانة في مهنة الطب وغيرها وصفوة المجتمع، وألقى علينا السيد تحية عابرة عند دخوله وانخرط في مجاملة رواد الحفل، ثم أعلن عن بدء محاضرة قامت سيدة إنجليزية بإلقائها عن تزايد أعداد الذين يقدمون على الانتحار في مصر، وعرضت رقمًا تليفونيًا يمكن الاتصال به على مدار الساعة طوال أيام الأسبوع، حيث يقوم فريق مؤهل بمساعدة المقدمين على الانتحار على تجاوز أزماتهم!

بدا ريشموند متململاً، وكذلك زوجته كريس التي نظرت إليّ نظرة استفهام متعجبة من موضوع المحاضرة، ولم نفهم أهمية المشكلة في مصر وأهمية عرضها على الحاضرين، الذين لا يعنيهم سوى زيادة أرصدتهم في البنوك، لكننا تحاملنا على أنفسنا حتى انتهت المحاضرة، وتوجهنا لتناول العشاء بعد أن كنا فقدنا شهيتنا تمامًا! ومال عليّ ريشموند ليسألني: أترغب في البقاء؟ فقلت ملهوفًا على الفرار: بالطبع لا.

اضطررت لاصطحاب ضيفيي سيرًا على الأقدام وصولاً للكورنيش حتى نجد سيارة أجرة، كان الليل قد أسدل أستار الظلام على الطريق، فوقفنا ننتظر سيارة تقبل بتوصيلنا للزمالك ونحن نتضاحك ساخرين من الحفل ومظاهر الادعاء المستفزة فيه، مرت دقائق من المرح وإذا بالسيد يمر أمامنا ويأمر السائق بإيقاف السيارة حيث نقف، وبخني بغضب لم أفهم له مبررًا: إيه ده إنت ما معاكش عربية؟ ثم أخذ الرجل وزوجته معه في السيارة، وتركني أنتظر وسيلة ما تعود بي إلى الفندق والحنق يكاد يعصف بي!

مساء اليوم التاليْ، ذهبنا أنا وريشموند وزوجته لحفل عشاء في منزل السيد، حضره أساتذة جراحة العظام بالمستشفى مع زوجاتهم، ومسئول من السفارة الأمريكية، وأحد أعضاء المكتب السياسي للحزب الحاكم! حاولت مجاملة الجميع قدر الجهد، وكان تركيز الحوار مع الضيف الرئيسي كفيلاً بابتعادي عن المتحلقين حوله، وإن بادلتهم الضحك كلما سخر أحدهم من سيارة الآخر، أو من خيبته في التعامل مع الجنس اللطيف، مع خفض الصوت لزوم احترام الهوانم زوجاتهم!

في اليوم التالي تواترت أنباء دعوتي لمنزل السيد، وسافر ريشموند مع كريس للغردقة مقيمًا في قصر السيد هناك لثلاثة أيام ينطلق بعدها للأقصر، وتحملت تكلفة تذكرة الطائرة للقيام بواجب الضيافة مع أستاذي وزوجته في الأقصر، نزلت بفندق قريب من الفندق الذي نزلا فيه، قضينا يومين في أحضان تاريخ الفراعنة ومعابدهم، صباح اليوم الأول في معبد الأقصر، وفي المساء ذهبنا لمعبد الكرنك حيث حضرنا حفل الصوت والضوء، الذي بهر الرجل وزوجته.

لم أتوقف عن الحديث وتبادل النكات مع سائق الكاريتة التي اقلتنا إلى معبد الكرنك، لكني التزمت الصمت الواجب أثناء عرض الصوت والضوء، الذي أضفى على الجميع إحساسًا بعظمة المكان وتاريخ الفراعنة، وأصر ريشموند على دعوتي للعشاء في أي مكان اختاره، فاخترت مستعينًا بصديقي سائق الكاريتة مطعمًا في نهاية كورنيش الأقصر، دخلنا وجلسنا إلى طاولة إختارتها كريس، استدعيت المتردوتيل وقلت له: هؤلاء ضيوفي من أمريكا، وأريد أن تقدم لهم أفضل خدمة، عايزهم يحسوا إن الدنيا هنا كلها ملكي موافق؟ فأومأ: تحت أمرك يا باشا، وتبارى العاملون في خدمتنا خدمة راقية، خرجنا بعدها لنجد سيارة الأجرة في انتظارنا، أوصلتنا للفندق حيث ودعتهم.

ذهبنا في الصباح للبر الغربي، تجولنا في وادي الملوك والملكات حيث المقابر الملكية فائقة الروعة بديعة التصميم بألوانها ورسومها الناطقة بالجمال والحيوية، ثم استرحنا في كافيتيريا

قبالة معبد هابو البديع على كراسي مصنوعة من جريد النخل، فقال ريشموند: سنعود غدًا، ونحن في غاية السعادة بالأمكنة الرائعة التي زرناها، أنا فخور بزيارتي لبلدكم العظيم، لكن لا تنسى أمامنا الكثير من العمل علينا إنجازه، بالمناسبة، كيف ستدبر أمر عودتك للقاهرة؟ فقلت: حجزت في قطار الصباح الباكر، فقال ريشموند بحزم: لا، لا بد وأن نعود معًا بالطائرة، حاولت التملص من دعوته بالقول: لا داعٍ لذلك سأكون في القاهرة قبلك لا تقلق، لكنه أصر على سفري معهم وهو ما كان.

عصر ذلك اليوم التقينا مع صديقي فتحي - يعمل في بازار للمشغولات الذهبية والفضية، إضافة لعمله في هيئة قصور الثقافة مخرجًا مسرحيًا - في مقهى شعبي بحي السوق، وبعد قليل دعانا لرحلة فسألته إلى أين؟ فقال: لا تسأل إنها مفاجأة! أشار لسيارة أجرة سارت على طريق الكورنيش، ثم أمر السائق بالتوقف أمام باب حديقة تفوح منها رائحة زهور خلابة، دخلناها وسرنا تحوطنا أشكال وألوان من الزهور البديعة، حتى وصلنا باب فندق نوفوتيل، جلسنا في البهو نتبادل أنخاب البيرة، وعندما لمَّحت له برغبتنا في العودة أصر على بقائنا حتى نشهد الحدث الكبير!

أعلن في الإذاعة الداخلية للفندق: على جميع الراغبين ضرورة الذهاب لحضور حفل وداع الشمس على شاطئ النهر، ذهبنا إلى هناك والشمس توشك على المغيب، ووجدنا نزلاء الفندق يتوافدون مسرعين، ويتخذون أماكنهم عبر الممر الصخري المؤدي للنهر، ثم على أنغام آلة الفلوت تعزف لحن "مونامور" رأينا مشهد قرص الشمس الأحمر المهيب يختفي حثيثًا وسط التلال الصخرية على

الضفة الأخرى ليختفي حيث مضجعه في عمق النهر، في مشهد أسطوري اختتمنا به رحلتنا الإمبراطورية!

بعد عودتنا، قام ريشموند وأنا أساعده بإجراء عمليتين، إحداهما للاعب كرة قدم بالنادي الأهلي، والثانية لأحد لاعبي منتخب كرة اليد، وحضرت الآلات اللازمة للجراحة من البحرين بصحبة المدير الإقليمي للشرق الأوسط للشركة المنتجة للآلات أمريكي الجنسية، وتولت رئيسة التمريض في العمليات مناولتنا الآلات حسب تعليماته، حيث حضر العملية ليطمئن أن كل شيء على ما يرام، وتابعنا أثناء إجراء العملية أحد الأساتذة، وصفق لنا بعد الانتهاء معلقًا: هذه سيمفونية وليست مجرد عملية جراحية، شكرني ريشموند وذهب من فوره للفندق.

كان موعدنا في الصباح لزيارة المتحف المصري، وأمضينا فيه قرابة ثلاث ساعات، ولأنه كان يوم ريشموند الأخير في مصر دعوته على الغداء في الحسين، وقمنا بجولة في خان الخليلي، ولم تبهره كثيرًا المعروضات في الخان، لكنه تأكد من إكرام فتحي له فيما أشتراه من حلي وهدايا من البازار الذي يعمل به، ثم أرسلت له في المساء سيارة أجرة أحضرته للبيت في العباسية، استقبلته أنا وفردوس هو وزوجته.

تطلع لأثاث البيت المتواضع، وتأمل اللوحات المستنسخة في حجرة الجلوس وبساطة المكان ثم نظر ضاحكًا إلى كريس: قولي له يا كريس كيف ظللنا منذ زواجنا نعيش في أستديو أصغر من هذا قبل أن ننتقل لبيتنا الحالي بعد أن صار ابننا في العاشرة من

عمره؟ فقالت كريس في لطف بالغ: عشنا في أستوديو مكون من حجرتين وصالة صغيرة، وبقينا حتى العام الماضي حيث انتقلنا إلى منزلنا الخاص الذي علينا تسديد أقساطه لعشرة أعوام قادمة، وقال: لا عليك عزيزي، هكذا تكون البدايات دائمًا، كان يهمني زيارتك في بيتك لأن هذا يعمق الصداقة بيننا، وأنا في شدة الأسف أن الوقت لم يسعفني وربما لم أفكر في دعوتك لزيارتي في بيتي وكان عليّ أن أفعل، على أية حال لقد أصدرت كريس قرارًا لا رجعة فيه، إن أنت عدت لزيارة أمريكا ثانية سيكون منزلنا في انتظارك، ولن تقيم في أي مكان سواه، وياريت فردوس تكون معك في المرة القادمة.

تبادلنا الهدايا، وودعته حتى سيارة الأجرة التي كانت في انتظاره أمام البيت بعد جلسة ردت إليّ الروح، وأعادت لي ثقتي بنفسي فرحًا بأن هناك من يدرك قيمة الناس بغض النظر عما يملكون، وقال قبل ركوبه السيارة: أود أن أعبر لك عن امتناني لدعوتك الكريمة لزيارة بلدكم الذي أحببته، لقد أتحت لي أن أرى ما لا يراه أي سائح، وأن أفهم ما لا يفهمه أي سائح عن بلدكم وحضارته العظيمة، الآن فقط أدرك كيف نشأ لديك كل هذا الإصرار على النجاح، لك أن تفخر بما أنت عليه، وسيأتي اليوم الذي تحقق فيه كل ما تتمناه فأنت مؤهل للنجاح، كان وداعًا حارًا، واعتذرت له عن عدم استطاعتي الذهاب معه للمطار فقال: لا عليك فلتحضر لوداعنا في الفندق، وهكذا، ذهب ريشموند، لكن حكايته معي لم تمحَ من ذاكرتي.

بعد الزيارة، بدأ مدير شركة التأمين رئيسي في العمل في

التلميح بأنني شخصية خطيرة، وكان يخاطب سائق صاحب العمل مشيرًا إليّ بخبث: ده مش سهل يا عم وجدي! إضافة إلى تلميحات للزملاء بنفس المعنى، تحذرهم من شخصي المتواضع، مبتسمًا ابتسامة صفراء لم أفهم معناها! لكني مع الوقت - من خلال بعض العاملين القريبين بحكم عملهم من السيد- بدأت أفهم معنى تلمحيات المدير وأسباب موت فكرة المركز التخصصي في الوقت ذاته، ما دعاني إلى نسيان الزيارة وكل ما حدث أو قيل فيها أو عنها.

كان المدير الطبي، والسيدة إنجي المدير التنفيذي للشركة يحظيان بثقة السيد العمياء، صاحب فكرة إقامة المركز بالتعاون مع ريشموند ومستشفاه في بوسطن، وما أن عرفوا بليلة العشاء التي حضرتها لأسباب بروتوكولية بحتة بمنزل السيد حتى ثارت حفيظتهم، ظانين أني صرت مقربًا من السيد لدرجة تهدد مكانتهم لديه! وعندما علموا بأمر المركز وأنني المرشح لإدارته قاموا بالواجب لوأد الفكرة! وعبر أساتذة العظام بالمستشفى عن استنكارهم أن أتولى إدارة المركز المزعوم، وقال أحدهم بالحرف: مين العيل ده إللي يتولى إدارة مركز متخصص سيتكلف آلاف الدولارات؟ أما السيد صاحب القرار النهائي، فقد أعلن لآخرين استياءه عندما رآني متلبسًا بالسير على أقدامي، مصطحبًا أستاذي وزوجته في الشارع، وعلق بأنه كان تصرفًا غير لائق لن يغفره لي أبدًا!!

قدم هذا وذاك من الزملاء ما أمكنه ليطيحوا بفكرة المركز والعبد لله مديره المرتقب، دون أن أعلم شيئًا عما بذلوه من جهد، بينما

كنت في قمة سعادتي - لفترة لم تتجاوز أسابيع قليلة- بأن أُمنَح فرصة لإظهار كفاءتي، حتى تبين لي حمق أحلامي وسذاجة تطلعاتي، فلا يهم كفاءة ولا قدرات، ما يهم هو من أنا؟ ابن من؟ وماركة السيارة التي أملكها، ومدى قربي من السيد الذي لم يغفر فعلتي الشنعاء بالسير على الأقدام مع ريشموند وزوجته!



لخيال المهيمن على "السير على الأطراف"؛ خيال مكاني..
وكأن الانسان -في كل فصل من فصولها- يستكشف مقولة
ابن عربي "المكان الذي ليس له مكانة لا يعول عليه"..
البطل يستكشف الأماكن ويؤكدها، يحدث ذلك داخل مصر،
والقاهرة خاصة، من خلال جولاته النهارية والليلية فيها،
وحواراته مع مثقفيها وناسها البسطاء أيضًا، كما يحدث أيضًا
خلال مهمته العلمية في الولايات المتحدة، حين ذهب إليها
واستغرق في مقارنات لا تنتهي بين الشرق والغرب، بين
العلاقات الانسانية والمتغيرات السياسية والاقتصادية
والثقافية هناك وبين مثيلاتها هنا.

د. شاكر عبدالحميد

